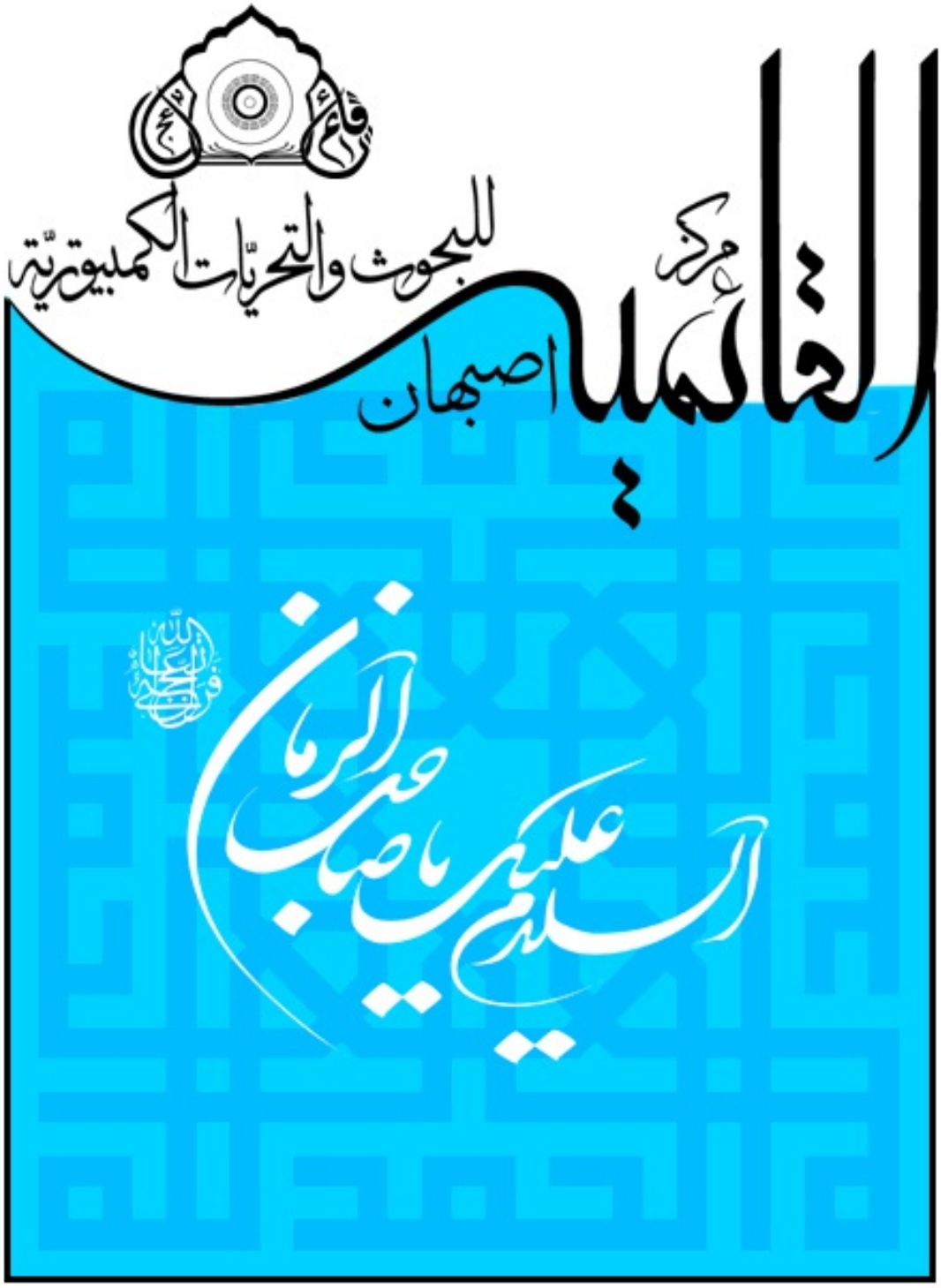

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

ميقات الحج

مجلة فصلية تعنى بالشؤون الفكرية
والتاريخية والحضارية والأخبار العامة للحج

٣٠

• الحج.. رموز ودلالات (٤) • صلاة الطواف ومكانها •
• فتيات معاصرة في الحج «٣» • فقه البدل في الحج «٢» •
• صفحات من تاريخ المدينة المنورة •
• حكايات من مكة المكرمة • أسماء بنت عميس.. داعية لحقني •
• الرحلة الحجية للعلامة السيد محسن الأمين •
• مكة المكرمة دراسة في جغرافية المدن •

بسم الله الرحمن الرحيم

دو فصلنامه « میقات الحج »

کاتب:

محمدی ری شهری

نشرت فی الطباعة:

مشعر

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
میقات الحج-المجلد ۳۰ ----- ۶
اشارة ----- ۶
ملاحظات ----- ۶
اشارة ----- ۶
الحج رموز و حکم (۷) ----- ۷
السعی ----- ۳۹
ائمة اهل البیت (علیهم السلام) حفاظ السیرة النبویة و سننه و أحادیثه ----- ۷۶
فقه الحج ----- ۱۱۱
(والفجر* و لیال عشر) ----- ۱۱۸
شخصیات من الحرمین الشریفین (۲۴) أبی بن کعب ----- ۱۴۶
أیام التشریق فی القرآن الکریم ----- ۱۷۶
عمر الأطرف بن الإمام علی بن أبی طالب (ع) و روایاته فی الحدیث و الآثار ----- ۲۰۸
مظهر الحج نموذجا ----- ۲۴۹
قراءة فی آیة من آیات الحج ----- ۲۵۹
تعریف مرکز ----- ۲۸۵

میقات الحج-المجلد ۳۰

اشارة

عنوان و نام پدیدآور : میقات‌الحج : مجله نصف سنویه، تعنی بالشوون الثقافیه .....محمد محمدی‌ری‌شهری.

مشخصات نشر : [بی‌جا: بی‌نا، ۱۴۱۷ق = ۱۳۷۵.

مشخصات ظاهری : ۳۰۰ص.:نمونه، عکس.

شابک : ۵۰۰۰ ریال

وضعیت فهرست نویسی : فهرست نویسی توصیفی

یادداشت : عربی.

یادداشت : شماره پنج این مجله بنام میقات الحج است.

یادداشت : پشت جلد به انگلیسی: Mighat al - Haj.

یادداشت : کتابنامه.

شناسه افزوده : محمدی ری‌شهری، محمد، ۱۳۲۵ -، مدیر مسئول

شناسه افزوده : قاضی‌عسکر، سیدعلی، ۱۳۲۵ -

شماره کتابشناسی ملی : ۱۵۴۲۸۹۶

ص: ۱

ملاحظات

اشارة

یرجی من العلماء و المحققین الأفاضل الذین یرغبون فی التعاون مع المجلة أن یراعوا عند إرسال مقالاتهم النقاط التالیة:

۱- أن تقترن المقالات بذکر المصادر و الهوامش بدقّة و تفصیل.

۲- أن لا تتجاوز المقالة ۴۰ صفحة و أن تکون مضروبة علی الآلة الکاتبة إن أمکن أوأن تکتب بخط الید علی وجه واحد من کلّ ورقة.

۳- أن تکون المادّة المرسلة للنشر فی المجلة غیر منشورة سابقاً و غیر مرسلة للنشر إلی مجلة أخری.

۴- تقوم هیئة التحریر بدارسة و تقییم البحوث و الدراسات المقدمة إلی المجلة، ولها الحقّ فی صیاغتها و تعدیلها بما تراه مناسباً مع مراعاة المضمون والمعنی.

۵- یعتمد ترتیب البحوث و المقالات فی المجلة علی أسس فنیّة و لیس لأسباب أخری.

۶- تعتذر هیئة التحریر عن إعادة المقالات إلی أصحابها سواء أنشرت أم لم تنشر.

۷- المقالات و البحوث التی تنشر علی صفحات المجلة تمثل وجهات نظر و آراء کتّابها.

۸- ترسل جمیع البحوث و المقالات علی عنوان المجلة فی طهران.

۹- ترحّب هیئة التحریر فی مجلة میقات الحج بملاحظات القرّاء الکرام و مقترحاتهم.

الحج رموز و حكم (۷)

ص: ۲

الله سبحانه وتعالى حكيم، لهذا كان لأفعاله أهداف (۱)، نعم، إنّه تبارك وتعالى منزّه عن الهدف أيضاً بسبب غناه الذاتى، إلّا أنّ العالم نفسه له هدفٌ وجودىّ يناله ويبلغه. والهدف الأسمى والكمال النهائى للمخلوق يكمن فى صيرورته عبداً لله وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْانسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (۲).

ومن الواضح أنّ الله تعالى ليس محتاجاً حتّى يُعبد؛ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِى الْارْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ (۳) فالعبادة- بظاهرها وباطنها- غايةٌ للمخلوق، وليست غاية للخالق الغنىّ المحض.

«الحجّ» مثل سائر العبادات، غاية للخلق، لا للخالق، لأنّه عين الغنى ومحض الكمال، وبذلك يظهر سرّ الكلام الإلهى واضحاً حيث يقول: وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (۴)؛ لأنّ الحجّ عبادة فرضت من الله تعالى على عبيده، وهم الذين يحتاجون لإقامة الحجّ والعمرة، فإذا كفروا- والحال هذه- فعليهم أن يعلموا أنّ الله غير محتاج للعالمين، فكيف يحتاج للخلق من الناس وعبادتهم؟!

العبادة، وسيلة الشهود الوحيدة

هدف الإنس والجنّ فى نظام التشريع هو تكاملهم العبادى، وإذا ما فتق الإنسان صاحب الروح العقلى المجرّد، روحه، فإنّه سوف يصبح هدفاً للكثير من المخلوقات التى تقع دونه، وإن كان الهدف النهائى هو الله سبحانه وتعالى.

إنّ هدف خلق العالم هو اطّلاع الإنسان على علم الله وقدرته العظيمين اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات وَمِنَ الْارْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْامْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْء عِلْماً (۵)، والعلم الحصولى واليقين الاستدلالى وإن كانا كمالًا علميّاً وهدفاً مقصوداً إلّا أنّهما يعدّان وسيلةً- فقط- مقارنةً بالعلم الحضورى واليقين الشهودى كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ* ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (۶)، أى أنّه يمكن الوصول إلى عين اليقين بعلم اليقين.

بناءً عليه، يمكن اعتبار اليقين الشهودى بالمعارف هدفاً نهائيّاً للخلقة، وهذا اليقين الشهودى يعتمد دائماً على العبادة التى هى الوسيلة الوحيدة لشهود السالك وظهور الغيب وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (۷)؛ أى أنّه يمكن الوصول إلى عين اليقين بعلم اليقين.

نعم، شكل الاعتماد على العبادة يتناسب فى كلّ نشأة مع تلك النشأة، ففى الدُّنيا تعتمد على العبادات التشريعيّة، وفى الآخرة تقوم على باطن تلك العبادات.

إنّ العبادة وإن كانت- بالمعنى الذى ذكرناه- غاية الخلقة، إلّا أنّها فى نفسها مقدّمة لليقين، واليقين هو الغاية وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ، والحجّ أيضاً يمثّل إعداداً لهذا الهدف الرفيع للعبادة، أى اليقين؛ لأنّه نورٌ وبصيرة وشهود، من هنا جاء فى الروايات أنّ تارك الحجّ يحشر أعمى، وأنّه أعمى فى الدُّنيا وفى الآخرة كذلك وأضلّ (۸).

ويُستنتج من الآية الشريفة: اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَات وَمِنَ الْارْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْامْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَىْء قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْء عِلْماً (۹)، أنّ هدف ظهور العالم، أى ظهور الحقّ فى مرآة الخلق، هو اطّلاع الإنسان السالك على علم الحقّ وقدرته، وهذا العلم الشهودى يجعل العارف الواصل مظهراً للعليم القدير، بحيث إذا أذنَ الله تعالى، يمكنه ببسم الله الرحمن الرحيم أن يفعل ما كان يتحقّق فى الآخرة بصرف الإرادة ... أن يفعله فى الدُّنيا كذلك، وكلّ ما يريد أن يعلمه فإنّه يشاهده.

۱- المؤمنون: ۱۱۵.

۲- الذاريات: ۵۶.

۳- إبراهيم: ۸.

۴- آل عمران: ۹۷.

۵- الطلاق: ۱۲.

۶- التكاثر: ۵- ۷.

۷- الحجر: ۹۹.

۸- انظر وسائل الشيعة ۸: ۱۷- ۱۹.

۹- الطلاق: ۱۲.

ص: ٣

كشف سبيل سرّ العبادة

إنّ ما يقع داخل إطار عمل الجوارح أو على مستوى خواطر الجوانح، يكون من أحكام العبادات أو من آدابها، وليس أىّ منهما سرّاً للعبادة، فقط ما يقع فى مدار شهود العقل النظرى وانبعاث العقل العملى .. هو ما يمكن عدّه سرّاً للعبادة.

وكما تجب مراعاة قوانين الفقه الأصغر، دون أن تكفى فى نيل أسرار العبادات، فإنّ مراعاة الفقه الأوسط، أى فنّ الأخلاق الشريف، يظلّ لازماً أيضاً، لكنّه أيضاً لا يكفى، بل المطلوب احترام إرشادات الفقه الأكبر، عنيت العرفان النظرى والعملى، حيث يُتمكّن من العثور على السبيل لمصدر نزول العبادة عبر الضمير الشاهد والسرّ الطاهر، ليتمّ عبر ذلك إنجاز الأمر من خلال السُبل الإدراكيّة والتحريكيّة للمعبود، كما يشير إلى زاوية من ذلك حديثُ قرب النوافل (١). وهناك لا يكتفى السالك الواصل ببلوغ سرّ العبادة، بل يصبح بنفسه فى موقع سرّ المعبود، ومخزن علمه: «هم موضع سرّه، ولجأ أمره، وعيبة علمه، وموئل حُكمه، وكهوف كتبه، وجبال دينه» (٢).

حقيقة الإنسان الكامل سرّ العبادات كافّة

ثمّة علامات لبلوغ سرّ العبادات، وتوضيح ذلك أنّ ما هو شروط الصحّة والقبول الطولى للعبادات- لا الشرط العرضى- يحسب من أسرارها، فمثلًا الطهارة شرط صحّة الصلاة، إلّا أنّ هذا النوع من الاشتراط وإن اشتمل تقدّماً رتبيّاً، إلّا أنّه على مستوى معرفة السرّ يقع فى عَرْض العبادات المشروطة والموقوفة، لا فى طولها؛ لأنّ الشرط الطولى لقبول الطهارة والصلاة هو الورع والتقوى، قال تعالى: إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٣).

إنّ قبول التقوى رهن بولاية الإنسان الكامل؛ لأنّ أىّ عبادة- بل تقوى- ليست مقبولةً دون تولّى المعصومين:، حتّى أنّ القبول بولايتهم دون الاعتقاد بولايتهم التكوينيّة التى هى سرّ كونهم ولاةً، هو الآخر غير مقبول (٤)؛ لأنّ القبول بولايتهم وإدارتهم- كالصلاة والصوم والزكاة والحجّ و ...- من فروع الدِّين (٥)، ولكلّ فرع أصل، يعدّ سرّاً لهذا الفرع، من هنا يُعلم أنّ حقيقة الإنسان الكامل هى سرّ العبادة، وكلّ سالك ينال سرّ العبادة بمقدار بلوغه من الكمال الإنسانى، وأكمل البشر هم المعصومون (عليهم السلام) الواصلون للسرّ النهائى للعبادة؛ لهذا كانوا الصراط المستقيم (٦)، وميزان الأعمال (٧).

وبغية الوصول إلى هذا الهدف السامى، لا مجال سوى بإعمال العقل واليقظة والوعى فى مراقبة حرم القلب الآمن؛ فالحكمة لا تحصل دون تدبّر وتعمّق، وصيرورة الإنسان أهل رأى ونظر لا تحصل دون حمل السرّ وطهارة الضمير وصيانة الذات: «الظفر بالحزم، والحزم بإجالة الرأى، والرأى بتحصين الأسرار» (٨).

سرّ الحجّ وثمراته

الصورة الباطنيّة للحجّ

لكلّ عبادة بطنٌ وسرّ، وذلك:

أوّلًا: إنّ العبادات امور تحدّث عنها الله سبحانه فى كتابه.

١- بحار الأنوار ٦٧: ٢٢: «ما تحبّب إلىَّ عبدى بشىء أحبّ إلىَّ ممّا افترضته عليه، وإنّه ليتحبّب إلىَّ بالنافلة حتّى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يُبصر به، ولسانه الذى ينطق به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، إذا دعانى أجبته وإذا سألنى أعطيته ...».

٢- نهج البلاغة، الخطبة: ٢، الفقرة: ١٠- ١١.

٣- المائدة: ٢٧.

۴- انظر: وسائل الشيعة ١: ٩٠- ٩۶.

۵- انظر: المصدر نفسه: ٧- ١٩.

۶- راجع: الكافى ١: ۴١۶.

٧- انظر: المصدر نفسه: ۴١٩، ۴٣٣.

٨- نهج البلاغة، الحكمة: ۴٨.

ص: ۴

ثانياً: لكتاب الله ظاهر وباطن: «... إنّ لكتاب الله ظاهراً وباطناً» (۱)، وهذا معناه أنّ كلّ ما جاء فى القرآن- ومنه الحجّ- له ظاهر يعرفه الناس، وباطن لا يراه إلّا الشهوديّون والعرفاء، ولا يناله غيرهم.

بعبارة اخرى: كلّ ما أثنى عليه الوحى الإلهى فله ظاهر يتواصل معه الناس بجسدهم وقوالبهم، وباطن يتّصل به الإنسان بالقلب ويناله به. وتنزل العبادات- ومن بينها الحجّ- حالها حال سائر موجودات العالم الاخرى ... من خزائن الغيب الإلهى: وَإِنْ مِنْ شَىْء إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَر مَعْلُوم (۲)، وهى كغيرها من الموجودات تنزل إلى واقعيّات متّكئةً على مخازن الغيب، وعليه فمن يعرف هذه الامور العبادية ويعمل بها يصل إلى اصولها وجذورها فى مخزن الغيب.

وهناك روايات واردة فى الصور الباطنيّة للأعمال العباديّة، وهى تنظر إلى هذه النقطة التى أشرنا إليها، حيث يتعرّف الإنسان فى البرزخ الصعودى أو النزولى على تلك الواقعيّات، وطبعاً عدد قليل من الناس يعرفون هذه الحقائق قبل تنزّل الأعمال لهذا العالم (فى البرزخ النزولى)، تماماً كما يعرف سائر الناس بعد الموت (فى البرزخ الصعودى) حقيقة الصلاة والحجّ والزكاة ويفهمونها، ويرون صورها الملكوتيّة.

وكما يقول الحديث: «إذا مات العبد المؤمن دخل معه فى قبره ستّة صور، فيهنّ صورة أحسنهنّ عن يمينه، واخرى عن يساره، واخرى بين يديه، واخرى خلفه، واخرى عند رجله، وتقف التى هى أحسنهنّ فوق رأسه؛ فإن أتى عن يمينه منعته التى عن يمينه، ثمّ كذلك إلى أن يؤتى من الجهات الستّ، فتقول أحسنهنّ صورةً: ومن أنتم جزاكم الله عنّى خيراً؟ فتقول التى عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التى عن يساره: أنا الزكاة، وتقول التى بين يديه: أنا الصيام. وتقول التى خلفه: أنا الحجّ والعمرة. وتقول التى عند رجليه: أنا برّ من وصلت من إخوانك. ثمّ يقلن: مَنْ أنت؟ فأنت أحسننا وجهاً، وأطيبنا ريحاً، وأبهانا هيئة. فتقول: أنا الولاية لآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين» (۳).

تدلّ هذه الرواية على أنّ للحجّ صورةً باطنيّة تظهر فى صورة ملكوتيّة عندما ينتقل الجميع من عالم المُلك إلى عالم الملكوت، ويسافرون ويهاجرون حيث تتبدّل الدُّنيا إلى آخرة.

ولأماكن الحرم- مكاناً مكاناً- وكذلك لمناسك الحجّ والعمرة، أسرار ورموز، لا تنكشف إلّا لزائرين خاصّين يشاهدون صاحب البيت فى المجالى والتمظهرات المختلفة، وينالون اللِّقاء بربّ البيت وشهود الآيات الآفاقيّة والأنفسيّة له، ويمتثلون الحجّ الإبراهيمى والاعتمار الأصيل الحسينى (عليهما السلام).

ويوضح الإمام الصادق (ع) بعض أسرار الحجّ، والتى تشكِّل الوجهة الباطنيّة له، فيقول:

«... ثمّ اغسل بماء التوبة الخالصة ذنوبك، والبس كسوة الصّدق والصفاء والخضوع والخشوع، وأحرم عن كلّ شىء يمنعك من ذكر الله ويحجبك عن طاعته، ولبِّ بمعنى إجابة صافية خالصة زاكية لله عزَّ وجلَّ فى دعوتك، متمسّكاً بالعروة الوثقى. وطف بقلبك مع الملائكة حول العرش كطوافك مع المسلمين بنفسك حول البيت. وهرول هرباً من هواك وتبرّياً من جميع حولك وقوّتك. واخرج عن غفلتك وزلّاتك بخروجك من منى، ولا تتمنّ ما لا يحلّ لك ولا تستحقّه. واعترف بالخطايا بعرفات. وجدّد عهدك عند الله بوحدانيّته، وتقرّب إلى الله واتّقه بمزدلفة. واصعد بروحك إلى الملأ الأعلى بصعودك إلى الجبل. واذبح حنجرة الهواء والطمع عند الذبيحة. وارم الشهوات والخساسة والدناءة والأفعال الذميمة عند رمى الجمرات. واحلق العيوب الظاهرة والباطنة بحلق شعرك. وادخل فى أمان الله وكنفه وستره وكلاءته من متابعة مرادك بدخولك الحرم. وزُر البيت متحقّقاً لتعظيم صاحبه ومعرفة جلاله وسلطانه. واستلم الحجر رضاءً بقسمته وخضوعاً لعزّته. وودّع ما سواه بطواف الوداع. وأصف روحك وسرّك للقاء الله يوم تلقاه بوقوفك على الصفا. وكُن ذا مروّة من الله نقيّاً أوصافك عند المروة ...

١- بحار الأنوار ٨٩: ٩٠.

٢- الحجر: ٢١.

٣- بحار الأنوار ٦: ٢٣٤.

ص: ۵

واعلم بأنّ الله تعالى لم يفترض الحجّ ولم يخصّه من جميع الطاعات بالإضافة إلى نفسه بقوله عزّ وجلّ: وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا (۱)، ولا شرع نبيّه (ص) سنّة في خلال المناسك على ترتيب ما شرعه، إلّا للاستعداد والإشارة إلى الموت والقبر والبعث والقيامة ...» (۲).

سرّ الحجّ في السير إلى الله

كما كان الحجّ لله ووجوبه منه: وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا (۳)، كذلك لابدّ أن يكون امتثاله والقيام به لله أيضاً؛ فإذا أراد شخص الحجّ بقصد السياحة والتجارة وأمثال ذلك فإنّ حجّه هذا ليس له أيّ سرّ من حيث إنّه ليس سيراً إلى الله تعالى، فإنّ أهمّ أسرار الحجّ هو السير إلى الله سبحانه، تماماً كما طبّقت بعض الروايات الآية الكريمة: فَفِرُّوا إِلَى اللهِ (۴) على الحجّ (۵).

إنّ سفر الحجّ فرار من غير الله إلى الله سبحانه، وحيث الله في كلّ مكان (۶)، فليس معنى «السير إلى الله» هو السير المكاني أو الزماني، بل الفرار إلى الله معناه ترك الإنسان ما سوى الله وطلبه لله سبحانه، وعليه فإذا سافر إنسانٌ إلى الحجّ بقصد التجارة أو الشهرة أو ما شابه ذلك، فقد حقّق «الفرار من الله» لا «الفرار إلى الله».

إنّ مسيرة إقامة الحجّ التي تكمن في الانقطاع عمّا سوى الله والهجرة إليه سبحانه، كي يُنال لقاؤه ... كلّها «إلى الله» و «في الله» و «مع الله» و «لله»، من هنا جاء في بعض أدعية الحجّ وأمثاله: «بسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله» (۷).

زاد سفر الحجّ

لم يرد تعبير «الزاد» في القرآن الكريم سوى في الآية الشريفة: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى (۸)، حيث يشتمل صدرها- بل وما قبلها وما بعدها من آيات- على بيان بعض أحكام الحجّ؛ وسرّ المطلب وجود سفر في الحجّ: وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (۹) وحيث كانت هناك حاجة في السفر للزاد والمؤونة، لذا ذكّر الله سبحانه بذاك السفر الأصلي والأصيل الذي هو الآخرة، فأمر بالتقوى.

إنّ قوله تعالى: وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى:

أوّلًا: يرشد إلى الطريق، وبدلالته على تعيين الزاد، وهو التقوى، فإنّه يبيّن أنّ المراد هنا هو السلوك إلى الله تعالى، فإنّ الله هو أهل التقوى، كما أنّه أهل الجود والجبروت.

ثانياً: يحذّر الناس بأنّهم جميعاً مسافرون؛ لأنّ التزوّد علامة أنّ الإنسان مسافر.

ثالثاً: يُعلِم بأنّ المسافر من دون زاد لا يمكنه الحركة ولا التقدّم.

رابعاً: يرشد الجميع إلى أنّ أفضل الزاد هو التقوى.

خامساً: يبيّن أنّ الحجّ من أبرز مصاديق التقوى.

سادساً: يذكّر بأنّ أفضل نوع من أنواع التقوى هو التقوى الإلهيّة، (فَاتَّقُونِ)، فإنّ زاد السالكين الذين ينشأ ورعهم وتقواهم من الخوف من نار جهنّم أو الشوق إلى الجنّة، ينتهي زادهم في وسط الطريق، ولا يصلون إلى لقاء الله في سفر الآخرة؛ لأنّ هدفهم كان الفرار من جهنّم أو الوصول إلى الجنّة، وبعد ذلك يقفون في حركتهم، لأنّهم لا زاد معهم لغيرها.

۱- آل عمران: ۹۷.

۲- بحار الأنوار ۹۶: ۱۲۴- ۱۲۵.

۳- آل عمران: ۹۷.

۴- الذاريات: ۵۰.

۵- وسائل الشيعة ٨: ۵.

۶- البقرة: ١١۵، الزخرف: ٨۴، الحديد: ۴.

٧- بحار الأنوار ٩۶: ١٢٠.

٨- البقرة: ١٩٧.

٩- الحجّ: ٢٧.

ص: ۶

أمّا تقوى الأحرار التى لا تنشأ من خوف النار ولا طمع الجنّة، وإنّما من محبّة الله سبحانه، فإنّها تستمرّ بهم إلى لقاء الله، فيصلون إليه، لما عندهم من الزاد، فالتقوى التى تنال الله تعالى ليست صفةً منفصلةً عن روح المتّقى وذاته، فصاحبها متّق يحظى بلقاء الله.

إنّ سفر الحجّ للزائر الذى وصل للمقصد وعثر على مقصوده فى ذلك المقصد ثمّ رجع، هو سفرٌ «من الحقّ إلى الخلق بالحقّ»، وهذا المسافر لديه سفر نفسى إلى جانب السفر الافقى والآفاقى، وهو يدرك أنّ الله تعالى معه: وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ (۱)، إنّ مثل هذا الزائر يرجع إلى دياره ومعه مضيفه نفسه (۲)، بنورانيّة تجعله كأنّه ولد من امّه من جديد «مَن أَمَّ هذا البيت حاجّاً أو معتمراً مبرءاً من الكبر، رجع من ذنوبه كهيئة يوم ولدته امّه» (۳)، والناس مكلّفون بزيارة مثل هذا القادم من سفر الحجّ قبل أن يتلوّث حجّه بأىّ معصية أو ذنب، فينالون بذلك من النور الإلهىّ لِحجَّتِهِ (۴).

تزكية الروح فى ضوء معرفة الأسرار

يقع قسم مهمّ من تزكية النفوس فى ضوء معرفة أسرار العبادات والأحكام الدينيّة، إنّ تعليم الكتاب والحكمة الوارد فى الآية الشريفة: يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ (۵)، مفهوم يستوعب العقائد والأخلاق والأعمال العباديّة، كما يستوعب أيضاً القضايا الاقتصاديّة، والسياسيّة، والعسكريّة، وما شابهها، من هنا فالتزكية المذكورة فى هذه الآية أتت أيضاً لبيان باطن هذه الامور كافّة، وكما أنّ تزكية أىّ عمل تكون بنيل أسرار ذلك العمل، فإنّ أىّ عمل له سرّ، يكون الاهتمام به أساساً لتزكية الروح.

والحجّ مثله مثل سائر العبادات والآداب والسنن والفرائض، جاء لتهذيب النفس، فمحرّمات الحجّ جاءت لتطهير القوى التى تتورّط أحياناً بالمعاصى والمهلكات. كما أشارت الآية الشريفة: (فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ) (۶)، إلى ثلاثة محرّمات فى الحجّ، يتعلّق كلّ واحد منها بتطهير قوّة من القوى الإنسانيّة، ف- (لا رفث) تنظر إلى تطهير القوّة الشهوانيّة، و (لا فسوق) لتطهير القوّة الغضبيّة، و (لا جدال) لتهذيب القوى الفكريّة.

وبطهارة هذه القوى الثلاث تطهر جملة أعمال الإنسان؛ لأنّ أىّ عمل يصدر من الإنسان يرجع بالتحليل الدقيق إلى هذه القوى الثلاث، وتفصيل هذا البحث موكول إلى علم الأخلاق.

والجدير بالذِّكر أنّ أىّ عمل إنّما يصدر من مصدر خاصّ ويحكى عن خصوصيّاته، فالصدر المشروح يصدر عنه عمل خالص ومشروح، غير مبتلى بنقص ولا ملوّث بعيب؛ وعلى هذا الأساس فإنّ زائر بيت الله الحرام، يغدو حجّه خالصاً وخلوصاً ومشروحاً أكثر بتبع درجة معرفته بأسرار الحجّ نفسه؛ لأنّ الخلوص الذى هو معيار الاستفادة من الثواب، وشأنٌ من شؤون العقل العملى، مسبوقٌ بالمعرفة؛ والمعرفة من شؤون العقل النظرى، فعلى السالك- فى البداية- أن يفهم المراحل العباديّة ويعيها، حتّى يكون لديه فى مقابل فهمه ومعرفته إقدامٌ خالص على الفعل.

إذن، فبدون التعرّف على أسرار الأعمال لن يتيسّر طىّ مراحل الإخلاص كاملةً، وهذا الأمر صادق فى حقّ التعرّف على أسرار سائر العبادات أيضاً.

وعليه، فعندما يشرع شخص- قبل التعرّف على أسرار الحجّ- بالسفر إلى بيت الله، فحجّه وإن كان يمكن أن يكون صحيحاً بحسب الظاهر، إلّا أنّه بذلك لم يحقّق الحجّ الكامل والمقبول، ولم تكن الضيافة من نصيبه؛ لأنّ روح إقامة الحجّ لم تتعالى عنده بسبب عدم اطّلاعه على أسرار هذه الفريضة.

۱- الحديد: ۴.

۲- ورد تعبير «الضيف» فى حقّ زوّار بيت الله الحرام فى عدد من الروايات، منها: «ثلاثة نفر من خالصة الله عزّ وجلّ يوم القيامة ...

والحاج والمعتمر؛ فهما وفـد الله، وحقّ على الله أن يكرم وفده» وسائل الشـيعة ٣: ٨٤؛ و «إنّ ضـيف الله عزّ وجلّ رجلٌ حـجّ واعتمر فهو ضيف الله حتّى يرجع إلى منزله ...» وسائل الشيعة ١٠: ٤٥٨.

٣- وسائل الشيعة ٨: ٦٤.

٤- المصدر نفسه: ٣٢٧.

٥- البقرة: ١٢٩.

٦- البقرة: ١٩٧.

ص: ٧

ولمزيد من التعرّف على أسرار الحجّ، لابدّ من الرجوع إلى عادات وسيرة الحجّاج الصالحين الحقيقيّين؛ أعنى المعصومين (عليهم السلام)؛ لوضع حجّهم تحت مجهر المطالعة الدقيقة والتأسّى بهم فى ذلك؛ لأنّ هؤلاء كانوا يراعون- مع الآداب والسنن والفرائض والأعمال الظاهريّة للحجّ- العناصر التكوينيّة التى تقوم عليها هذه الأعمال.

ويظلّ استذكار هذا الأمر مفيداً، وهو أنّ سرّ الكثير من العبادات غير مخفىّ ولا مستور عن القائمين بها، إلّا أنّ فهم أسرار مناسك الحجّ يبقى أمراً عسيراً وشاقّاً، فالكثير من أسرار الحجّ يصعب شرحها بالعقل البشرى أو لا يتيسّر ذلك أساساً؛ من هنا احتوت مناسك الحجّ عبوديّة محضة وتامّة، منسجمة مع التعبّد الشديد الزائد عن أمثاله فى سائر الأحكام الدينيّة، تماماً كما قال رسول الله (ص) عند التلبية: «لبّيك بحجّة حقّاً تعبّداً ورقّاً» (١).

التناغم بين سيرة الحاجّ وسرّ الحجّ

عدّ الله سبحانه الحجّاج والمعتمرين من شعائره؛ فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْىَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَاناً (٢)، فالحاجّ عندما يعزم على زيارة البيت يغدو جزءاً من الشعائر الإلهيّة.

نعم، من الواضح أنّ الذى يقصد من سفر الحجّ والعمرة، السياحة والتجارة والشهرة وما شابه ذلك، لا يكون ضمن الحُرمات الإلهيّة.

إنّ الزوّار المدعوين من جانب الحقّ سبحانه واللائقين بالتكريم الإلهى هم الواجدون للشروط والأوصاف الخاصّة، وقد بيّن القرآن الكريم هذه الأوصاف تارةً بنحو العموم، واخرى بذكر مصاديقها.

أمّا الشرائط العامّة فقد ذكرها فى العهد الذى عهده إلى بانى الكعبة ومساعده- أى إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام)- حين قال: وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِى لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٣).

وطبقاً للآية الشريفة: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِن اللهِ وَرِضْوَاناً (٤)، فإنّ مصداق «الركّع السجود» الذين أمر الخليل والذبيح (عليهما السلام) بتطهير البيت لضيافتهم، هم الامّة الحقيقيّة لرسول الله (ص)، الذين يملكون- إلى جانب الصلاة والركوع والسجود- الصلابة الإبراهيميّة ضدّ النمرودين ورؤوس الكفر والنفاق والطغيان، كما لديهم رأفة خليل الرحمن بالمسلمين المحرومين فى أنحاء العالم الإسلامى.

بناءً عليه، فمَن كان ملوّثاً بالفكر الباطل أو العمل الطالح لن يكون ضيفاً للبيت الطاهر، فليس الساعى وراء الامتيازات والمقامات والمناصب ضيفاً لبيت المساواة والمواساة، وليس عبد الهوى أو عبد المستكبرين والملحدين ضيفاً للبيت العتيق الحرّ، بيت الحرية والأحرار، وليس من لديه مئات الأصنام بضيفٍ على بيت التوحيد، ومن وجّه وجهه للخلف وأدار ظهره للقبلة مصلّياً صلاته لا يكون ضيفاً على قبلة المسلمين، ومن وضع مكان التبرّى من الشرك والنِّفاق والكفر، الولاية لرموز الإلحاد كيف يكون ضيفاً على مطاف العاكفين؟! فليس من يخضع للاستعمار بضيف على بيت الراكعين والساجدين، ليس كلّ حاجّ بعارف لأسرار الحجّ، أو بممتثل للحجّ الكامل، إنّما هم الحافظون للسرّ الإلهى ولمخازن العلوم الربّانية من يطّلع الله على أسراره ليحفظوها، فهم مطّلعون على سرّ الحكم ويصلون لهذا السرّ.

١- المحجّة البيضاء ٢: ١٩٧، وقد أسندت هذه الجملة فى بعض النصوص إلى أنس بن مالك.

٢- المائدة: ٢.

٣- البقرة: ١٢٥.

٤- الفتح: ٢٩.

ص: ٨

السيرة اللاإنسانية لبعض الحجّاج

تصنع العقائد والأخلاق والأعمال والنيّات حقيقةَ أىّ إنسان، كذلك الحجّ- كما سائر العبادات- يبنى الإنسان، بل يتناغم سرّ الحجّ مع سريرة الإنسان، فيبنى على أساس ذلك، وإذا لم يوفّق شخص لبلوغ السرّ، فإنّ صورته تكون صورة الإنسان، إلّا أنّ حقيقته وسيرته ستكونان سيرة الحيوان: «فالصورة صورة إنسان والقلب قلب حيوان» (١).

يقول أبو بصير للإمام الباقر (ع): «ما أكثر الحجيج وأعظم الضجيج! فقال (ع): بل ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج، أتحبّ أن تعلم صدق ما أقوله، وتراه عياناً؟ فمسح يده على عينيه، ودعا بدعوات فعاد بصيراً، فقال: انظر يا أبا بصير إلى الحجيج. قال: فنظرت فإذا أكثر الناس قردةً وخنازير، والمؤمن بينهم مثل الكوكب اللّامع فى الظلماء ...» (٢).

وفى حديث آخر: قال علىّ بن الحسين (عليهما السلام)- وهو واقف بعرفات- للزهرى: «كم تقدِّر من الناس هاهنا؟» قال: أُقدّر أربعة ألف ألف و [ظ أربعمائة ألف أو] خمسمائة ألف؛ كلّهم حجّاج قصدوا الله بأموالهم ويدعونه بضجيج أصواتهم. فقال له: «يا زهرىّ! ما أكثر الضجيج وأقلّ الحجيج»، فقال الزهرى: كلّهم حجّاج أفهم قليل؟ فقال: «يا زهرىّ! أدن إلىَّ وجهك». فأدناه إليه، فمسح بيده وجهه.

ثمّ قال: «انظر». فنظر إلى الناس. فقال الزهرى: فرأيت أُولئك الخلق كلّهم قردة لا أرى فيهم إنساناً إلّا فى كلّ عشرة ألف واحد من الناس. ثمّ قال لى: «ادنُ يا زهرىّ». فدنوت منه فمسح بيده وجهى، ثمّ قال: «انظر». فنظرت إلى الناس. قال الزهرىّ: فرأيت اولئك الخلق كلّهم خنازير.

ثمّ قال لى: «ادنُ إلىَّ وجهك». فأدنيت منه فمسح بيده وجهى فإذا هم كلّهم ديبة (ذئبة) إلّا تلك الخصائص من الناس النفر اليسير.

فقلت: بأبى وامّى أنت يا ابن رسول الله، قد أدهشتنى آياتك وحيّرتنى عجائبك. قال: «يا زهرىّ! ما الحجيج من هؤلاء إلّا النفر اليسير الذين رأيتهم بين هذا الخلق الجمّ الغفير».

ثمّ قال لى: «امسح يدك على وجهك». ففعلت فعاد اولئك الخلق فى عينى اناساً كما كانوا أوّلًا.

ثمّ قال لى: «مَن حجّ ووالى موالينا وهَجَر معادينا ووطّن نفسه على طاعتنا ثمّ حضر هذا الموقف مسلّماً إلى الحجر الأسود ما قلّده الله من أمانتنا (أماناتنا) ووفيّاً بما ألزمه من عهودنا، فذلك هو الحاج والباقون هم من قد رأيتهم.

يا زهرىّ! حدّثنى أبى عن جدّى رسول الله (ص) أنّه قال: ليس الحاج المنافقون المعاندون لمحمّد وعلىّ محبّيهما الموالون لشانئيهما، وإنّما الحاجّ المؤمن المخلصون الموالون لمحمّد وعلىّ ومحبّيهما المعادون لشانئيهما. إنّ هؤلاء المؤمنين الموالين لنا المعادين لأعدائنا لتسطع أنوارهم فى عرصات القيامة على قدر موالاتهم لنا؛ فمنهم مَن يسطع نوره مسيرة ثلاث مائة ألف سنة وهو جميع مسافة تلك العرصات، ومنهم مَنْ تسطع أنواره إلى مسافات بين ذلك يزيد بعضها على بعض على قدر مراتبهم فى موالاتنا ومعاداة أعدائنا يعرفهم أهل العرصات من المسلمين والكافرين بأنّهم الموالون المتولّون المتبرّؤون، يُقال لكلّ واحد منهم: يا ولىّ الله! انظر فى هذه العرصات إلى كلّ من أسدى إليك فى الدُّنيا معروفاً أو نفّس عنك كُرباً أو أغاثك إذ كنت ملهوفاً أو كفَّ عنك عدوّاً أو أحسن إليك فى معاملة فأنت شفيعه ...» (٣).

طبقاً لحديث آخر عن الإمام السجّاد؛ فإنّ الأشخاص الذين يكون ملكوتهم بصورة إنسان هم المتمسّكون بالقرآن والعترة، والمعتقدون بالوحى والرسالة والولاية، وقد أحاط الدين وأمّن ظاهرهم وباطنهم؛ من هنا كان ظاهرهم وباطنهم إنسانيّاً، أمّا الذين كان باطنهم الفصل بين القرآن والعترة، ويقولون بأنّ الرسول اجتهد فى تعيين الإمام بعده، فهو فى الحقيقة جحود وإنكار للحقّ، وهو ما يظهر بصورة حيوانيّة.

١- نهج البلاغة، الخطبة: ٨٧، الفقرة: ١٢.

٢- بحار الأنوار ۴۶: ٢٦١.

٣- المصدر نفسه ٩۶: ٢٥٨.

ص: ٩

وقد اتّضح من الرواية المُشار إليها دور الاعتراف بولاية الأئمّة المعصومين (عليهم السلام)، وكذلك إنكارهم، فى بناء سلوك الإنسان وحقيقته.

وفى هذا السياق نفسه، يقول سدير الصيرفى: كنتُ مع الصادق ٧ فى عرفات، فرأيت الحجيج وسمعتُ الضجيج، فتوسّمت وقلتُ فى نفسى: أترى هؤلاء كلّهم على الضلال؟ فنادانى الصادق ٧ فقال: «تأمّل!» فتأمّلتهم، فإذا هم قردة وخنازير (١).

وسرّ هذا الأمر هو ما جاء فى الحديث عينه، وهو أنّ الذى يتغافل النصّ الصريح للنبىّ الأكرم (ص) فيما يخصّ خلافة الأئمّة المعصومين (عليهم السلام) عامداً عالماً، وينكر ذلك، ولا يعتقد بولايتهم، فإنّ حقيقته ليست إنسانيّة.

ونتيجة الكلام أنّه وإن كان من الممكن أن يكون كلّ الحاضرين فى مراسم الحجّ زوّاراً لبيت الله الحرام فى إحصاء ظاهرىّ، إلّا أنّ الكثير منهم لا يحسبون إنساناً من حيث الإحصاء الباطنى والحقيقى لهم، على مستوى أسرار الحجّ.

إنّ هذا المشهد الذى رأيناه وإن حصل أن وقع فى عرفات، إلّا أنّه يمكن تحقّقه أيضاً فى الصفوف الطويلة لصلوات الجماعة التى قد يبلغ العدد فيها أحياناً مبلغاً كبيراً، بحيث لا نجد سوى القليل من المقيمين الحقيقيّين للصلاة.

والجدير ذكره هنا، أنّ هذا البحث وإن ورد فى باب الحجّ؛ إلّا أنّ مرجعه إلى سرّ الولاية، لا سرّ الحجّ، اللّهُمَّ إلّا إذا قيل: حيث كانت الولاية مُرخيةً بظلالها على جميع الأعمال والعبادات، لذا فإنّ حقيقتها سوف تظهر تحت عنوان سرّ الأعمال والعبادات، فمن لا يقبل بسرّ الولاية فقدْ فَقَدَ إنسانيّته ولو أدّى الصلاة، والصوم، والزكاة، والحجّ، انطلاقاً من فقدان أعماله السرّ والحقيقة؛ لأنّ سرّ العبادة هو ما يبنى الإنسان وينشؤه ويربّيه، ومن لم يبلغ هذا السرّ فلن تكون سريرته إنسانيّة.

الإحرام

الحرم هو الأمن الإلهى وهو أرض الحجّ، ميزةٌ لا يشاركه فيها شىء، ليس فقط فى موسم الحجّ، وإنّما على امتداد العام، حيث لا يمكن الدخول إليه إلّا مع الإحرام. كذلك الحال فى عدم حقّ غير المسلم فى دخول منطقة التوحيد ومهبط الوحى؛ لأنّ إحرامه غير صحيح، ودخول غير المحرم إلى الحرم ممنوع.

وقد حدّدت لكلّ من يريد الدخول إلى الحرم مواقيت للإحرام؛ يقصد بذلك حفظ حرمة الحرم الذى وجد بالمسجد الحرام والكعبة المشرّفة؛ فالإحرام من الميقات للدخول إلى الحرم مثل صلاة تحيّة المسجد التى وضعت لحفظ كرامة المسجد، مع فارق وهو أنّ تحيّة المسجد مستحبّة، فيما الإحرام لدخول الحرم واجب، ويجب على الحاجّ عند الإحرام أن يقصد أن يحرِّم على نفسه ما حرّمه الله عليه (٢)

فبعض الامور تحرم على الإنسان مؤقّتاً وحال الإحرام فقط. مثل قلع الشعر، والنظر فى المرآة، والصيد و ... لكن بعضها حرام مطلقاً مثل ما ورد فى حديث الشبلى من لزوم ترك تمام المعاصى حال الإحرام.

وعليه فالإحرام فى الميقات يعنى كأنّك تقول لله: «إلهى! إنّنى أتعهّد أن احرِّم على نفسى تمام المحرّمات، وأن أتركها دائماً وإلى الأبد».

١- المناقب ۴: ٢٣۴- ٢٣۵.

٢- مستدرك الوسائل ١٠: ١۶۶. وقد أورد هذا الكتاب- لا سيما فى قسم الحجّ- وفى مواضع متعدّدة، الرواية المعروفة برواية الشبلى، وحيث احتوت هذه الرواية على أسرار ولطائف كثيرة حول الحجّ؛ لذا ننقل نصّها الكامل هنا؛ لكن قبل ذلك يجدر الالتفات إلى بعض النقاط:

أوّلًا: هناك أشخاص متعدّدون معروفون بلقب «الشبلى»، وأقرب شخص منهم إلى عصر الأئمّة (عليهم السلام هو أبو بكر دُلف بن جحدر، المولود بعد شهادة الإمام السجّاد (ع بحوالى قرنين، وهذا معناه أنّه لا يمكن للملقّبين ب- «الشبلى» أن يرووا بشكل مباشر عن الإمام السجّاد (ع، وهذا الحديث لا يشبه وزنه وطريقة البيان فيه ما هو المأثور عن الأئمّة المعصومين (عليهم السلام، من هنا قيل: إنّه من الممكن أن تكون هذه الرواية من كلمات بعض العرفاء، نُسبت شيئاً فشيئاً إلى الإمام السجّاد (ع.

لكن مثل هذه الروايات المنسجمة مع سائر المعارف أو غير المخالفة لها، لا يشكّل النقص فى السند فيها مانعاً عن الاستفادة من متنها الرفيع والنورانى.

ثانياً: لا- يتساوى الترتيب الموجود فى هذه الرواية لمناسك الحجّ مع ترتيبها المعروف فى الفقه، ولعلّه يمكن القول: مبرّر ذلك أنّ الإمام السجّاد (ع لم يكن فى هذا الحديث بصدد بيان أحكام مناسك الحجّ والتكاليف الظاهريّة للحجّاج.

أمّا متن الرواية فهو على الشكل التالى:

العالم الجليل الأوّاه السيّد عبدالله سبط المحدِّث الجزائرى فى شرح النخبة قال: وجدت فى عدّة مواضع أوثقها بخطّ بعض المشايخ الذين عاصرناهم مرسلًا، أنّه لمّا رجع مولانا زين العابدين (ع من الحجّ استقبله الشبلى، فقال له: حججت يا شبلى؟ قال: نعم يا ابن رسول الله. فقال (ع: أنزلت الميقات وتجرّدت عن مخيط الثياب واغتسلت؟ قال: نعم. قال: فحين نزلت الميقات نويت أنّك خلعت ثوب المعصية ولبست ثوب الطاعة؟ قال: لا. قال: فحين تجرّدت عن مخيط ثيابك نويت أنّك تجرّدت من الرِّياء والنفاق والدخول فى الشبهات؟ قال: لا- قال: فحين اغتسلت نويت أنّك اغتسلت من الخطايا والذنوب؟ قال: لا. قال: فما نزلت الميقات ولا تجرّدت عن مخيط الثياب ولا اغتسلت.

ثمّ قال: تنظّفت وأحرمت وعقدت بالحجّ؟ قال: نعم. قال: فحين تنظّفت وأحرمت وعقدت الحجّ نويت أنّك تنظّفت بنورة التوبة الخالصة لله تعالى؟ قال: لا- قال: فحين أحرمت نويت أنّك حرّمت على نفسك كلّ محرّم حرّمه الله عزّ وجلّ؟ قال: لا. قال: فحين عقدت الحجّ نويت أنّك قد حللت كلّ عقد لغير الله؟ قال: لا. قال (ع له: ما تنظّفت ولا أحرمت ولا عقدت الحجّ.

قال له: أدخلتَ الميقات وصلّيت ركعتى الإحرام ولبّيت؟ قال: نعم. قال: فحين دخلت الميقات نويت أنّك بنيّة الزيارة؟ قال: لا. قال: فحين صلّيت الركعتين نويت أنّك تقرّبت إلى الله بخير الأعمال من الصلاة وأكبر حسنات العباد؟ قال: لا. قال: فحين لبّيت نويت أنّك نطقت لله سبحانه بكلّ طاعة وصمت عن كلّ معصية؟ قال: لا. قال (ع له: ما دخلت الميقات ولا صلّيت ولا لبّيت.

ثمّ قال له: أدخلتَ الحرم ورأيت الكعبة وصلّيت؟ قال: نعم. قال: فحين دخلت الحرم نويت أنك حرّمت على نفسك كلّ غيبة تستغيبها المسلمين من أهل ملّة الإسلام؟ قال: لا. قال: فحين وصلت مكّة نويت بقلبك أنّك قصدت الله؟ قال: لا. قال (ع: فما دخلت الحرم، ولا رأيت الكعبة، ولا صلّيت.

ثمّ قال: طفتَ بالبيت ومسست الأركان وسعيت؟ قال: نعم. قال (ع: فحين سعيت نويت أنّك هربت إلى الله وعرف منك ذلك علّام الغيوب؟ قال: لا. قال: فما طفت بالبيت، ولا مسست الأركان، ولا سعيت.

ثمّ قال له: صافحت الحجر ووقفت بمقام إبراهيم (ع وصلّيت به ركعتين؟ قال: نعم. فصاح (ع صيحةً كاد يفارق الدُّنيا. ثمّ قال: آه آه. ثمّ قال (ع: مَنْ صافح الحجر الأسود فقد صافح الله تعالى، فانظر يا مسكين لا تضيّع أجر ما عظم حرمته وتنقض المصافحة بالمخالفة وقبض الحرام نظير أهل الآثام.

ثمّ قال (ع: نويت حين وقفت عند مقام إبراهيم (ع أنّك وقفت على كلّ طاعة وتخلّفت عن كلّ معصية؟ قال: لا. قال: فحين صلّيت فيه ركعتين نويت أنّك صلّيت بصلاة إبراهيم (ع وأرغمت بصلاتك أنف الشيطان؟ قال: لا- قال له: فما صافحت الحجر الأسود، ولا وقفت عند المقام، ولا صلّيت فيه ركعتين.

ثمّ قال (ع له: أشرفتَ على بئر زمزم وشربت من مائها؟ قال: نعم. قال: نويت أنّك أشرفت على الطاعة وغضضت طرفك عن المعصية؟

قال: لا. قال (ع: فما أشرفت عليها، ولا شربت من مائها.

ثمّ قال (ع له: أسعيتَ بين الصفا والمروة ومشيت وتردّدت بينهما؟ قال: نعم. قال له: نويت أنّك بين الرجاء والخوف؟ قال: لا. قال: فما سعيت، ولا مشيت، ولا تردّدت بين الصفا والمروة.

ثمّ قال: أخرجتَ إلى منى؟ قال: نعم. قال: نويت أنّك آمنت الناس من لسانك وقلبك ويدك؟ قال: لا. قال: فما خرجت إلى منى.

ثمّ قال له: أوقفتَ الوقفة بعَرفة وطلعت جبل الرحمة وعرفت وادى نمرة ودعوت الله سبحانه عند الميل والجمرات؟ قال: نعم. قال: هل عرفت بموقفك بعرفة معرفة الله سبحانه أمر المعارف والعلوم وعرفت قبض الله على صحيفتك واطّلاعه على سريرتك وقلبك؟ قال: لا. قال: نويت بطلوعك جبل الرحمة أنّ الله يرحم كلّ مؤمن ومؤمنة ويتولّى كلّ مسلم ومسلمة؟ قال: لا. قال: فنويت عند نمرة أنّك لا تأمر حتّى تأتمر ولا تزجر حتّى تنزجر؟ قال: لا. قال: فعندما وقفت عند العلم والنمرات نويت أنّها شاهدة لك على الطاعات حافظة لك مع الحفظة بأمر ربّ السماوات؟ قال: لا. قال: فما وقفت بعرفة، ولا طلعت جبل الرحمة، ولا عرفت نمرة، ولا دعوت، ولا وقفت عند النمرات.

ثمّ قال: مررت بين العلمين وصلّيت قبل مرورك ركعتين ومشيت بمزدلفة ولقطت فيها الحصى ومررت بالمشعر الحرام؟ قال: نعم. قال: فحين صلّيت ركعتين نويت أنّها صلاة شكر فى ليلة عشر تنفى كلّ عسر وتيسّر كلّ يُسر؟ قال: لا. قال: فعندما مشيت بين العلمين ولم تعدل عنهما يميناً وشمالًا نويت أن لا تعدل عن دين الحقّ يميناً وشمالًا لا بقلبك ولا بلسانك ولا بجوارحك؟ قال: لا. قال: فعندما مشيت بمزدلفة ولقطت منها الحصى نويت أنّك رفعت عنك كلّ معصية وجهل وثبت كلّ علم وعمل؟ قال: لا. قال: فعندما مررت بالمشعر الحرام نويت أنّك أشعرتَ قلبك إشعار أهل التقوى والخوف لله عزّ وجلّ؟ قال: لا. قال: فما مررت بالعلمين، ولا صلّيت ركعتين، ولا مشيت بالمزدلفة، ولا رفعت منها الحصى، ولا مررت بالمشعر الحرام.

ثمّ قال له: وصلتَ منى ورميت الجمرة، وحلقت رأسك، وذبحت هديك، وصلّيت فى مسجد الخيف، ورجعت إلى مكّة وطفت طواف الإفاضة؟ قال: نعم. قال: فنويت عندما وصلت منى ورميت الجمار أنّك بلغت إلى مطلبك وقد قضى ربّك لك كلّ حاجتك؟ قال: لا. قال: فعندما رميت الجمار نويت أنّك رميت عدوّك إبليس وغضبته بتمام حجّك النفيس؟ قال: لا. قال: فعندما حلقت رأسك نويت أنّك تطهّرت من الأدناس ومن تبعة بنى آدم وخرجت من الذنوب كما ولدتك امّك؟ قال: لا. قال: فعندما صلّيت فى مسجد الخيف نويت أنّك لا تخاف إلّا الله عزّ وجلّ وذنبك ولا ترجو إلا رحمة الله تعالى؟ قال: لا. قال: فعندما ذبحت هديك نويت أنّك ذبحت حنجرة الطمع بما تمسّكت به من حقيقة الورع، وأنّك اتّبعت سنّة إبراهيم (ع بذبح ولده وثمرة فؤاده وريحان قلبه وحاجه (ظ أحييت سنّته لمَن بعده وقربةً إلى الله تعالى لمَن خلفه؟ قال: لا. قال: فعندما رجعت إلى مكّة وطفت طواف الإفاضة نويت أنّك أفضت من رحمة الله تعالى ورجعت إلى طاعته وتمسّكت بودّه وأدّيت فرائضه وتقرّبت إلى الله تعالى؟ قال: لا. قال له زين العابدين (ع: فما وصلت منى، ولا رميت الجمار، ولا حلقت رأسك، ولا أدّيت نسككَ، ولا صلّيت فى مسجد الخيف، ولا طفت طواف الإفاضة، ولا تقرّبت. ارجع؛ فإنّك لم تحجّ.

فطفق الشبلى يبكى على ما فرّطه فى حجّه وما زال يتعلّم حتّى حجّ من قابل بمعرفة ويقين.

ص: ١٠

حقيقة الإحرام

للإحرام أجزاء ثلاثة واجبة، يتحقّق الإحرام بوجودها، وهى:

١- ارتداء قطعتى لباس من غير المخيط (للرجال).

٢- قصد الإحرام للحجّ أو العمرة.

٣- التلبية.

إنّ الإحرام كما جاء فى الكلام النورانى للإمام السجّاد (ع) يعنى مناداة الله: «إلهى! لقد قطعت تعلّقى بغيرك»، وعليه فهذا «العقد» والعهد، يلازمه «حلّ» الارتباط بغير الله سبحانه، فبدايةً تُقطع التعلّقات بغير الله ثمّ بعد ذلك يحصل الاتّصال والارتباط به سبحانه.

من الواضح جدّاً مدى ظهور التوحيد وتجلّيه البالغ فى الإحرام، مرفقاً بالتعرّى من كلّ زينة فى الحياة الدنيويّة، وكأنّ فى ذلك محاكاةً للحشر والمعاد اللّذين هما العودة إلى المبدأ.

على هذا الأساس، فمن لم يخاطب- عند الإحرام- الله بقلبه: «إلهى! غسلت يدىّ من غيرك، ولم أرتبط إلّا بولائك»، لم يذهب للميقات حقيقةً ولم يحرم واقعاً! طبقاً لتوجيهات الإمام السجّاد (ع).

نعم المراد نفى الكمال، لا نفى الصحّة.

غسل الإحرام

سرّ استحباب الغسل فى الميقات، كما يبيّن الكلام المنير للإمام السجّاد (ع)، أن يقصد الحاج به تطهير نفسه من الذنوب والخطايا، فالنظافة فى الميقات تتعدّى تطهير البدن لتدلّل على تطهير القلب، وهذا أوّل سرّ من أسرار الحجّ.

وبناءً عليه، يتعهّد الزائر مع غسل الإحرام:

أوّلًا: أن لا يلوّث نفسه بعد ذلك بالذنب والمعصية.

ثانياً: من الآن فصاعداً لا يخطو خطوةً إلّا فى طريق الطاعة.

ثالثاً: أن يجبر النواقص السابقة ويرمّمها.

إنّ غسل الإحرام سيكون بهذا القصد غسلًا للتوبة، وعند ذاك سيلبس زائر بيت الله الحرام لباس الطاعة بروحه وجسده الطاهرين.

صلاة الإحرام

تقرأ فى الميقات صلاة الإحرام قبل الغسل، ويفتى أكثر الفقهاء باستحباب هذه الصلاة، فيما يقول بعضهم بالاحتياط الوجوبى فى أدائها، وبناءً عليه من المناسب أن يوقع الإنسان الإحرام بعد الصلاة.

إنّ العازم على السفر إلى بيت الله الحرام يتوجّه إلى سرّ صلاة الإحرام ويقول: «إلهى! إنّنى أقتربُ منك بعمود دينك».

ارتداء لباس الإحرام

إنّ خلع الملابس المخيطة حال الإحرام يعنى الخروج من لباس المعصية، كما أنّ ارتداء لباس الإحرام غير المخيط ولا الملوّن، والمصنوع من الحلال والطهارة والنظافة، يعنى اشتمال لباس الطاعة.

ص: ١١

السرّ الآخر لارتداء هذا اللِّباس الخاصّ هو تذكّر اليوم الذى يأتى فيه الإنسان بلباس غير مخيط، ألا وهو يوم الموت الذى يرتدى فيه الكفن، من هنا تتجلّى فى مناسك الحجّ ومراسيمه بعض أسرار القيامة، فسفر الموت والحضور فى عرصات القيامة يتجسّد فى نظر الحجيج.

كما أنّ ارتداء لباس الإحرام المتواضع والبسيط يزيل الامتيازات الظاهريّة الشكليّة بين الناس، ممّا يلغى أىّ أرضيّة لخلق رغبة فى التفاضل أو التفاخر أو التباهى.

النيّة

الحجّ (التمتّع- القران- الإفراد) والعمرة من العناوين القصديّة والقُربيّة، لهذا يجب فيه مراعاة شيئين وقصدهما: أحدهما عنوان العمل، وثانيهما: غاية الفعل وهدفه، ألا وهو التقرّب إلى الله تعالى.

كما أنّ كلّ الأركان والأجزاء الداخلة تحت هذا العنوان تصبح قصديّةً أيضاً، فيغدو امتثالها- كامتثال الحجّ والعمرة- باطلًا غير متحقّق إذا فقد قصد العنوان الخاصّ.

نعم، القصد الإجمالى الأوّل كاف؛ حيث يلقى بظِلاله على سائر الامور والأجزاء.

ويجب فى الحجّ والعمرة- كسائر العناوين القصديّة الاخرى- المحافظة على قصد العنوان حتّى آخر جزء من العمل؛ لأنّ العناوين القصديّة لا يكفى فيها القصد بمجرّد الحدوث وفى مرحلته، بل لابدّ فيها أيضاً من القصد فى مرحلة البقاء.

وبعض الامور، يُضاف إلى كونها من الأعمال القصديّة، أنّها من العبادات، فلا تتحقّق من دون قصد القُربة بنحو مستمرّ ودائم، فلا يمكن فيها عروض شائبة الرياء لا حدوثاً ولا بقاءاً، لأنّ ذلك يخلّ بخلوص قصد التقرّب. والحجّ والصلاة والعمرة والصيام من هذا النوع من الأعمال.

ويكفى فى قصد القربة أن ينوى الفاعل من بداية فعله إلى نهايته أن ينجز هذا العمل بدافع الالتزام بالأوامر الإلهيّة، إنّ مثل هذا القصد عندما يستمرّ ويحفظ من عروض الرياء عليه يعدّ كافياً فى تحقيق عباديّة الفعل.

والإطاعة المذكورة لها غاية حتماً، لأنّ امتثال الأمر الإلهى لا يقع- غالباً- من دون دافع أو هدف، وغاية الامتثال هنا تتحدّد بقدر معرفة الممتثل وهمّته ونشاطه واطّلاعه؛ فإنّ الدرجة الوجوديّة لأىّ ممتثل تشكّل العلّة المعيّنة لمدى معرفته وقدر همّته واستعداده، كما أنّ مرتبة المعرفة ودرجة الهمّة تمثّلان علامةً دالّة على الدرجة الوجوديّة.

إنّ الحجّاج والمعتمرين يقعون على فئات ثلاث وفقاً لحديث التثليث المعروف (١)؛ فإنّ عبادتهم إمّا من نوع عبادة العبيد، أو عبادة الطالبين للمصلحة، أو عبادة الأحرار؛ لكن مع ذلك هناك مراتب لكلّ صفة من هذه الأوصاف الثلاثة: الخوف، والشوق، والحريّة، وأعلاها مرتبةً عبادة الأحرار، هناك يكون التعبّد الذى يحصل عليه الإنسان الكامل بطىّ مراحل قُرب الفرائض والنوافل (٢)، فيغدو هذا الإنسان محلًا للكون الجامع للحضرات الخمس، ومظهراً للإسم الأعظم فى تدبير ما سوى الله بإذن الله.

بعض الناس يكون دافعهم العبادى راجعاً لما قد حصل ومضى، كالشكر لدفع نقمة أو رفعها، أو حدوث نعمة فيما مضى، وبعضهم صدق عبادتهم يعود للمستقبل؛ لدفع خطر أو جلب منفعة فيما سيأتى، وهذا يمتدّ إلى القيامة، حيث يسعى العابد للخلاص من نار الله العظيم الجبّار أو للوصول إلى جنّته العليا. أمّا الفريق الثالث فدافعه من الامتثال أرفع من دفع ضررٍ أو جلب منفعة بلحاظ الماضى أو المستقبل، بل أرفع من تمام حالات الماضى والمستقبل؛ إنّهم يعبدون الله لأنّ الله عندهم أهلٌ للعبادة يليق بها.

١- الكافى ٢: ٨۴.

٢- المصدر نفسه: ٣٥٢.

ص: ١٢

إنّ دافع الإنسان السالك الصالح من عباداته الواجبة والمستحبّة- لا سيما الحجّ والعمرة- أن يصبح خليفة الله؛ فاولئك الذين يريدون الوصول إلى مقام الخلافة الرفيع، عليهم التحرّر- فى مناخ التربية العباديّة- من مضارّ المفاسد الحيوانيّة والشيطانيّة، حتّى يصلوا إلى قُلّة العلم وأوج العقل، فيكونون أهلًا لعنوان خلافة من لا عنوان له.

وبعد طيّ مقام «خليفة الله» تصل النوبة لسفرٍ أرفع وأسمى، وهو أن يفوّض العبد تمام شؤونه وأوضاعه لمالكه الأصلى ومليكه الحقيقى، حتّى يكون مولاه خليفته؛ أى يكون الله خليفة خليفته.

من هنا لا- يسند أىّ فعل فى هذا المقام الرفيع للعبد، بل يكون كما جاء فى التعبير القرآنى: وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى (١)، فالله هنا لايقول: إرم بإذن الله، وإنّما يقول: إنّ هذا الرمى الظاهرى لك هو رمى حقيقى واقعى من جانب الله.

إنّ الوقوع فى مقام خلافة الله معناه صيرورة العبد آيةً ومظهراً له سبحانه، كما أنّ جعل الله خليفةً للعبد معناه صيرورته قيّماً ووليّاً عليه، إنّ هذا المقام يأتى تحت ظلّ قرب النوافل، فمثل هذا العبد الذى يصبح تحت الولاية الإلهيّة، يتكلّم باللِّسان الإلهى، لا بلسانه، ويرى بعين الله، لا بعينه، ويسمع بسمع الله، لا بسمعه (٢).

حقيقة النيّة

حقيقة النيّة هى قُرب العبد من ساحة قدس المولى، وهى لا تحصل دون انبعاث الروح والسير الملكوتى؛ إذ مجرّد تصوّر أنّ امتثال الحجّ والعمرة هو لله سبحانه، وإن صدق عليه أنّه نيّة بالحمل الأوّلى، إلّا أنّه غفلة بالحمل الشائع، فعندما لا يتخلّق الحاجّ والمعتمر فى حياته وسلوكه وسيرته بالأخلاق الإلهيّة، ولا يرى أنّ هدفه النهائى من تمام شؤون حياته هو نيل رضا الله تعالى ولقائه، فإنّ نيّته على أرض الواقع تكون غفلةً؛ لأنّ قصد التقرّب لا يحصل دون تحقّق السير الملكوتى، ومجرّد تصوّر القصد المشار إليه لا يحقّق مصداق النيّة.

من هنا، ننتقل لموضوع آخر، وهو أنّ عباديّة أىّ فعل رهينة لقصد القُربة، وقصد القربة لا يتحقّق دون تحقّق القُرب، وحصول التقرّب قصدٌ بالحمل الأوّلى وغفلةٌ بالحمل الشائع .. إذاً فالتقرّب معتبر فى حقيقة أىّ أمر عبادىّ، تماماً كما جاء فى الصلاة: «الصلاة قربان كلّ تقىّ» (٣)، وقريب من هذا التعبير جاء فى الزكاة أيضاً، حيث ورد: «إنّ الزكاة جُعلت مع الصلاة قرباناً لأهل الإسلام» (٤).

من هنا، لزم فى الحجّ والعمرة أن يُمزجا بالتقرّب من حيث كونهما عبادة؛ والتقرّب لا يحصل من دون السفر الباطنى.

ومن خلال ما تقدّم يمكن ترتيب مراتب نيّة القربة فى ظلّ الأسفار الأربعة، والمعيّن لمدارج هذا السير، ومعارج هذا السفر، ومعالى هذا الصعود، ومراقى هذا العروج .. هو معرفة السالك وهمّة الناسك.

التلبية

التلبية من الأجزاء الواجبة فى عقد الإحرام، وهى ذِكرٌ خاصّ يستحبّ تكراره أيضاً بعد الإحرام حتّى الوصول إلى مكان معيّن أو متخطياً زماناً خاصّاً، إنّ تكرار التلبية عند كلّ مرتفع ومنخفض، وعند كلّ ارتفاع وانحدار يعنى تجديد الإنسان فى كلّ آن عهده مع إلهه تبارك وتعالى.

ولعلّ السرّ فى كون الرسول (ص) هو أعظم مَظْهَر للأسماء الإلهيّة أنّه كان أفضل شخص حجّ، وفهم أسرار الحجّ، لا سيما التلبية، إنّ حجّ الرسول الأكرم كان يوازى معراجه، تماماً كما يقول الإمام الصادق (ع) فى بيانه لعلّه إحرام رسول الله (ص) من

١- الأنفال: ١٧.

٢- الكافى ٢: ٣٥٢.

٣- الكافى ٣: ٢۶۵.

۴- المصدر نفسه ۵: ٣٧.

ص: ١٣

مسجد الشجرة: «... لأنّه لمّا اسرى به إلى السماء وصار بحذاء الشجرة، نُودى: يا محمّد! قال: لبّيك، قال: ألم أجدك يتيماً فآويتك، ووجدتك ضالًّا فهديتك؟ (١)، فقال النبيّ (ص): إنّ الحمدَ والنِّعمةَ والمُلكَ لك، لا شريكَ لك ...» (٢).

رهبانيّة امّة الإسلام

يقول رسول الله (ص): «ابدِلنا بها [الرهبانيّة] الجهادَ والتكبير على كلّ شرف» (٣).

إنّ تعبير «التكبير على كلّ شرف» ناظر إلى ذكر التلبية الذى يردّده زوّار بيت الله الحرام عند كلّ مرتَفَع، بصوت عال واثق: «لبّيك» فهذه هى الرهبانيّة الممدوحة والمحمودة التى دعا الله سبحانه عباده إليها، قال تعالى: وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤).

إنّ احترام الله المأمور به فى هذه الآية يعنى أخذ حريم اعتقادى له، بمعنى أنّ على الإنسان التواضع والخشوع فى المحضر الإلهى الذى لا يرى غيره، ولا يعتمد على ما سواه، ولا يرتبط قلبه بما دونه، وهناك يعلن القول: لقد لبّيت أمرك وأتيتُ لمحضرك «لبّيك ...».

مثل هذا الحاجّ هو راهب الله، وهذا هو الحجّ الذى يشمل الرهبانيّة الممدوحة والمحمودة، التى دعينا إليها (٥).

تجلّى التوحيد فى التلبية

حول ذكر التلبية: «لبّيك اللّهُمَّ لبّيك، لبّيك لا شريكَ لك لبّيك، إنّ الحمدَ والنِّعمةَ لكَ والمُلك، لا شريكَ لك لبّيك، لبّيك ذا المعارج لبّيك ...»، يقول الإمام الصادق (ع): «... واعلم أنّه لابدّ من التلبيات الأربع التى كُنّ فى أوّل الكلام، وهى الفريضة، وهى التوحيد، وبها لبّى المرسلون، وأكثر من ذى المعارج؛ فإنّ رسول الله (ص) كان يُكثر منها، وأوّل مَن لبّى إبراهيم (ع) ...» (٦).

وفى نهاية جوابه عن سؤال حول «إشعار البدن» (٧) الذى يعدّ بمثابة التلبية فى بعض أقسام الحجّ ... يقول الإمام الصادق: «... ثمّ قُل: بسم الله، اللّهُمَّ منك ولك، اللّهُمَّ تقبّل منّى» (٨).

إنّ هذا الحديث الشريف، مثل دعاء الإحرام: «اللّهُمَّ إنّى أسألُكَ أن تجعلنى ممّن استجاب لك، وآمن بوعدك، واتّبع أمرك، فإنّى عبدُك، وفى قبضتك، لا أوقى إلّا ما وقيت، ولا آخذ إلّا ما أعطيت» (٩) ناظرٌ إلى ما سبق أن تحدّثنا عنه حول تمثّل التوحيد فى الحجّ، حيث المقصود من الحجّ لقاء الله، وطرد كلّ ما سواه.

إنّ التلبية جواب خالص لله سبحانه، من هنا فهى تُذيب كلّ الخسائس والانحطاطات، وتطرد كلّ شيطان خبيث متمرّد، تماماً كما يقول الإمام الصادق (ع) حول البيداء (١٠) التى لبّى منها رسول الله (ص): «ها هنا يخسف بالأخابث» (١١).

طرد الجاهليّة القديمة والحديثة

يطرد الحجّ بتلبيته الخاصّة المذكورة كلّ جاهليّة، ويكسر كلّ صنم أو علامة للشرك الجاهلى، ويحطّم كلّ أنواع الباطل القديمة والجديدة، وبناءً عليه، فالحجّ شفاءٌ للقلوب من أمراض الشرك أو ما يتلوّث به، كالرِّياء والهوى والبخل والعُجب و ...

ولتوضيح هذه النقطة نذكّر بأنّ التلبية فى الحجّ فى العصر الجاهلى كانت نداءً للشرك وصرخةً للوثنيّة؛ لأنّ المشركين كانوا يقولون فى تلبيتهم: «لبّيك اللّهُمَّ لبّيك، لبّيك لا شريك لك، إلّا شريكٌ هو لك، تملكهُ وما مَلك» (١٢)؛ وبهذا الكلام كانوا يثبتون لله الشريك، رغم كون هذا الشريك مملوكاً لله نفسه!

١- انظر: الضحى: ٦- ٧.

٢- وسائل الشيعة ٨: ٢٢٤- ٢٢٥.

٣- المحجّة البيضاء ٢: ١٩٧.

٤- البقرة: ٤٠.

۵- بحار الأنوار ۱۴: ۲۷۷.

۶- وسائل الشيعة ۹: ۵۳.

۷- ينقسم الحجّ إلى ثلاثة أقسام: تمتّع، وإفراد، وقران، ولا ينعقد إحرام كلّ من العمرة المفردة، وعمرة التمتّع، وحجّ التمتّع، وحجّ الإفراد، إلّا بالتلبية، أمّا فى حجّ القران فالحاجّ مخيّر بين التلبية والإشعار أو التقليد، والإشعار يختصّ بالإبل المسوقة للأضحية، فيما يشترك التقليد بينها وبين سائر أقسام الأضحية. وفى الإشعار تشقّ بشكل بسيط الجهة اليُمنى لسنام الإبل، ثمّ يمسح الدم الخارج على بدن الإبل. أمّا التقليد فيعنى تعليق حذاء فى رقبة الهدى وهو الحيوان الذى يسوقه الحاج معه للأضحية. ولمزيد من الاطّلاع يمكن مراجعة كتب مناسك الحجّ.

۸- وسائل الشيعة ۸: ۱۹۹.

۹- المصدر نفسه ۹: ۲۳.

۱۰- البيداء: منطقة قريبة من مسجد الشجرة الكافى ۴: ۲۴۵، ۳۳۳- ۳۳۴، وقد جاء فى بعض الروايات أنّه يخسف بجيش الكفر فى آخر الزمان فى هذه المنطقة حال توجّهه نحو مكّة بحار الأنوار ۵۲: ۱۱۹، ۱۸۶، ۱۹۱، ۲۰۳-۲۰۴.

۱۱- وسائل الشيعة ۹: ۴۹.

۱۲- الكافى ۴: ۵۴۲.

ص: ۱۴

أمّا التلبية فى الإسلام، فهى تضرّع واستغاثة بالمحضر الواحد المحض وصرخة صاعقة ضدّ مختلف أنواع الشرك الجلى أو الخفىّ، وهذا أمرٌ واضح لكلّ من شاهد صرخات التلبية فى الصحراء القاحلة، وداوم على ذكرها عند كلّ منخفض ومرتفع من الأرض.

إنّ نصوص أهل البيت (عليهم السلام) شاهدٌ على ما قلناه، ومن بينها أنّ أىّ شخص يعمل بسنّة الجاهليّة، أو يتلوّث بالمال الحرام، فإنّه يقال له عندما يلبّى: «لا لبّيك عبدى، ولا سعديك» (۱)، من هنا يقول الإمام الكاظم (ع): «إنّا أهل بيت، حج صرورتنا، ومهور نسائنا، وأكفاننا، من طهور أموالنا» (۲).

إنّ الحجّ صرخة ضدّ الجاهليّة، وهذا ما يجعلنا نفهم السبب فى أنّ الروايات الواردة فى تلبية إبراهيم الخليل وموسى الكليم وخاتم النبيّين (عليهم السلام) أكثر بكثير من الروايات الواردة حول سائر الأنبياء والرسل (۳).

سرّ التلبية

الإحرام والتلبية استجابة لنداء الوحى والدعوة الإلهيّة، من هنا يقع الحجّاج الحقيقيّون عند التلبية فى خوف عقلى مهول، يغيّر لونهم فيصير مصفرّاً، ويأخذ بأصواتهم، ويدهشون ويقولون: نحن نخشى أن يُقال لنا بأنّكم لم تلبّوا نداء الحجّ على نحو الحقيقة، «لا لبّيك ولا سعديك» (۴).

إنّ الحاج يعقد فى الحقيقة عهداً مع الله عندما يلبّى، مضمونه أنّنى لن أنطق بعد الآن إلّا بطاعتك، وسوف أقفل فمى عن النطق بالمعاصى كلّها (۵).

إنّ حجم اللِّسان قليل، لكنّ جرمه كبير وكثير، والتلبية تطهير للِّسان عن كلّ معصية ترتبط به، من هنا كان اللِّسان الزائر لبيت الله هو اللسان الطاهر.

من هذا كلّه يظهر أنّ سرّ التلبية هو إطلاق اللِّسان بالحقّ والطاعة، ومنعه وتطهيره من مقولات الباطل والمعصية، وهذا ليس فى زمان الحجّ والعمرة فحسب، بل و إلى الأبد.

مراتب التلبية والملبّين ودرجاتهما

تتفاوت مراتب الملبّين طبقاً لتفاوت مراتب التلبية، فبعضهم يلبّون إعلان الأنبياء، وبعضهم يلبّون دعوة الله سبحانه، بعضهم يقول: إنّنا نستجيب لمن دعانا إلى الله، وقد جئنا نقول: «لبّيك داعى الله، لبّيك داعى الله» (۶)، وهؤلاء هم المتوسّطون من زوّار بيت الله حيث أجابوا دعوة إبراهيم الخليل، الذى دعا إلى الحجّ بأمر من الله سبحانه: وَأَذِّنْ فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجّ عَمِيق (۷).

وأعلى من هؤلاء، اولئك الذين يسمعون دعوة الله: وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا (۸)، ويستجيبون لهذه الدعوة.

نعم، إنّ جواب خليل الله هو جوابٌ لله سبحانه، ولا جواب لله من دون جواب دعوة الخليل، إلّا أنّ التفاوت يقع فى شهود الزائر العارف لبيت الله، فكلّ إنسان يقع فى درجة هويّته ومرتبة إيمانه، ويعرف الله طبقاً لها، ويمضى معه الميثاق كذلك، كما يمتثل أوامره بالطريقة عينها.

بعضهم يعرفون الله بالواسطة، وبعضهم مثل الأنبياء (عليهم السلام) يعرفونه بلا واسطة، ويعقدون معه العهد، ويعملون بأحكامه.

۱- وسائل الشيعة ۸: ۱۰۲.

۲- المصدر نفسه: ۱۰۳.

۳- المصدر نفسه ۹: ۴۷- ۴۹، ۵۵.

۴- بحار الأنوار ۴۷: ۱۶، و ۶۴: ۳۳۷.

۵- انظر حديث الشبلى المتقدِّم.

۶- الكافى ۴: ۲۰۶.

۷- الحجّ: ۲۷.

۸- آل عمران: ۹۷.

ص: ١٥

إنّ الـذى يظهر فى نشأة الشـهادة هو حصـيلة عهد مرتبة الغيب، وبناءً عليه، رغم أنّ الجميع عقدوا العهد مع نداء الله الجليل سـبحانه، إلّا أنّ بعضـهم كان بواسـطة الخليل وبعضـهم بلا واسـطة، ولهذا لم تكن التلبية واحدة عند الجميع، بل يمكن أن يقول شـخص: «لبّيك ذا المعـارج لبّيـك»، إلّا أنّه فى واقع الأـمر يلبّى وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، ويُجيب دعوة الخليـل، لا دعوة الجليل، ذلك أنّ التلبيـة فى مقام الظاهر تابعة لاستجابة الدعوة الإلهيّة فى عالم الميثاق الإلهى.

وتجليةً لهذه النقطة، نلاحظ أنّ الناس جميعاً يلبّون مرّتين، وهاتان المرّتان تقعان فى طول بعضـهما، إنّ هذه الإجابة والاسـتجابة ليسـت أمراً تاريخيّاً حتّى يكون قد مضى وانتهى، وإنّما هى امتداد واستمرار.

لقد تحدّث الله سبحانه عن الاولى منهما بقوله: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى (١).

أمّا الثانيـة؛ فكانت أمر الله لإبراهيم الخليل بإعلان الـدعوة العامّـة للحجّ: وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، وقد وصـلت هذه الدعوة للناس جميعاً حتّى للّذين هم فى أصلاب آبائهم، واستجابوا لهذه الدعوة.

يقول الإمام الصادق (ع) فى هذا المضـمار: «لمّا أُمِرَ إبراهيم وإسـماعيل (عليهما السـلام) ببناء البيت وتمّ بناؤه، قعد إبراهيم على ركن، ثمّ نادى: هلم الحـجّ، هلم الحـجّ ... فلبّى الناس فى أصـلاب الرجال: لبّيك داعى الله، لبّيك داعى الله عزّ وجلّ ... فمَن لبّى عشـراً يحجّ عشراً ... ومَنْ لبّى أكثر من ذلك، فبعدد ذلك، ومَنْ لبّى واحداً حجّ واحداً، ومَن لم يلبِّ لم يحجّ» (٢).

إنّ مشـهد التلبيـة لدعوة الخليل تشابه مشـهدها لدعوة الله سـبحانه فى عالم الذرّ والذرّية، فكما أنّ القضـيّة مسـتمرّة فى المشـهد الأوّل، كـذلك هى فى المشـهد الثانى؛ لأنّ حـديثنا هنا عن اسـتجابة الفطرة والروح، لا عن اسـتجابة الذرّات فى الأصـلاب والأرحام بوصـف ذلك حدثاً تاريخيّاً.

إنّ تفـاوت المراتب المـذكورة للملبّين، حـدثٌ يتكرّر فى الكثير من القضايـا الدينيّـة الاخرى، مثل تلاوة القرآن الكريم وتلقّى السـلام الإلهى.

محرّمات الإحرام

الحـجّ مجموعـة منتظمـة من سلسـلة عباديّة خاصّة، تسـتحقّ كلّ حلقة فيها تأمّلًا ونظرة؛ فكما تحرم امور عديدة بأداء تكبيرة الإحرام فى الصـلاة وتصـبح غير منسـجمة مع العبادة، لتظلّ محرّمـة حتّى يؤدّى المصـلّى التسـليم نهايـة الصـلاة، كـذلك الحال فى الحجّ والعمرة، فبالإحرام والتلبيـة تحرم الكثير من الامور (٣) التى يكون البُعـد التعبّـدى فى اجتنابها قويّاً، والاختبار الإلهى فيها كـذلك، وبهذا تكون دورة الإحرام رحلةً تعبّديّة محضة وامتحاناً صرفاً (٤).

وبالقيام بمناسك الحجّ والوصول إلى مراسم التحليل ينفكّ عقد الإحرام، ويخرج المحرم من دائرة المنع فى هذه المحرّمات.

إنّ الإحرام ورعايـة حدوده يحرّر الروح من أىّ قيد لا سـيما من قيود الشـهوة والغضب، ويطهّر العقل من كلّ فكر باطل، وينجّى القلب من الخيال الغافل؛ لأنّ كلّ ما يوجب ظلمة الروح وتلوّن النفس قد حرّم حال الإحرام، حتّى تكون الروح الطاهرة والنفس الخالصة أهلًا للطواف فى بيت الله، ذلك البيت المنزّه عن كلّ لوث وقذارة.

بيت الله هو محور الحريّـة ومـدارها، من هنا لم يكن يحقّ للمحرم الآتى لزيارته أن يأسـر فيه الصـيد، أو يساعد على أسـره، أو ينفّره أو يدلّ الصيّاد عليه؛ لأنّ هذه الأعمال كلّها تتنافى مع روح الرغبة فى الحريّة، وما لم يُحرِّر الإنسان نفسه فلن يكون لديه صلاحيّة الطواف فى محلّة الحريّة.

١- الأعراف: ١٧٢.

٢- الكافى ۴: ٢٠۶- ٢٠٧.

٣- محرّمات الإحرام على ثلاثة أقسام بلحاظ المكلّف هى:

أ- المحرّمات المشتركة بين الرجال والنساء، وهى: ١- قلع الشعر عن البدن، أو بدن الآخرين سواء المحرم وغيره. ٢- إخراج الدم من البدن. ٣- قصّ الأظافر. ۴- قلع الأسنان. ۵- قلع شجر الحرم أو نباته. ۶- حمل السلاح إلّا فى حال الضرورة. ٧- الصيد إلّا مع الخوف منه. ٨- أنواع الاستفادة من الطِّيب.

٩- الاكتحال. ١٠- النظر فى المرآة. ١١- الجدال.

١٢- دهن البدن. ١٣- العقد سواء الدائم أم المنقطع، وكذلك الشهادة على العقد. ١۴- الاستمناء.

١۵- العمل الجنسى مطلقاً؛ مثل النظر بشهوة، أو التقبيل، أو الجماع، وأىّ لذّة جنسيّة. ١۶- لبس الخاتم للزينة وكذلك الحنّاء. ١٧- الفسوق، وهو الكذب والافتخار والفحش والتباهى. ١٨- قتل حشرات البدن أو رميها.

ب- المحرّمات الخاصّة بالرجال، وهى:

١- تغطية الرأس. ٢- التظليل حال الحركة والسفر. ٣- لبس المخيط. ۴- لبس الحذاء أو الجوراب الساتر لظهر القدم بتمامه.

ج- المحرّمات الخاصّة بالنساء، وهى:

١- تغطية الوجه. ٢- لبس الحلىّ للزينة.

وبناءً عليه، فمحرّمات الإحرام عددها أربعة وعشرون. وللاطّلاع على خصائصها وتفصيل أحكامها، وكذلك كفّاراتها وما يترتّب على عدم مراعاتها، يمكن مراجعة كتب مناسك الحجّ.

۴- نهج البلاغة، الخطبة: ١٩٢ القاصعة، الفقرة: ۵٣- ۶۵.

ص: ١۶

من هـذا كلّه، وضع الله سـبحانه مكاناً مقـدّساً بظروف مناطقيّـة غير ملائمـة ليجعله مركزاً للاختبار فى سـياق إيجاد التناغم بين التكوين والتشـريع، حتّى يتمكّن الخلق من التخلّص من الملوّثات والتعلّقات والأقـذار والتطهّر من الخبائث والنجاسات فى رياضاتهم الممدوحة التى تتمّ من خلال محرّمات الإحرام، وكذلك عبر مناسك الحجّ والعمرة (١).

وكـأنموذج على الاختبـار المـذكور، جرى تحريم الاسـتفادة من العطور والروائـح الجميلـة حـال الإحرام من جهـة، كما منع- من جهة اخرى- من إغلاـق الأـنف ووضع اليـد عليه عنـدما يحتـكّ الإنسـان حال أداء مناسك الحـجّ والعمرة أو يجالس أشـخاصاً تفوح منهم الرائحة الكريهة، وكذلك عند العبور من مكان ذبح الأضاحى ... إنّ مثل هذه الامور تكسر أنانيّة الإنسان وعنجهيّته وكبرياءه وتفاخره، بحيث تحوّله بعد إنجاز أعمال الحجّ والعمرة إلى عبد حرّ مُنعتق لله.

هـذه الـدورة البانيـة للإنسـان، تؤثّر تـأثيراً كبيراً فى المجتمع، فاولئـك الـذين لم يكونوا ليتورّعوا عن أكـل العظايـة فى عصـر الجاهليّة الوحشـى، وكانوا يتسابقون فى اصـطياد هذا الحيوان، أصبحوا الآن يترفّعون عن ظبى الصحراء، حتّى تمكّنوا فى عصر التمدّن الإسلامى من الانتصار على كلّ الميول والرغبات الذاتيّة بتأثير من الأوامر الإلهيّة.

لـدورة الإحرام الغنيّـة بالمُعطيات تأثيرٌ كبير على بناء الشخصـيّة الإنسانيّـة، تشاهـد نتائجها العمليّـة الرائعـة فى المجتمع المعتقد والملتزم بمحتوى الحجّ والزيارة.

١- المصدر نفسه.

ص: ١٧

ص: ۱۸

ص: ۱۹

ص: ۲۰

السعی

الخلفیّة التاریخیّة للسعی

السعی فی الحجّ یرمز إلی قصّة هاجر وإسماعیل (علیهما السلام)، وقصّتهما معروفة عندما ترکهما إبراهیم (ع) بواد قفر غیر ذی زرع، وترک عندهما قلیلًا من الماء والطعام.

فلمّا نفذ ما کان عندهما من الماء غلب الظمأ علی إسماعیل وخافت امّه هاجر علیه من الهلاک فبدأت تسعی جاهدةً تبحث له عن ماء، من الصفا إلی المروة وبالعکس؛ تنظر إلی الافق البعید تبحث لطفلها عن الماء، حتّی إذا کانت فی الشوط السابع من سعیها بین الصفا والمروة ألقت من المروة نظرة إلی حیث یقع بئر زمزم الیوم بالقرب من موقع المسجد الحرام فوجدت الماء یتفجّر من تحت قدم الطفل، فترکت سعیها، وهرولت نحو إسماعیل تسقیه، وتلملم الماء لئلّا یذهب هدراً فی الأرض القفر، وتقول: زم زم.

وقد سجّل الله تعالی سعی هذه المرأة الصالحة امّ إسماعیل یومئذ إلی الماء لإنقاذ رضیعها فی ذاکرة التاریخ، وجعل من سعیها منسکاً من مناسک الحجّ.

معنی السعی

إذن (السعی) فی الحجّ یرمز إلی مسألة أساسیّة فی حیاة الإنسان؛ وهی حرکة الإنسان فی الدُّنیا سعیاً من وراء الرزق فی الدُّنیا، أو رضوان الله ورحمته فی الآخرة.

وسعی هاجر من هذا السعی، وسعی المریض إلی الطبیب، والتلمیذ إلی المعلّم، والعامل فی العمل، والفلّاح فی المزرعة، والتاجر فی السوق، من هذا السعی، ومن ذلک سعی الإنسان إلی اکتساب رضوان الله ورحمته فی الآخرة وَمَنْ أَرَادَ الْاٰخِرَةَ وَسَعیٰ لَهَا سَعْیَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِکَ کَانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً (۱).

وعلی نحو الاختصار: السعی کلّ حرکة هادفة تؤمّن للإنسان حاجاته، وهذه الحاجات قد تکون فی الدُّنیا، وقد تکون فی الآخرة.

وللإنسان حاجات کثیرة فی الدُّنیا فهو یحتاج إلی أن یؤمّن لنفسه رزقه واستقراره وراحته وأمنه وکرامته وشهواته وغرائزه فی الدُّنیا.

وقد یکون ذلک بالسعی الحلال، وقد یکون ذلک بالسعی الحرام ... یقول تعالی: إِنَّ سَعْیَکُمْ لَشَتّٰی (۲)؛ وهو إشارة إلی تنوّع سعی الإنسان فی الدُّنیا من السعی الحلال والحرام، والسعی الصحیح والباطل.

وللإنسان حاجات للآخرة، یسعی لها فی الدُّنیا من غفران الله ورحمته ورضوانه ونعیمه فی الجنّة.

دروس من سعی امّ إسماعیل (علیهما السلام)

فی الوادی القفر

المشاهد الثلاثة لقصّة إبراهیم ۷ وهاجر ۳ والدروس الثلاثة:

سعی هاجر، امّ إسماعیل، فی الواد القفر، مشهد واحد من ثلاثة مشاهد من قصّة هجرة إبراهیم (ع) بهاجر، وإسماعیل إلی الحجاز، بواد غیر ذی زرع إلی موضع البیت الحرام الیوم.

۱- الإسراء: ۱۹.

۲- اللیل: ۴.

ص: ۲۱

هذه القصّة بفصولها الثلاثة تعدّ من روائع التوحید.

وهی ذات مشاهد ثلاثة:

بطل المشهد الأوّل فیها هو إبراهیم (ع) حیث هاجر بزوجته (امّ ولده) امّ إسماعیل، وولده إسماعیل (علیهما السلام) إلی واد غیر ذی زرع، وترکهما لوحدهما فی واد قفر، لا ماء فیه ولا زرع، ولا بشر ولا طیر، وغادرهما مستودعاً الله إیّاهما.

وبطلة المشهد الثانی هاجر (س)، امّ ولد إبراهیم، حیث تتقبّل هذه الهجرة؛ لأنّ الله تعالی أمره بها، فلمّا نفذ ما لدیها من الماء وغلب الظمأ علی إبنها إسماعیل (ع) بدأت بالسعی بین الجبلین بحثاً عن الماء حتّی استجاب الله تعالی لسعیها ودعائها وفجّر لها الماء من تحت قدم إسماعیل.

وبطل المشهد الثالث هو إسماعیل (ع)، حین عاد إلیه أبوه إبراهیم- وهو یومئذ شاب یافع- فأبلغه بأمر الله تعالی له بأن یذبح ابنه بیده: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْیَ قَالَ یَا بُنَیَّ إِنِّی أَرَی فِی الْمَنَامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَی. قَالَ یَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِینَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِینِ* وَنَادَیْنَاهُ أَنْ یَا إِبْرَاهِیمُ* قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْیَا إِنَّا کَذَلِکَ نَجْزِی الْمُحْسِنِینَ (۱).

ویتضمّن کلّ مشهد من مشاهد القصّة الثلاثة درساً عالیاً من دروس التوحید، نُشیر إلیه هنا باختصار:

الدرس الأوّل: التوکّل والثقة بالله

لقد جاء إبراهیم (ع) بزوجته هاجر (امّ إسماعیل) إلی هذا الواد القفر بأمر من الله: «وکان إبراهیم لا یمرّ بموضع حسن فیه شجر ونخل وزرع إلّا قال لجبرئیل إلی هاهنا، فیقول: لا أمض حتّی أتی مکّة ... فلمّا نزلوا فی ذلک المکان کان فیه شجرة، فألقت هاجر علی ذلک الشجر کساءً کان معها فاستظلّوا تحته، فلمّا سرحهم إبراهیم ووضعهم وأراد الانصراف منهم إلی سارة، قالت له هاجر: یا إبراهیم لِمَ تدعنا فی موضع لیس فیه أنیس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهیم: الله الذی أمرنی أن أضعکم فی هذا المکان، ثمّ انصرف ... فلمّا بلغ کراء، وهو جبلٌ بذی طوی التفت إلیهم إبراهیم فقال: رَبَّنَا إِنِّی أَسْکَنتُ مِنْ ذُرِّیَّتِی بِوَادٍ غَیْرِ ذِی زَرْعٍ عِنْدَ بَیْتِکَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِیُقِیمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِن النَّاسِ تَهْوِی إِلَیْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِن الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ یَشْکُرُونَ، ثمّ مضی وبقیت هاجر» (۲).

وهذا هو الدرس الأوّل فی هذه القصّة.

ثقة مطلقة بالله تعالی وطاعة له وتوکّلٌ علیه، یترک زوجته وولده إسماعیل، فی هذا الوادی القفر ویذهب عنهم بأمر الله تعالی، قد جعل الله تعالی علیهم وکیلًا عنه فی رعایتهم وحراستهم، وغادرهما واثقاً بالله، متوکّلًا علیه، سائلًا إیّاه أن یرعاهما ویرزقهما من الثمرات.

الدرس الثانی: السعی

وهذا هو الدرس الثانی الذی یتضمّنه موقف امّ إسماعیل، تقول الروایة المتقدّمة، وهی عن هشام، عن أبی عبدالله (ع):

«فلمّا ارتفع النهار عطش إسماعیل، وطلب الماء، فقامت هاجر فی الوادی فی موضع السعی، ونادت، هل فی الوادی من أنیس؟ فغاب عنها إسماعیل، فصعدت علی الصفا ولمع لها السراب فی الوادی وظنّت أنّه ماء، فنزلت فی بطن الوادی وسعت ... حتّی بلغت سبع مرّات، فلمّا کان فی الشوط السابع، وهی علی المروة، نظرت إلی إسماعیل، وقد ظهر الماء من تحت رجلیه، فعادت إلیه» (۳).

۱- الصافّات: ۱۰۲- ۱۰۵.

۲- تفسیر علیّ بن إبراهیم القمّی ۶۰: ۱- ۶۱ تحقیق السیّد طیب الموسوی الجزائری، والآیة الکریمة من سورة إبراهیم، الآیة ۳۷.

۳- تفسیر علی بن إبراهیم القمّی ۶۱: ۱.

ص: ۲۲

وهـذا هو درس السـعی ... لم تیـأس من طلب المـاء فی ذلک الوادی القفر، ولم تتعب من السـعی سـبعة أشواط من الصـفا إلی المروة وبالعکس، حتّی رزقها الله الماء فی الوادی غیر ذی الزرع.

الدرس الثالث: التسلیم والطاعة والصبر علی الطاعة

الدرس الثالث لابنها إسـماعیل (ع)، إذ عاد إلیه أبوه إبراهیم (علیهما السـلام)، وقد ترکه طفلًا صـغیراً بجانب امّه بواد قفر غیر ذی زرع، من غیر طعام ولا شـراب، ولا أنیس، فعاد إلیه وهو شاب یافع یرعی الأغنام مع شباب جُرْهم، یملأ عینی أبیه الشیخ وقلبه بجماله ... فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْیَ قَالَ یَا بُنَیَّ إِنِّی أَرَی فِی الْمَنَامِ أَنِّی أَذْبَحُکَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَی قَالَ یَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِینَ* فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِینِ (۱).

یستسلم إسماعیل لأمر الله، ویقول لأبیه: سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِینَ.

هذه دروس ثلاثة فی التوحید من إبراهیم وزوجه وولدهما (علیهم السلام):

(التوکّل علی الله والثقة به)، و (السعی إلی رزق الله)، و (التسلیم لأمر الله والصبر علی ذلک).

وکلّ هذه الدروس من التوحید ... ولست بقادر علی الترجیح فیما بینها وتفضیل بعضها علی بعض.

أیّ موقف هو الأفضل؟ موقف الأب وهو یترک زوجه وولـده بواد غیر ذی زرع، من دون أنیس ولا طعام ولا شـراب ویقـدم علی ذبح ولده إسـماعیل، أم الامّ وهی تسعی فی ذلک الوادی للبحث عن الماء لتنقذ ابنها من الهلاک، أم موقف الولد وهو یستسلم لأمر الله أن یُذبح علی ید أبیه، وهو یقول: سَتَجِدُنِی إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِینَ.

ولکنّها دروس عالیة فی التوحید.

سبعة دروس من سعی امّ إسماعیل:

ونحن هاهنا نقتصرها علی درس (السعی) وهو الدرس الذی نتلقّاه هنا، فی هذه القصّة من امّنا امّ إسماعیل (س).

لقد شاء الله تعالی أن یثبت سعی هاجر (امّ إسماعیل) فی واحدة من أعظم فرائض الإسلام ألا وهی فریضة الحجّ.

ویـأمر الله تعـالی الأبنـاء أن یجروا فی کلّ عام علی خُطی امّهم امّ إسـماعیل بین الجبلین الصـفا والمروة، ویعیـدوا ذِکر سـعیها فی هـذا الوادی، جیلًا بعد جیل.

لقد تضـمّن سعی امّ إسماعیل یومئذ بجوار البیت الحرام دروساً فی التوحید والسلوک إلی الله، نذکر طائفة منها، بقدر ما یتّسع له صدر هذا المقال. وإلیک هذه الدروس تِباعاً:

۱- السعی من منازل الرحمة

إنّ رحمـة الله تعـالی نازلـة تفیض علی النـاس، فی کلّ زمان ومکان، لا یخلو منها زمان ولا مکان، ولکن لرحمته تعالی منازل خاصّـة، تنزل الرحمة فی هذه المنازل، لا کما تنزل فی سائر المواضع ... إنّها تصبّ فی هذه المنازل بغیر حساب.

ومن یطلب رحمة الله فعلیه أن یطلبها فی هذه المنازل، والعارفون من عباد الله هم الذین یعرفون هذه المنازل، کما یعرف الناس بیوتهم وأولادهم، یرصدون هذه المنازل ویبتغون فیها رحمة الله.

من هـذه المنازل المنازل الزمانیّة؛ مثل لیلـة الجمعـة، ولیلـة النصف من شـعبان، ویوم عرفـة، ولیلة القدر، وشـهر رمضان، وشـهر رجب وشعبان، وقد ورد فی شهر رجب أنّ الرحمة تصبّ فیه صبّاً، لذلک یُقال له: (رجب الأصبّ).

ومن هـذه المنـازل المنـازل المکانیّة؛ مثـل بیت الله الحرام، ومسـجد رسـول الله (ص)، ومسـجد الکوفـة، والمسـجد الأقصـی، والحـائر الحسینی وسائر المساجد.

۱- الصافّات: ۱۰۲- ۱۰۳.

ص: ۲۳

ومنها المنازل النفسيّة؛ كحالة الإنكسار والبكاء والخشوع فإنّها أقرب الحالات إلى رحمة الله تعالى، ويُستجاب فيها الدّعاء وقد ورد فى النصوص الدينية: إنّ الله فى القلوب المنكسرة، ومنها غير ذلك ... والدّعاء من منازل الرحمة، والتقوى من منازل الرحمة.

و (السعى) من منازل الرحمة، فمَن أراد الرزق فعليه أن يسعى فى الأسواق، ومَن أراد العلم فعليه أن يسعى إليه فى المدارس، ومَن أراد الشفاء فعليه أن يسعى إليه لدى الأطبّاء ... وهكذا.

جعل الله (السعى) من منازل الرزق والرحمة، فلو أنّ الإنسان لم يخرج من بيته سعياً إلى الرزق لا يُرزق، ولو أنّ الإنسان لم يخرج إلى المدارس سعياً إلى العلم لا يتعلّم.

لقد كانت امّ إسماعيل تعلم أنّها فى واد غير ذى زرع، لا يوجد فيه ماء، ولا إنسان، ولكنّها لمّا وجدت أنّ وحيدها إسماعيل (ع) يكاد أن يهلك من الظمأ تحرّكت وسعت، وأعادت الحركة والسعى سبعة أشواط، لا تكلّ ولا تملّ، ولا تتعب ولا تيأس من السعى حتّى رزقها الله الماء.

۲- والرزق من عند الله

قد جعل الله تعالى السعى مفتاحاً للرزق، ولكن الرزّاق هو الله تعالى، وعلى الإنسان أن يعرف كلًّا من هاتين الحقيقتين.

وقد يطلب الله من عبده السعى ثمّ يجعل رزقه فى غير موضع السعى؛ حتّى يأخذ العبد بأسباب السعى ويتكامل بالسعى، ثمّ يجعل رزقه فى غير موضع السعى، حتّى تبقى ثقة العبد فى الرزق بالله تعالى، ويعلم أنّ الله هو الرزّاق.

لقد بلَّغ رسول الله (ص) الإسلام فى مكّة طويلًا، ودعا قريش إلى دين الله، وتحمّل من قريش هو وأصحابه الكثير، وذهب إلى الطائف، وبعث أصحابه إلى اولى الهجرتين، الحبشة، فلمّا أذِنَ الله تعالى لهذا الدِّين أن ينتشر جعل الله تعالى الانفتاح الأوّل على الإسلام فى يثرب (المدينة) وليس فى مكّة، ولا فى الطائف، ولا الحبشة، وإنّما كان فى يثرب حيث كان الفتح الأوّل لهذا الدِّين.

وقد سعت هاجر فى هذا الوادى القفر سبعة أشواط بحثاً عن الماء، تسعى من الصفا إلى المروة، ثمّ من المروة إلى الصفا، ولكن الله تعالى لم يجعل رزقها ورزق ابنها من الماء فى موضع سعيها وبحثها بين الصفا والمروة، وإنّما جعله على طرف الوادى عند البيت الحرام.

كان لابدّ لها من السعى، بحثاً عن الماء، وكان لابدّ لها أن تعلم أنّ الله هو الذى فجّر الماء من تحت قدم إبنها، وليست هى التى اكتشفت الماء، كان لابدّ لها من السعى، ولابدّ لها من الوعى إنّ السعى ضرورة من ضرورات حياة الإنسان فى التكوين والتشريع معاً، لايمكن أن يستغنى عنه الإنسان، ولا يسمح بالتخلّى عنه الدين، ولكن السعى- للأسف- عامل مضلّل فى حياة الإنسان، يحجب الإنسان عن الله، ولكى لا يؤدّى السعى إلى تضليل الناس، فقد يجعل الله تعالى رزق عباده فى غير موضع سعيهم، وهكذا كان الأمر فى سعى هاجر.

۳- التوحيد فى السعى

إنّ سعى الإنسان شتّى، فقد يسعى لآخرته، وقد يسعى لدُنياه، وقد يسعى لمعاشه وقد يسعى لمعاده. الإنسان قد يعمل فى السوق، ويذهب للتجارة، ويتزوّج، وقد يصلّى ويصوم ويحجّ ويذكر الله، وكلّ ذلك سعى.

فهل تكون وجهة الإنسان فى صلاته وصومه وحجّه وذكره إلى الله تعالى، وفى زواجه وسعيه فى السوق إلى نفسه (الأنا)، وفى علاقاته الاجتماعيّة وخدماته الإنسانيّة إلى الآخرين ...؟

وهذه هى حالة (تعدّدية الوجهة)، وهى حالة معروفة لدى أكثر الناس، وهذه الحالة تشتّتهم وتحرفهم عن التوحيد.

ص: ۲۴

وفی مقابل هذه الحالة حالة (وحدة الوجهة)، وهی الحالة التی دعا إلیها أبونا إبراهیم (ع): إِنِّی وَجَّهْتُ وَجْهِی لِلَّذِی فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْارْضَ حَنِیفاً وَمَا أَنَا مِن الْمُشْرِکِینَ (۱).

فتکون وجهة الإنسان فی کلّ أحواله إلی الله سواءً فی المسجد، أم فی السوق، أم فی البیت، أم فی المزرعة، أم فی الحرب أم فی السلم، وفی السرّاء والضرّاء، وفی الیُسر والشدّة.

فإنّ من الناس من یتوجّه إلی الله فی البأساء والضرّاء، وینقلب إلی نفسه ودُنیاه فی أیّام العافیة والسرّاء.

ومن الناس من یتوجّه إلی الله فی المسجد، وإلی دنیاه فی السوق.

ولا یکتمل للإنسان التوحید، إلّا حینما یجعل الله تعالی وجهته فی السرّاء والضرّاء، وفی الشدّة والرخاء، وفی المسجد والسوق ... فی کلّ هذه المواقع تکون وجهته إلیه تعالی (۲).

۴- السعی والکلم الطیّب

إنّ سلوک الإنسان إلی الله «سعی» و «کلم طیّب»، وإلی هذا یشیر قوله تعالی: إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ، والکلم الطیّب الصاعد إلی الله هو نیّة التقرّب إلی الله، والإخلاص، والخشوع، والتضرّع، والحبّ والبغض، والولاء، والبراء.

والذی یصعد إلی الله هو الکلم الطیّب، إلّا أنّ الذی یرفع الکلم الطیّب إلی الله هو العمل الصالح وهو (السعی)، وسوف یأتی توضیح أکثر لهذه الآیة.

فلا یصحّ تفریغ السعی من الکلم الطیّب؛ لأنّ السعی من دون الکلم الطیّب لا قیمة له ولا یعرج منه شیء إلی الله.

ولا یصحّ تجرید الکلم الطیّب عن العمل الصالح (السعی)؛ لأنّ الکلم الطیّب یبقی عندئذ علی الأرض، ولا یصعد إلی الله؛ لأنّ العمل الصالح هو الذی یرفع الکلم الطیّب إلی الله وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ.

ولستُ أدری ماذا کان یغلی فی نفس امّ إسماعیل یومئذ، فی ذلک الوادی القفر، وهی تلهث راکضةً من الصفا إلی المروة وبالعکس، من الدّعاء، والاستغاثة بالله، والاضطرار إلی الله، وهی تری وحیدها إسماعیل یکاد یهلک من شدّة الظمأ، ولا تعرف لابنها ولنفسها مخرجاً من هذا الهلاک إلّا أن یرحمها الله.

لستُ أدری ماذا کان یغلی فی صدرها من دعاء واستغاثة لله تعالی ...؟ ولکنّنا نعلم أنّ الله تعالی أسرع فی الاستجابة لدعائها واستغاثتها وسعیها، وأغاث لهفتها، وفجّر الماء تحت قدم ابنها، فرجعت المرأة إلی ابنها وهی قریرة العین باستجابة الله لدعائها أوّلًا، وبنبع الماء من الأرض تحت قدم ابنها ثانیاً.

أیّهما کان أقرّ لعین تلک المرأة یومئذ فی ذلک الوادی القفر:

شعورها بملأ قلبها وعقلها بأنّ الله تعالی أغاثها واستجاب دعاءها، أم الماء العذب البارد الذی کان یتدفّق من الأرض تحت قدم ولدها، وهی تلملمه، وتقول: زم زم لئلّا یذهب هدراً.

نحن لا نتردّد لحظة واحدة أن نقول: إنّ الأوّل کان أقرّ لعینها من برد الماء المتدفّق من الأرض.

وأیّ شیء أقرّ لعین إنسانة واعیة عارفة من مثل هاجر أن تعرف أنّ الله تعالی سمع فی ذلک الوادی القفر دعاءها وعرف اضطرارها، وکان سعیها ولهاثها بعینه وسمعه تبارک وتعالی، فاستجاب لدعائها. فی حین لم یسمعها، ولم یسمع نداءها واستغاثتها أحدٌ فی ذلک الهجیر، ولم یرَ أحد سعیها ولهاثها بحثاً عن الماء .. ولکن الله تعالی رآها وسمعها ورحمها وأغاثها، واستجاب لها، وأذاقها برد الاستجابة والإغاثة بعد الاضطرار ولهفة الاستغاثة.

حنانیک یاربّ، ما أعذب رحمتک، وما أجمل صنعک، وما أسرع إغاثتک، وما أوسع رحمتک بعبادک.

۱- الأنعام: ۷۹.

۲- قد تکون هذه الحالة من التوحید، وقد تکون من الإخلاص، فإذا کانت وحدة الوجهة بمعنی وعی الإنسان إلی أنّ مصدر کلّ حول وقوّة فی سعی الإنسان واحد، وهو الله تعالی، مهما تنوّع السعی، أو أنّ مصدر الرزق فی کلّ سعی الإنسان واحد، وهو الله تعالی، فیکون النصر من الله، والرزق من عند الله، والشفاء من عند الله، والعلم من عند الله، والهدایة من عنده تعالی، فیعطی الإنسان وجهه إلی الله فی کلّ شیء وفی کلّ شأن وفی السرّاء والضرّاء ... وهذا من التوحید.

وقد تکون وحدة الوجهة بمعنی الإخلاص، بمعنی أنّ غایة الإنسان فی کلّ ساحات الحیاة واحدة وهی مرضاة الله تعالی، وهذا هو الإخلاص.

ص: ۲۵

وَرَحِمَکِ الله یا امّنا، فقد فقدت فی ذلک القفر الهجیر الأهل وحنانهم، وفقدت الماء والطعام، وفقدت من یسمعک ویعینک ... ولکنّک وجدت الله.

فماذا فقدت؟ وماذا وجدت؟

وسلام الله علی علیٍّ زین العابدین حیث یناجی الله قائلًا: إلهی ماذا فقد مَن وجدک.

فما أرخص ما فقدت وما أغلی ما وجدت، ولعلّ الله یرزق أبناءک فی تقلّبهم فی الحیاة بعض ما وجدت یومئذ فی ذلک القفر الهجیر.

۵- المبارکة للسعی

إنّ السعی الصادق، الخالص، الناصح منزل من منازل رحمة الله دائماً، ینزل الله تعالی إلیه برکاته.

لقد جعل الله تعالی تلک العین التی تفجّرت عند قدم إسماعیل بسعی هاجر امّ إسماعیل، ماءً مبارکاً ومنهلًا عذباً لحجّاج بیته، علی مرّ العصور، منذ عصر إبراهیم وهاجر وإسماعیل إلی الیوم، یشرب منه الحجّاج ویروون منه ویتبرّکون به ... وقد روی عن رسول‌الله (ص): «ماء زمزم لما شرب له. من شربه لمرض شفاه الله، أو لجوع أشبعه الله، أو لحاجة قضاها الله» (۱).

وقد کان الناس یشربون من ماء زمزم لیرزقهم الله العلم والمعرفة (۲).

ولا زال الناس یستشفون ویتبرّکون بماء زمزم. ولا زال زمزم یروی ملایین الحجّاج والمعتمرین الذین یقصدون البیت الحرام فی کلّ عام.

إنّ السعی لوحده، إذا انسلخ عن النیّة الصادقة والإخلاص وسائر الکلم الطیّب لا یکون موضعاً لمثل هذه البرکات العظیمة.

إنّ هذه البرکات من صنع الله تعالی، ولیس من صنع الإنسان، لا یصنعها الإنسان بسعیه وجهده، وإنّما یصنعها الله تعالی حیث یعرف الصدق والإخلاص فی السعی.

إنّ السعی عقیم من دون الصدق والإخلاص، ومبارک تتّصل برکاته ومنافعه بالصدق والإخلاص ... وهما الکلمتان الطیّبتان المبارکتان فی سعی الإنسان، والبرکة لیست بحجم العمل، فقد أسّس رسول الله (ص) فی المدینة المنوّرة مسجداً علی التقوی من الطین وجذوع النخیل وسعف النخیل ... وکان هذا المسجد مصدر خیر وبرکات کثیرة علی المسلمین منذ أسّسه رسول الله (ص) علی التقوی إلی الیوم ... وبنی الملوک والخلفاء والسلاطین مساجد عظیمة، بتکالیف باهظة لا تجد لها الیوم أثراً غیر الخرائب التی یحتفظ بها هواة الآثار ... أرأیت مسجد العبّاسیّین فی سامراء؟

۶- التکریم

وکم یسعی الناس فی حیاتهم، ویعملون ویتحرّکون، ولکن الله تعالی ینتقی سعی هذه المرأة الصالحة، فی الوادی القفر، دون سائر سعی الناس، لیکون جزءاً من مناسک الحجّ.

کیف رقی هذا السعی عند الله إلی هذا الموقع المتمیّز الممتاز، فکان جزءً من مناسک فریضة الحجّ دون سائر سعی الساعین؟ لا نعلم.

ولکن لکلّ انتقاء واختیار من عند الله سنن وقوانین وقواعد وحساب ... ولسنا نعلم من هذه السنن والقواعد إلّا القلیل.

لقد کانت هاجر (أَمَة)، ولم تکن حُرّة، وکانت امّ ولد إبراهیم، والناس لا یعبؤون فی حساباتهم فی التقییم بمثل هذه المرأة، ولا یدخل سعیها فی أولویّات التقسیم والتفضیل.

۱- الدر المنثور ۲۲۱: ۳.

۲- سفینة البحار، مادّة زم.

ص: ۲۶

ولكن لله تعالى حساب آخر فى التقييم والتفضيل، يختلف عن حساب سائر الناس، فيكرمها الله تعالى دون كثير من الرجال والنساء الأحرار، وينتقى سعيها فيجعله جزءاً من مناسك الحجّ والعمرة، ويأمر أنبياءه وأولياءه وعباده أن يحذوا حذو تلك المرأة الصالحة بين جبلى الصفا والمروة فى السعى.

إنّ كلّ هذا التكريم من ربّ العالمين كان لإمرأة ابتلاها الله تعالى فى هذا الوادى قبل عدّة آلاف من السنين سعت فى هذا الوادى بحثاً عن الماء تلهث من الصفا إلى المروة وبالعكس، راضيةً بقضاء الله، منقادة لأمره، داعيةً له، ومستغيثةً به ... ولم يرها يومئذ أحدٌ من الناس، ولكن الله تعالى رآها، واستجاب دعاءها، وأكرمها، وثبّت سعيها فى مناسك الحجّ والعمرة، ليتعلّم الناس أنّ مقاييس التقييم والتفضيل عند الله شىء آخر، غير ما فى أيدى الناس من المقاييس، وأنّ من تزدريه عيون الناس قد يرفعه الله، ومن يعظّمه الناس قد يزدريه الله ويحتقره.

۷- لم تستسلم لليأس والإحباط

عجيب أمر هذه المرأة فى ذلك الوادى القفر، لم تستسلم لليأس، ولم يسلبها التعبُ القدرةَ على السعى والحركة، ولم تفقد الأمل فى تحصيل الماء.

والرواية تذكر أنّها رفعت صوتها مستغيثةً فلم يجبها أحد، وأخذت تسعى بين الصفا والمروة وبالعكس تبحث عن الماء، ولم يتطرّق إلى روحها اليأس، ولم يعطّل التعب حركتها، حتّى رأت الماء، فى الشوط السابع من على قمّة المروة، يتدفّق تحت قدم ابنها، بالقرب من موقع الكعبة المشرّفة اليوم.

ولو أنّ هذه المرأة كانت مقطوعة عن الله لم يكن بوسعها أن تقاوم كلّ هذه المقاومة، ولاستسلمت لليأس والتعب وسقطت على الأرض، ولكن الإيمان بالله، والثقة برحمته، والأمل العظيم فى غوثه السريع، يهب من القوّة والمقاومة والصمود والثبات للمؤمنين، ما لا قِبلَ لأحد به.

عجبٌ أمر هذه المرأة فى توكّلها العظيم على الله، حيث قبلت أن تبقى فى الوادى القفر وحدها مع ولدها عندما فارقها إبراهيم (ع).

وفى أملها ورجائها العظيم برحمة الله، حيث لم يصبها يأس ولا إحباط فى السعى، حتّى فجّر الله الماء من تحت قدم ابنها إسماعيل بجانب موضع الكعبة.

إنّ هذه القوّة والمقاومة والصبر والثبات لا يكتسبها الإنسان إلّا من الإيمان بالله تعالى، ولا نعرف فى هذا الكون العريض كلّه عاملًا يمنح الإنسان كلّ هذه القوّة والثبات والصمود والصبر مثل الإيمان بالله تعالى.

فلسفة السعى

إنّ السعى شرط الرزق، وما ينال أحد شيئاً إلّا بالسعى إلى أسبابه. فلا يسأل الإنسان العافية والشفاء إلّا بالسعى إلى الطبيب والعلاج، ولا ينال الإنسان الرزق إلّا بالسعى إلى السوق، ولا ينال العلم إلّا بالسعى إلى الدراسة، ولا ينال الآخرة إلّا بالسعى فى الدُّنيا.

وهذه سُنّةٌ ثابتة من سنن الله تعالى فى الحياة الدُّنيا.

وأمّا فى الآخرة فليس الأمر كذلك؛ فإنّ الإنسان ينال ما يُريد فى الجنّة من دون سعى، فإنّ الجنّة قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (۱)، وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (۲)، وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ (۳).

وهذه الآيات وغيرها تُشعر أنّ الجنّة ليست بدار سعى لَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ ...

۱- الحاقّة: ۲۳.

۲- فصّلت: ۳۱.

۳- الواقعة: ۲۰.

ص: ۲۷

ولکن الدُّنیا دار سعی، سعی فی الدُّنیا للدُّنیا، وسعی فی الدُّنیا للآخرة.

ونتساءل لماذا کانت الدُّنیا دار سعی ... ولا ینال الإنسان شیئاً من رزق الله تعالی إلّا بالسعی فی الدُّنیا؟

والجواب: إنّ سُـلَّم تکامل الإنسان فی الـدُّنیا فی الابتلاء، ولا ینال الإنسان کمالًا فی الدُّنیا والآخرة إلّا من خلال سُـنّة (الابتلاء)، ولا یتمّ الابتلاء إلّا بـالعبور من خلال الأهواء والشـهوات والفتن والمُغریات فی الـدُّنیا ... وفی هـذا العبور یتکامل الإنسان أو یسـقط، وکمال الإنسان فی الدُّنیا والآخرة هو أن یجتاز هذا الصـراط من دون أن یسقط فی شرک الشهوات والمُغریات. وسقوطه هو الوقوع فی شرک سلطان الأهواء والفتن والمغریات.

إنّ هـذا العبور الصـعب من وسط الأهواء والشـهوات (فی داخل النفس) من جانب، ومن خلال المُغریات والفتن فی (ساحة الحیاة) من جانب آخر، هو سرّ تکامل الإنسان، وهو سبب سقوط الإنسان وهلاکه وشقائه، إذا وقع الإنسان فی هذا العبور فی أسر الأهواء والفتن.

ولیس للملائکة مثل هذا العبور الصـعب، کما لیس للحیوان مثل هذا العبور، ولذلک یسـمو الإنسان علی الملائکة إذا عبر هذه المنطقة الصـعبة بسـلام، ویکون أحطّ من الحیوانات إذا سـقط فی هـذه المنطقـة أُوْلَئِکَ کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ (۱)، إِنْ هُمْ إِلَّا کَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِیلًا (۲)، وهذا العبور هو (السعی). ولولا السعی لا یتمکّن الإنسان من هذا العبور الصعب.

فلو أنّ الإنسـان انزوی فی بیته أو فی الکهوف والمغـارات وتفرّغ للعبـادة ولم ینزل إلی الشارع، ولم یختلط بالناس، ولم یلتق بالمُثیرات والمغریـات والفتن، ولم تتعرّض الغرائز التی أودعهـا الله فی نفسه لإثـارات حـادّة، لم یبلغ (کمـال الإنسـان)، ولـذلک جعـل الله تعـالی السعی شرطاً فی الرزق فی هذه الدُّنیا؛ لأنّ تکامل الإنسان لا یتمّ إلّا من خلال (السعی)، إلّا أنّ العِدْل الآخر لهذا الکمال هو السقوط.

وهـذا السـقوط هو ضـریبة ذلک الکمال، وقد هیّأ الله تعالی للإنسان کلّ أسـباب سـلامة العبور والخروج من هذه المنطقة الصـعبة، من وسائل الهدایـة الباطنیـة (العقل) والخارجیّـة (الأنبیاء والوحی)، ومکّن الإنسان من الاختیار، وهو یختار بعد ذلک الهدی أو الضـلال إِنَّا هَدَیْنَاهُ السَّبِیلَ إِمَّا شَاکِراً وَإِمَّا کَفُوراً (۳)، ثُمَّ السَّبِیلَ یَسَّرَهُ (۴).

السعی من منازل رحمة الله

جعـل الله تعـالی لرحمته منازل ومواقع فی حیاة الناس، فمَن کان یسـعی إلی رحمـة الله فعلیه أن یطلبها فی منازلها، ولرحمـة الله مفاتیح فمَن طلبها فعلیه أن یقصدها بمفاتیحها ومن أبوابها.

وهذا باب واسع من أبواب المعرفة لا نرید أن ندخله الآن، و (السعی) من أعظم منازل رحمة الله.

ولا ـ شکّ أنّ الرازق هو الله تعالی، ولکن (السـعی) من أبواب رزق الله تعالی ومنازل رحمته، فمَن أراد الرزق فعلیه السـعی فی السوق، ومَن أراد العلاج فعلیه السعی إلی الأطبّاء، ومَنْ أراد العلم فعلیه السعی إلی العلماء والمدارس، ومَن أراد النصر فعلیه السعی إلی الأعداء والتحضیر والتخطیط له.

إلّا أنّ الرزق من عنـد الله، والشـفاء من عنـد الله، والعلم من عنـد الله، والنصـر من عنـد الله، ومـا السـوق والطـبیب والمدرسـة والإعـداد والتحضیر للحرب إلّا مفاتیح ومداخل لها.

وکذلک الآخرة بما یرزق الله تعالی فیها عباده من المغفرة والنعیم والرِّضوان ... مفتاحها السعی.

ومَن أراد الدُّنیا أو الآخرة من غیر أن یسعی إلیهما بسعیهما، فلا ینال ما یُرید فیهما.

۱- الأعراف: ۱۷۹.

۲- الفرقان: ۴۴.

۳- الإنسان: ۳.

۴- عبس: ۲۰.

ص: ۲۸

وهذه من سنن الله تعالى التى لا تتبدّل ولا تتغيّر: وهى أنّ الله تعالى جعل السعى مفتاحاً لرحمته فى الدُّنيا والآخرة.

ولا ينال الإنسان رزقاً من رزق الله إلّا بالسعى، يقول تعالى: وَأَنْ لَيْسَ لِلْانسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (۱).

أُصول النظريّة الإسلاميّة فى السعى للدُّنيا

عوداً على بدء، نعود إلى الحديث مرّةً اخرى عن مجمل التصوّر الذى يقدِّمه الإسلام عن (السعى).

وأهمّ النقاط التى تدخل فى تكوين النظريّة الإسلاميّة فى (السعى)، هى:

۱- الدعوة إلى السعى وإقراره، والتأكيد عليه، والدعوة إلى عمارة الأرض من خلال السعى، يقول تعالى: فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِى الْارْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (۲).

۲- تعميق مبدأ أنّ الرزق من عند الله تعالى فقط. يقول تعالى: إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (۳).

ويقول تعالى: قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِن السَّمَوَاتِ وَالْارْضِ قُلْ اللهُ (۴).

ويقول تعالى: وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب (۵).

ويقول تعالى: (إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً) (۶).

وهذا مبدأ هامّ فى الإسلام، وشعبة من شعب التوحيد؛ وهو توحيد الله تعالى فى الرزق ... وكذلك الأمر فى توحيد الله فى الشفاء وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (۷)، وتوحيد الله فى (النصر) وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ (۸)، وغير ذلك من وجوه سعى الإنسان فى الحياة الدُّنيا.

۳- وسعى الإنسان فى طلب الرزق لا يزيد على أن يكون ابتغاءً للرزق من فضل الله ورحمته وطلباً لرزقه.

وفرق شاسع بين المفهومين:

بين أن يكون الإنسان هو الذى يحقّق رزقه بيده فى السوق.

أو أن يطلب رزق الله وفضله الذى قدّره تعالى له فى السوق.

والأوّل من الشرك، والثانى من التوحيد.

والقرآن الكريم يؤكّد بشكل عجيب على تثبيت أنّ الرزق من عند الله، وأنَّ سعى الإنسان فى طلب الرزق لا يزيد على أن يكون ابتغاءً من فضل الله ورحمته.

وهذه النقطة تأتى نتيجة للنقطة المتقدِّمة، فإنّ الرزق إذا كان من عند الله تعالى خالصاً، فلا محالة يكون دور الإنسان فى السعى إلى الرزق هو ابتغاء فضل الله.

ففى آية سورة الجمعة التى تلوناها قبل قليل وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ.

۴- التجمّل فى طلب الرزق.

وينهى الإسلام عن الحرص والجشع فى طلب الرزق، ويأمرنا بالتجمّل فى السعى، وينهانا عن أن نمدّ عيوننا إلى ما متّع الله الناس به من زهرة الحياة الدُّنيا.

يقول تعالى: وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (۹).

ويزهّدنا الله فى متاع الحياة الدُّنيا ويرغّبنا فى متاع الآخرة.

يقول تعالى: وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْاخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (۱۰).

۱- النجم: ۳۹.

۲- الجمعة: ۷.

۳- الذاریات: ۵۸.

۴- سبأ: ۲۴.

۵- البقرة: ۲۱۲، والنور: ۳۸.

۶- الإسراء: ۳۰.

۷- الشعراء: ۸۰.

۸- آل عمران: ۱۲۶.

۹- طه: ۱۳۱.

۱۰- العنکبوت: ۶۴.

ص: ۲۹

ویأمرنا الله تعالی أن نعرض عن اولئک الذین تستغرق الحیاة الدُّنیا کلّ اهتمامهم وطموحهم، یقول تعالی: فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّی عَنْ ذِکْرِنَا وَلَمْ یُرِدْ إِلَّا الْحَیَاةَ الدُّنْیَا (۱).

وینهانا الإسلام عن الحرص فی طلب الحیاة الدُّنیا.

یقول أمیر المؤمنین (ع) فی وصف الدُّنیا: «مَن ساعاها فاتته، ومَن قعد عنها واتته» (۲).

یعنی مَنْ بذل کلّ اهتمامه وجهده فی طلب الدُّنیا فاتته، ومَنْ تجمّل فی طلب الرزق واتته الدُّنیا.

۵- وینهی الله تعالی عن طلب الرزق من غیر الموارد التی حلّلها الله تعالی، وقد حدّد الله حدوداً للسعی إلی الرزق، وحرّم تجاوز هذه الحدود، وحرّم أکل المال بالباطل.

یقول تعالی: وَلَا تَأْکُلُوا أَمْوَالَکُمْ بَیْنَکُمْ بِالْبَاطِلِ (۳).

ویقول تعالی: إِنَّ کَثِیراً مِن الْاَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَیَأْکُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ (۴).

۶- ویُرغّبنا الله تعالی بابتغاء فضل الله بالسعی إلی الرزق.

یقول تعالی: وَمِنْ آیَاتِهِ مَنَامُکُمْ بِاللَّیْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُکُمْ مِنْ فَضْلِهِ (۵).

ویقول تعالی: وَتَرَی الْفُلْکَ مَوَاخِرَ فِیهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّکُمْ تَشْکُرُونَ (۶).

ویقول تعالی: رَبُّکُمْ الَّذِی یُزْجِی لَکُمْ الْفُلْکَ فِی الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (۷).

ویقول تعالی: اللهُ الَّذِی سَخَّرَ لَکُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِیَ الْفُلْکُ فِیهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (۸).

وهذا أیضاً من المبادئ الهامّة فی القرآن الکریم، وعلی الإنسان أن یجعل وجهه دائماً فی ابتغاء الرزق إلی الله، وکما یسلّم الإنسان وجهه لله تعالی فی العبادة، کذلک علیه أن یسلّم وجههلله عند السعی فی طلب الرزق، فإنّ السعی فی الرزق هو ابتغاء فضل الله ورحمته.

۷- الموازنة بین الدُّنیا والآخرة، فلا ینصرف إلی الدُّنیا کلّ الانصراف حتّی تُنسیه الآخرة، ولا یعرض عن الدُّنیا وعمّا یؤتی الله تعالی عباده من الرزق فیها، کلّ الإعراض، ولا یقبض یده کلّ القبض، ولا یبسطها کلّ البسط، وإنّما یسعی للموازنة بین الدُّنیا والآخرة فی سعیه وجُهده.

یقول تعالی: وَابْتَغِ فِیمَا آتَاکَ اللهُ الدَّارَ الْاخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِیبَکَ مِن الدُّنْیَا (۹).

ویقول تعالی فیما یعلّم عباده من الدُّعاء: رَبَّنَا آتِنَا فِی الدُّنْیَا حَسَنَةً وَفِی الْاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (۱۰).

هذه خلاصة من النهج الإسلامی لتهذیب (السعی) فی الحیاة الدُّنیا، وهی جمیعاً، کما یتّضح من خلال قراءة سریعة، توجّه سعی الإنسان إلی الحالة الربّانیة، وإضفاء الصبغة الإلهیّة علی سعی الإنسان فی الدُّنیا.

نسأل الله تعالی أن یرزقنا ابتغاء وجهه الکریم فی أحوالنا جمیعاً فی کدحنا وسعینا.

الضوابط الأربعة للسعی

علمنا أنّ السعی جزء لا یتجزّأ من حرکة الإنسان إلی الله، ولا یتکامل الإنسان فی هذه الدُّنیا إلّا من خلال (السعی). ولا یخلو إنسان خلقه الله تعالی علی وجه الأرض من (السعی).

إذن، فالسعی مسألةٌ ذات أهمّیة کبیرة فی حیاة الإنسان فی هذه الدُّنیا. ومن الضروری أن نتوقّف عند تحدید الضوابط التی جعلها الإسلام للسعی، وهذه الضوابط أربعة، نذکرها تِباعاً:

۱- التوحید.

۱- النجم: ۲۹.

۲- نهج البلاغة، الخطبة: ۸۲.

۳- البقرة: ۱۸۸.

۴- التوبة: ۳۴.

۵- الروم: ۲۳.

۶- النحل: ۱۴.

۷- الإسراء: ۶۶.

۸- الجاثية: ۱۲.

۹- القصص: ۷۷.

۱۰- البقرة: ۲۰۱.

ص: ۳۰

۲- الإخلاص.

۳- الذِّکر.

۴- التقوی.

وإلیک شرح کلّ واحد من هذه الضوابط بقدر ما یتّسع له هذا المقال.

۱- التوحید فی السعی

إنّ (السعی) یمکن أن یکون سُلّماً إلی التوحید، ویمکن أن یکون حجاباً یحجب صاحبه عن التوحید ... وذلک عندما یخال الإنسان أنّ سعیه هو مصدر رزقه، وقوته، وعزّته، وکثرته، وحوله، وطوله، وعلمه، وهذا هو الحجاب الذی یحجب صاحبه عن الله، وهو من الشرک بالله، إن لم یبلغ أحیاناً الکفر بالله العظیم.

والمنهج الصحیح فی (السعی): أن یبتغی الإنسان بالسعی فضله ورحمته فَإِذَا قُضِیَتْ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِی الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ (۱).

وَتَرَی الْفُلْکَ مَوَاخِرَ فِیهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ (۲).

وَجَعَلْنَا آیَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّکُمْ (۳).

فالرزق کلّه من الله تعالی:

قُلْ مَنْ یَرْزُقُکُمْ مِن السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ اللهُ (۴).

هَلْ مِنْ خَالِق غَیْرُ اللهِ یَرْزُقُکُمْ مِن السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ (۵).

والشفاء من عند الله: وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ یَشْفِینِ (۶).

والنصر من عند الله: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِیزِ الْحَکِیم (۷).

والزرع من عند الله: أَفَرَأَیْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ* أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (۸).

والحول والقوّة کلّها لله تعالی: مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ (۹).

والإنسان فی جولة السعی فی هذه الحیاة الدُّنیا لا یزید علی أن یطلب الرزق والشفاء والعلم والنصر من عند الله، وإنّما السعی فی الأسواق، والسعی إلی الطبّ والدواء، والسعی إلی العلم، والسعی للتخطیط والإعداد لساحات القتال، مفاتیح للمالوالشفاء والعلم والنصر فقط، ولیست مصادر لها.

لقد برز قارون لقومه بزینته فرِحاً مختالًا بما اوتی من المال، فقال له العلماء الصالحون من بنی إسرائیل: لا تفرح، أی لا یغرّک هذا المال ولا یُصیبک الاختیال، فإنّ الله لا یحبّ الفرحین المغرورین المختالین: إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا یُحِبُّ الْفَرِحِینَ (۱۰).

فکان جواب قارون لهم أنّه قد کسب هذا المال کلّه بعلمه ومعرفته وذکائه ... قَالَ إِنَّمَا أُوتِیتُهُ عَلَی عِلْم عِندِی (۱۱)؛ أی إنّما اوتیت هذا المال بسبب من علمی ومعرفتی، وهذا هو الکفر بالله العظیم.

إنّ السعی الذی أوصل قارون إلی هذا المال الکثیر حجبه عن الله تعالی، وهذا الحجاب هو الکفر بالله العظیم.

وفی قصّة صاحب الجنّتین نقرأ فی سورة الکهف هذا الحوار بینه وبین صاحبه الفقیر المؤمن:

فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ یُحَاوِرُهُ أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَراً ...

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ یُحَاوِرُهُ أَکَفَرْتَ بِالَّذِی خَلَقَکَ مِنْ تُرَاب ثُمَّ مِنْ نُطْفَة ثُمَّ سَوَّاکَ رَجُلًا.

لَکِنَّا هُوَ اللهُ رَبِّی وَلَا أُشْرِکُ بِرَبِّی أَحَداً.

۱- الجمعة: ۱۰.

۲- النحل: ۱۴.

۳- الإسراء: ۱۲.

۴- سبأ: ۲۴.

۵- فاطر: ۳.

۶- الشعراء: ۸۰.

۷- آل عمران: ۱۲۶.

۸- الواقعة: ۶۳- ۶۴.

۹- الکهف: ۳۹.

۱۰- القصص: ۷۶.

۱۱- القصص: ۷۸.

ص: ۳۱

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِی أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مَالًا وَوَلَداً (۱).

والفرق بین المنطقین فی هذا الحوار المتبادل بین صاحب الجنّتین، وصاحبه الفقیر (الأقلّ مالًا وولداً):

أنّ صاحب الجنتین عندما وجد نفسه أکثر مالًا وأعزّ نفراً لم یعرف فضل الله تعالی، ولم یذکر فضل الله تعالی علیه فی هذه الکثرة والعزّة، وإنّما رأی نفسه فقط أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً، وهذه (الأنا) هو الحجاب الأعظم الذی یحجب الإنسان عن الله.

ولکن صاحبه (الأقلّ مالًا وولداً) ینبّهه إلی خطئه، فیقول له: لو کنت تری فی هذه الکثرة والعزّة التی رزقک الله مشیئة الله وقوّته تعالی ورحمته ورزقه، ولا تری نفسک حیث وجدتنی أنا أقلّ منک مالًا وولداً ... کان هو الصواب وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَکَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ إِنْ تَرَنِی أَنَا أَقَلَّ مِنْکَ مَالًا وَوَلَداً.

إنّ (السعی) الذی أوصل صاحب الجنّتین إلی الکثرة والعزّة والتقدّم علی صاحبه أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً لم یکن إلّا مدخلًا إلی ابتغاء رحمة الله تعالی ووسیلة إلی ابتغاء الکثرة والعزّة من عند الله ... وأمّا الکثرة، والعزّة، والحول، والقوّة، والمال، والثروة، والشفاء، والنصر، والحول، والسلطان، فلا یکون إلّا من عند الله ... ولیس للعبد إلّا أن یطلبه من عند الله بسعیه وحرکته.

وهذه هی الرؤیة التوحیدیّة للسعی. وأمّا الرؤیة الاخری التی کان یری بها صاحب الجنّتین جنّتیه أَنَا أَکْثَرُ مِنْکَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَراً فهی من الشرک إن لم یکن هی الکفر بعینه. والفاصل بینهما کبیرٌ وشاسع.

۲- الإخلاص فی السعی:

إنّ سعی الناس لشتّی- ولکن السعی الذی ینفع الإنسان فی الآخرة ویتکامل به فی الدُّنیا والآخرة هو السعی الذی یخلص فیه الإنسان لله تعالی.

هذا السعی هو الذی یُقرّبه إلی الله، وهو الذی یتقبّله الله، وقد روی عن رسول الله (ص) أنّه قال: «إنّ الله لا یقبل من العمل إلّا ما کان له خالصاً، وابتغ (وأُبتغی) به وجهه» (۲).

ولیس الإخلاص فقط فی العبادات کالصلاة والصوم والحجّ والزکاة، بل ینبغی أن یکون الإخلاص فی کلّ سعی للإنسان، حتّی فیما یتعلّق بمعاشه وحیاته العائلیّة واموره الشخصیة ... فإنّ من الممکن أن یؤدّی الإنسان کلّ ذلک، وهو ینوی فیه وجه الله تعالی، وابتغاء مرضاته. قُلْ إِنَّ صَلَاتِی وَنُسُکِی وَمَحْیَایَ وَمَمَاتِی لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِینَ (۳).

والذی یلفتنا فی هذه الآیة إنّ الله تعالی لم یأمر نبیّه (ص) أن یخلص له فی صلاته ونسکه، بل أمره بالإخلاص فی حیاته ومماته وَمَحْیَایَ وَمَمَاتِی، وهی مساحة واسعة جدّاً، بل هی کلّ مساحة حیاة الانسان.

ولقد کنّا نجد فی عباد الله الصالحین من إذا طلب منه أحد شیئاً استمهله حتّی تحضره النیّة.

فإذا انقلب سعی الإنسان کلّه إلی ابتغاء وجه الله الکریم کان سعیه کلّه عبادة، وحیاته کلّها عروجاً وقُرباً إلی الله.

أُولئک هم الذین یعیشون فی وسط الناس، کما یعیش سائر الناس، فی الأسواق، والدوائر، والبیوت، والمتاجر، والمعامل، والمصانع، والمزارع، ولکن قلوبهم عند الله، وغایتهم هی ابتغاء وجهه الکریم، واولئک یتقبّل الله تعالی سعیهم فی الحیاة الدُّنیا کلّه؛ لأنّ سعیهم کلّه لله تعالی.

وفی هؤلاء یصحّ أن نقول: إنّ هؤلاء یعیشون مع الناس، ولیسوا مع الناس، یختلطون بالناس کما یختلط الناس بعضهم ببعض، ولکن بأجسامهم، أمّا قلوبهم فلم تفارق الله تعالی لحظةً واحدة.

۱- الکهف: ۳۴- ۳۹.

۲- کنز العمّال: ح ۵۲۵۸.

۳- الأنعام: ۱۶۲.

ص: ۳۲

۳- الذِّکر والسعی

إنّ السعی عند کثیر من الناس یشغلهم ویحجبهم عن الله؛ لأنّهم فی سعیهم یعتمدون الأسباب المادّیة ویتوسّلون بها إلی حاجاتهم ... وهو حقّ، فإنّ الله تعالی قد جعل لکلّ شیء سبباً، فإذا طلب الإنسان الرزق، فلابدّ أن یطلبه من أسبابه، ومن أسبابه التجارة، والسوق، والکدح فی الأسواق، وإن طلب النصر فلابدّ أن یطلبه من أسبابه، وإذا طلب الشفاء والعافیة فلابدّ أن یطلبهما من أسبابهما، وهذا حقٌّ کما ذکرنا، ولکن هذه الأسباب لا- تزید علی أن تکون أسباباً مباشرة للأشیاء، ومسبّب هذه الأسباب هو الله تعالی، والله خالقها وجاعلها، وهو ولیّ التوفیق یهبُ التوفیق لمن یشاء، ویسلب التوفیق عمّن یشاء، یهب الرزق لمن یشاء (بِیَدِکَ الْخَیْرُ إِنَّکَ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیرٌ) (۱)، ویقطع الرزق عمن یشاء.

یَخْلُقُ مَا یَشَاءُ (۲).

یَزِیدُ فِی الْخَلْقِ مَا یَشَاءُ (۳).

وَهُوَ عَلَی جَمْعِهِمْ إِذَا یَشَاءُ قَدِیرٌ (۴).

وَلَکِنَّ اللهَ یُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَی مَنْ یَشَاءُ (۵).

وَکَانَ اللهُ عَلَی کُلِّ شَیْءٍ قَدِیراً (۶).

إذن الرزق، والشفاء، والنصر، والعلم، والتوفیق من عند الله تعالی فحسب، وهذه الأسباب مسخّرة لله یخلقها ویعدمها، ویضعها حیث یشاء، ویرفعها من حیث یشاء (۷)، وهی لا تزید علی أن تکون مفاتیح إلی خزائن رحمة الله ورزقه.

والأسباب لیست أنداداً لله، ولا أضداداً له فی سلطانه وملکه، وإنّما هی مخلوقات له، مسخّرات بأمره ... یهبُ منها مَن یشاء ما یشاء.

وَاللهُ یَرْزُقُ مَنْ یَشَاءُ بِغَیْرِ حِسَاب (۸).

وَاللهُ یُؤْتِی مُلْکَهُ مَنْ یَشَاءُ (۹).

یُؤْتِی الْحِکْمَةَ مَنْ یَشَاءُ (۱۰).

وَاللهُ یُؤَیِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ یَشَاءُ (۱۱).

یَخْلُقُ مَا یَشَاءُ (۱۲).

یُنفِقُ کَیْفَ یَشَاءُ (۱۳).

إِنْ یَشَأْ یُذْهِبْکُمْ وَیَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِکُمْ مَا یَشَاءُ (۱۴).

یَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ یَشَاءُ وَیَقْدِرُ (۱۵).

وهو الحاکم علی الأسباب، ولیس محکوماً لها.

والتصوّرات فی هذه المسألة ثلاثة؛ منهم من یقرأ آی الکتاب، فی حاکمیّة الله وسلطانه، فیلغی الأسباب إلغاءً کاملًا، وینفی قانون العلّیة والسببیّة مطلقاً، وهو وهم، یخالف القرآن والعقل.

ومنهم من یحکّم هذه الأسباب علی مشیئة الله وإرادته ویعتقد أنّ الله تعالی هو خالق الأسباب، ولکن هذه الأسباب تعمل باستقلال، بعد أن خلقها الله، ولیس لله تعالی بعد أن خلق الأسباب أن یتصرّف فی هذا الکون، ویبسط الرزق لمن یشاء ویُقَدّرُ علی مَن یشاء، ویهب الملک والرزق والنصر لمن یشاء، ویمنعه عمّن یشاء وهؤلاء هم الیهود، کانوا یقولون، کما یحدّثنا القرآن: یَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَیْدِیهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ یَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ یُنفِقُ کَیْفَ یَشَاءُ (۱۶).

وهذا هو التصوّر الثانی، یشجبه القرآن ویلعن قائلیه.

۱- آل عمران: ۲۶.

۲- المائدة: ۱۷، النور: ۴۵.

۳- فاطر: ۱.

۴- الشوری: ۲۹.

۵- الحشر: ۶.

۶- الأحزاب: ۲۷.

۷- لیس معنی ذلک أنّنا ننفی السببیّة والعلّیة، فهذه من بدیهیّات العقل والفطرة، والقرآن الکریم حیث یقرّر أنّ کلّ شیء بید الله، ولا یجری فی الکون شیء من غیر إذن الله، یقرّر العلّیة والسببیّة بشکل دقیق، علی النهج الذی یحکم به العقل، ولکن من دون أن تکون الأسباب حجاباً بین الإنسان وبین الله تعالی.

۸- البقرة: ۲۱۲.

۹- البقرة: ۲۴۷.

۱۰- البقرة: ۲۴۹.

۱۱- آل عمران: ۱۳.

۱۲- آل عمران: ۴۷.

۱۳- المائدة: ۶۴.

۱۴- الأنعام: ۱۳۳.

۱۵- الرعد: ۲۶.

۱۶- المائدة: ۶۴.

ص: ۳۳

والتصوّر الثالث هو التصوّر الـذی یعلّمنا القرآن، یثبت قانون العلّیة، ثمّ یعلن أنّ هذا الکون کلّه والوجود کلّه مسـخّر لأمره، وهو الخالق الحاکم المهیمن علی الکون کلّه یرزق من یشاء، بما یشاء، کیف یشاء، وینصر مَن یشاء، بما یشاء.

وسعی الإنسان فی هذا الکون إلی أسباب الرزق ینبغی أن یکون من هذا المنطلق، وبهذه الرؤیة التوحیدیّة.

ولا ینبغی أن تحجبه الأسباب عن المسبّب الأوّل والمبدء الأوّل الحاکم علی الکون والوجود کله.

وحجـاب الأسـباب حجـاب کثیف، یُعمی الإنسـان، ویسـلبه البصـر والبصـیرة، فیری الإنسـان الأسـباب ولاـ یری یـد الله تعـالی من وراء الأسباب وفوقها ومعها.

وهذا هو شرط (التوحید) فی (السعی)، وقد تحدّثنا عنه، ولا نرید أن نعید الحدیث عن هذا الشرط.

وما نریـد أن نقوله هنا هو: إنّ هـذه الرؤیـة التوحیدیّة لعلاقة الکون بالله تعالی، وحاکمیّة الله المطلقة علی هذا الکون، یدعو الإنسان أن یکون ذاکراً لله تعالی فی کلّ مراحل سعیه، وکلّ أنماط سعیه، یطلب من الله ما یشاء، ویدعو الله تعالی فیما یرید، ولا یشغله الکدح فی السوق من أن یطلب الرزق من عند الله، ولا یشغله السعی إلی الأسباب المادّیة المیدانیّة للنصر فی المعرکة من أن یطلب النصر من عند الله.

وهذا هو قوله تعالی: وَإِیَّاکَ نَسْـتَعِینُ فإنّ تقدیم المفعول (إیّاک) علی الفعل (نسـتعین) یفید الحصر، ومعنی ذلک أنّ علی الإنسان أن لا یستعین فی سعیه بغیر الله، وکلّ استعانة بغیر الله فهی من الشرک الذی یشجبه القرآن الکریم.

وعلیه یبقی الإنسان ذاکراً لله تعالی، فی کلّ سـعیه، یدعوه عزّ شأنه للتوفیق والتأیید والرزق، ولا یشـغله شـیءٌ من هذه الأسباب عن ذکر الله تعالی ودعائه وسؤاله واللجوء إلیه عزَّ شأنه، فی کلّ مراحل السعی ومنعطفاته.

۴- التقوی والسعی

الکلمـة الأـخیرة فی ضوابط السـعی (التقوی) فإنّ الله تعالی إنّما یتقبّل من المتّقین .. وأیّ سـعی لا یأخـذ فیه صاحبه بضوابط التقوی لا یتقبّله الله.

وکما لا یتقبّل الله من السعی ما لا یخلص فیه صاحبه لله کذلک لا یتقبّل الله سعیاً لا یأخذ فیه صاحبه بضوابط التقوی إِنَّمَا یَتَقَبَّلُ اللهُ مِن الْمُتَّقِینَ (۱)، وأیّ سعی لا تضبطه التقوی فلا قیمة له عند الله.

والتقوی هی التی تُنجح سعی الإنسان، وتفتح له فی الأزمات الصعبة مخرجاً من الضیق وَمَنْ یَتَّقِ اللهَ یَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً* وَیَرْزُقْهُ مِنْ حَیْثُ لَا یَحْتَسِبُ (۲).

والتقوی لا تضیق علی الإنسان مساحة سعیه، ففی ما أحلَّ الله تعالی رحمة وبرکة ورزق، وفیما حرّمه الله تعالی شقاء وحرمان للإنسان.

فلابدّ أن یجری الإنسان فی سعیه فی هذه الدُّنیا طِبقاً لحدود الله تعالی فی الحلال والحرام، ولا یتجاوز حدّاً من حدود الله.

الإنسان بین السعی والکلم الطیّب

یقول تعالی: إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ (۳)، هذا هو کلّ ما یملکه الإنسان فی هذه الدُّنیا، ویأخذه معه إلی لقاء الله.

۱- السعی وهو العمل الصالح، حسب الآیة العاشرة من سورة فاطر.

۲- والکلم الطیّب، وهی النیّة والحالات القلبیّة الکامنة وراء العمل الصالح من الخشوع والتبتّل، والتقوی والحبّ والبغض والـذِّکر (القلبی)، والتوحید والإخلاص ...

۱- المائدة: ۲۷.

۲- الطلاق: ۲- ۳.

۳- فاطر: ۱۰.

ص: ۳۴

إنّ قیمة العمل بالکلم الطیّب.

ولولا الکلم الطیّب فلا قیمة للعمل.

إنّ الصلاة من دون نیّة القربة، ومن دون الخشوع وحضور القلب لا قیمة لها ... وقیمة الصلاة بهذا الکلم الطیّب.

والصوم من دون کفّ النفس عن مشتهیاتها والقُرب إلی الله بذلک لا قیمة له.

والذی یصعد إلی الله من الإنسان هو هذا الکلم الطیّب: وهو (الإخلاص، والتوحید، والإیمان، والتعبّد، والتقوی، والحبّ، والإیثار ... إلی آخره) إِلَیْهِ یَصْعَدُ الْکَلِمُ الطَّیِّبُ. أمّا العمل الصالح الذی یمارسه الإنسان، فلا یزید علی أن یکون عاملًا لصعود الکلم الطیّب إلی الله وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ یَرْفَعُهُ.

صحیح أنّ التقوی هی التی تصعد إلی الله، ولکن الذی یرفع التقوی إلی الله هو کفّ النفس عن شهواتها عندما یواجه الإنسان فتنة من مغریات الدُّنیا ... وهذا هو العمل الصالح، وصحیح أنّ التوحید هو الذی یصعد إلی الله، ولکن الذی یرفع التوحید إلی الله، هو عبادة الله تعالی وحده وطاعته ورفض الطاغوت والشیطان، وعدم الانقیاد والطاعة لهما ومکافحتهما، وهذا هو مقام العمل.

وصحیح أنّ الإیثار هو الذی یصعد إلی الله، ولکن الإنفاق هو الذی یرفع الإیثار إلی الله، وهو العمل.

إذن، الذی یصعد إلی الله هو الکلم الطیّب، وأمّا العمل الصالح فهو الذی یرفع الکلم الطیّب إلی الله.

ومن دون الکلم الطیّب لا قیمة للعمل.

ومن دون العمل لا یصعد الکلم الطیّب إلی الله.

والکلمات الطیّبة الأربع التی ذکرناها فی ضوابط السعی هی التی تصعد إلی الله، ولیس السعی، ولکنّها لا تصعد إلی الله إلّا بالسعی، ومن دون السعی، ومجرّدة عن السعی لا تصعد إلی الله. فالسعی شرطٌ لصعود الکلمات الطیّبة الأربع إلی الله.

کما أنّ قیمة (السعی) وکماله فی هذه الکلمات الأربع، ومن دونها لا قیمة للسعی.

إذن، بإمکاننا أن نختصر هذا العنوان بهاتین الکلمتین:

۱- لا قیمة للسعی من دون الکلمات الأربع المتقدِّمة.

۲- ولا تصعد هذه الکلمات إلی الله تعالی من دون عامل (السعی).

قیمة السعی بالکلمات الأربع

لقد تحدّثنا عن الکلمات الأربع التی تضبط سعی الإنسان فی الحیاة الدُّنیا، وهی: التوحید، والإخلاص، والذِّکر، والتقوی.

وهذه الکلمات هی أعظم الکلمات التی تضبط سعی الإنسان فی الحیاة الدُّنیا، ولکلّ منها دور فی سعی الإنسان.

أمّا (التوحید) فهو شرط الإیمان، ومن دون هذا الشرط یکون السعی نوعاً من أنواع الشرک الخفیّ أو الجلیّ ... وبالشرک تسقط قیمة السعی سقوطاً نهائیاً.

إِنَّ اللهَ لَا یَغْفِرُ أَنْ یُشْرَکَ بِهِ وَیَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِکَ لِمَنْ یَشَاءُ (۱).

وأمّا شرط (التقوی) فهو شرط فی سلامة العمل، ومن دون التقوی یکون العمل باطلًا وفاسداً، وهو دون شرط التوحید، لأنّ الله لا یغفر أن یُشرک به، ویغفر ما دون ذلک لمن یشاء.

وهو شرط قبول السعی؛ لأنّ الله تعالی إنّما یتقبّل من المتّقین إِنَّمَا یَتَقَبَّلُ اللهُ مِن الْمُتَّقِینَ (۲).

۱- النساء: ۴۸.

۲- المائدة: ۲۷.

ص: ۳۵

والسعی الذی یفقد التقوی یقع بین معصیة الله ورفض القبول من جانب الله.

أمّا المعصیة، فإنّ الله تعالی قد یغفر لصاحبها وَیَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِکَ لِمَنْ یَشَاءُ (۱). وأمّا رفض القبول، فإنّ الآیة السابعة والعشرین من سورة المائدة واضحة فی أنّ التقوی شرط القبول، ومن دونها لا یتقبّل الله الأعمال: إِنَّمَا یَتَقَبَّلُ اللهُ وإنّما هنا للحصر، والحصر بمعنی الإیجاب والسلب.

وأمّا شرط (الذِّکر) و (الإخلاص) فهما شرطان فی کمال السعی، ویبلغ السعی ذروته بالإخلاص والاستعانة بالله وذکر الله تعالی.

أعراض السعی للدُّنیا

وکما أنّ السعی من منازل رحمة الله، فإنّ للسعی للدُّنیا فی حیاة الناس أعراضاً علی درجة کبیرة من الخطورة؛ وذلک أنّ السعی للدُّنیا یتطلّب الاحتکاک والتماس مع (المال) ومع (الناس).

ولهذا التماس المزدوج مردودات سلبیّة ثلاثة فی حیاة الإنسان، یسقط عندها خلقٌ کثیر، وهذه المردودات الثلاثة، هی:

۱- فی علاقة الإنسان بالله.

۲- وفی علاقة الإنسان بالناس.

۳- فی علاقة الإنسان بالمال.

وإلیک توضیح موجز لهذه المردودات الثلاثة:

أ- أعراض السعی فی علاقة الإنسان بالله

التعامل المباشر مع (المال) و (المادّة)، من دون وجود ضمانات ومؤمّنات تؤمِّن وتضمن سلامة الإنسان فی علاقته بالله تعالی یُعرِّض علاقة الإنسان بالله تعالی لأضرار وأخطار کبیرة.

ذلک أنّ التعامل المباشر والمستمرّ مع (الأسباب) تضعّف علاقة الإنسان ب- (المسبِّب) الحقیقی، وهو الله تعالی، وتضعّف إحساس الإنسان ووعیه لسلطان الله تعالی وحوله وقوّته التی یؤول إلیها کلّ حول وقوّة وسلطان.

وهو أثرٌ طبیعیّ للتعامل مع الأسباب المادّیة فی السوق، إذا کان لا یقترن بذکر الله. وذکر الله تعالی هو المؤمّن والضمان الحقیقی للسلامة من هذا الخطر.

ویتدرّج الإنسان علی هذا الخطّ النازل فی علاقته بالله فتقوی ثقته بالأسباب المادّیة التی یتعامل معها فی الأسواق، أو فی ساحة السیاسة والإعلام، أو فی المعمل، أو فی المزرعة، وبقدر ما تتأکّد ثقته بها، تضعف ثقته بالله من حیث یشعُر أو لا یشعُر.

فتتحوّل ثقة الإنسان بالتدریج من المسبِّب إلی السبب. وهذا هو بعض حدود الشرک وبعض أنواع الشرک الخفیّ الذی یتسلّل إلی عقل الإنسان وقلبه، من دون أن یشعر أحیاناً.

وإذا تحوّلت ثقة الإنسان بالتدریج من المسبِّب إلی الأسباب تضعف إستعانته بالله وتوکّله علی الله.

سعی الإنسان بین إیاک نعبد وإیّاک نستعین

وهو أحد شطری علاقة الإنسان بالله تعالی؛ فإنّ علاقة الإنسان بالله لا تتجاوز (خطّ العبادة) و (خطّ الاستعانة).

۱- النساء: ۴۸.

ص: ۳۶

وخطّ العبادة هو الخطّ الصاعد إلى الله تعالى من ذِكر، وحمد، وشكر، وثناء، وصلاة، وصيام، وحجّ، وإنفاق، وتبتّل، وتضرُّع، وبكاء، وخشية، وشوق، وولاء، وطاعة ... وهذا هو الخطّ الصاعد فى علاقة الإنسان بالله وهو خطّ العبادة.

والخطّ الثانى خطّ الاستعانة، وهو الخطّ الذى يستنزل به العبد رحمة الله تعالى ورزقه إليه، مثل التوكّل على الله، والدُّعاء، والاستعانة، والاستعاذة، والتوبة، والاستغفار، وكل ما يستنزل رحمة الله تعالى على عبده من رزق، وموهبة، وشفاء، وعلم، وخير، وعفو، ومغفرة، ونصر.

وعلاقة الإنسان بالله تعالى كلّها تتلخّص فى هذين الخطّين: الخطّ الصاعد (العبادة)، والخطّ النازل (الاستعانة).

وإليها يشير قوله تعالى فى سورة الحمد: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (۱).

وهذان الخطّان؛ الصاعد والنازل، من التوحيد، الذى لا يجوز فيه الشرك، والدليل على ذلك تقديم المفعول (إيّاك) على الفعل (نعبد، نستعين)، وقد ذكر علماء العربيّة أنّ تقديم المفعول على الفعل يدلّ على الحصر.

وبناءً عليه فإنّ العبادة والاستعانة فى هذه الآية يدخلان كلاهما فى مقولة التوحيد. والناس يعرفون التوحيد فى العبادة فقط، دون الاستعانة.

ولكن التوحيد الذى يدعو إليه القرآن توحيد فى العبادة والاستعانة معاً، وهو أن لا يُشرك الإنسان بالله تعالى فى العبادة، كالشكر، والصلاة، والصيام، والذِّكر. كما لا يُشرك به تعالى فى الاستعانة مهما توثّقت العلاقة بينه وبين الأسباب المادّية؛ من مال، وإعلام، وقوّة، وعلم. فيجب عليه أن يَحْذَر كُلّ الحذر من أن تحجبه هذه الأسباب عن المسبِّب الحقيقى والمبدأ الأوّل لكلّ سبب فى هذا الكون وهو الله تعالى.

وأساس التوحيد فى الاستعانة: البصيرة، والمعرفة بالله من جانب، والثقة بالله تعالى من جانب آخر.

فإذا ضعُفت بصيرته بالله بسبب الاحتكاك الدائم والتعامل المستمرّ مع الأسباب المادّية فى الحياة الدُّنيا ضعفت استعانته بالله، واختلط عنده التوحيد بالشرك فى واحد من اثنين من خطّى العلاقة بالله.

وتلك خسارةٌ كبيرة فى حياة الإنسان لا يعوّضها شىء مهما استفاد الإنسان من الأسباب المادّية التى يتعامل معها.

وبناءً على هذا الوعى القرآنى للسعى، فإنّ كلّ سعى للإنسان فى الدُّنيا يجب أن يكون من مقولة التوحيد.

فإنّ سعى الإنسان الراشد فى الدُّنيا لا يخلو إمّا أن يكون من الخطّ الصاعد إلى الله، وهو العبادة فى (إيّاك نعبد)، أو يكون من الاستعانة بالله فى السعى للدُّنيا والآخرة، وهو (إيّاك نستعين)، وهو من الخطّ النازل فى علاقة الإنسان بالله.

وليس للإنسان سعىٌ راشد آخر غير هذا وذاك.

وفى كلّ منهما لابدّ أن يوحِّد العبد الله تعالى، فى العبادة وفى الاستعانة معاً؛ فلا يطلب فى العبادة إلّا وجه الله تعالى، وهو التوحيد فى العبادة (إيّاك نعبد)، ولايستعين فى سعيه فى الدُّنيا، للدُّنيا وللآخرة، بغير الله تعالى وهو (إيّاك نستعين)، إلّا أن يؤمن أنّ ذلك فى امتداد الاستعانة بالله، وليس نِدّاً لله، ولا ضدّاً له.

إذن، كلّ سعى للإنسان فى الدُّنيا يجب أن يكون توحيداً لله ... وليس يجوز للإنسان الشرك فى سعيه فى الدُّنيا، سواءً كان سعيه عبادةً لله، أم إستعانةً بالله فى سعيه للدُّنيا أو الآخرة.

فإذا سعى إلى الطبيب كان سعيه إليه فى امتداد استعانته بالله، وليس فى عرضه. وإذا سعى إلى السوق كان سعيه فى امتداد استعانته بالله للرزق، وليس فى عرضه، وليس السوق إلّا سبباً سخّره الله تعالى لعباده فى الرزق ... وهذا الوعى من مراتب وعى التوحيد، وقليلٌ من الناس يعى التوحيد بمثل هذا الوعى فى صلاته كلّما قال: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ.

ضمان الذِّكر

۱- الفاتحة: ۵.

ص: ۳۷

ولکی یسلم الإنسان فی تعامله مع الأسباب المادّیة من هذا الشرک الذی ینزلق إلیه الکثیرون من الناس ... جعل الله تعالی الذِّکر أماناً للناس من منزلق الشِّرک فی الحیاة الدُّنیا.

فإنّ الذِّکر یحصِّن الإنسان من الشرک، فی تعامله وتماسّه الدائم مع الأسباب المادّیة، ویبّهه بصورة دائمة بأن (لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلیّ العظیم)، وأنّ کلّ حول وقوّة فی هذا الکون من عند الله تعالی حصراً، ومسخَّر لأمر الله، والله تعالی یضع هذه الأسباب من حیاة الناس أینما یشاء وکیفما یرید، ویرفعه ویمنعه حیث لا یحبّ ولا یرید، یَهبُ مَن یشاء ما یشاء، ویمنعُ ما یشاء عمّن یشاء، یوفّق مَن یشاء لما یشاء، ویحرم مَن یشاء عمّا یشاء، بیده الأمر والسلطان والحول والقوّة کلّه فی هذا الکون.

فإذا أیقن الإنسان بهذه الحقائق الکونیّة کلّها، وآمن بأنّ کلّ حول وقوّة فی هذا الکون لا یکون إلّا بالله، واستحضر سلطان الله تعالی وحوله وقوّته، فلا تحجبه هذه الأسباب عن خالقها ومسبّبها.

وإذا امتلأ قلب الإنسان وعقله بجلال الله، وجماله، وسلطانه، وحوله، وقوّته، فلن تحجبه عندئذ الأسباب المادّیة عن الله، ولن تؤدّی هذه الأسباب، مهما قویت وتوثّقت علاقته بها، إلی ضعف فی ثقته بالله تعالی، وتوکّله علیه عزَّ وجلّ ..

والقرآن لا ینهانا عن السعی والعمل فی السوق والمزرعة والسیاسة والحیاة الاجتماعیّة، وحقول المعرفة المختلفة، ولکن علی أن یقترن ذلک کلّه بذِکر الله تعالی؛ والذِّکر یحمی الإنسان ویحفظه ویحصّنه من تسلّل الشرک إلی نفسه من حیث یعلم أو لا یعلم.

ضمان التقوی

والخطر الآخر الذی یواجه الإنسان فی علاقته بالله عندما یتماسّ الإنسان ویتعامل مع الأسباب المادّیة هو خطر الانزلاق إلی الحرام، وهو خطر آخر غیر خطر الانزلاق إلی الشرک.

فإن سعی الإنسان فی الدُّنیا یقع بین فکّی الهدی والفتنة، بین سلطان الهوی والشهوات والغرائز من جانب (من داخل النفس)، وبین إغراءات المال والسلطان والجنس الآخر من جانب آخر (من خارج النفس)، وهما ما سمیناه (الهوی والفتنة).

والضلع الثالث لهما (الشیطان) الذی یقوم بدور السمسار بینهما فی تزیین مغریات الحیاة الدُّنیا للأهواء والشهوات، وفی إثارة الشهوات والأهواء من جانب آخر.

وکثیراً ما یقع الإنسان فریسة سهلة لهذا المثلّث الرهیب.

من هذا المنطلق ینزلق الإنسان إلی معصیة الله تعالی واقتراف الذنوب. وهذا الانزلاق انزلاق إلی مخالفة الله تعالی ومعصیته، وهو غیر الانزلاق إلی الشرک، أعاذنا الله تعالی منهما.

والضمان الذی یؤمّن سلامة الإنسان من هذا الانزلاق هو (التقوی) ... فإنّ التقوی عاصمٌ یعصِم الإنسان من هذه المنزلقات.

یقول أمیر المؤمنین (ع) کما فی الروایة الشریفة الواردة فی نهج البلاغة: «اعلموا عباد الله أنّ التقوی دار حصن عزیز، والفجور دار حصن ذلیل» (۱).

وکما أنّ الحصون تُحصِّن الناس والبلاد من السقوط فی ید العدوّ، کذلک (التقوی) تُحصِّن الإنسان من السقوط فی شرک الشیطان ومعصیة الله.

وبعکس ذلک الفجور، فإنّها تسهِّل للشیطان مهمّة تسقیط الإنسان وتحریفه وجرّه إلی معصیة الله.

۱- نهج البلاغة، الخطبة: ۱۵۷.

ص: ۳۸

فإذا حصّن الإنسان نفسه بالتقوی ومخافة الله فإنّ التقوی تعصمه وتحفظه من الانزلاق إلی معصیة الله تعالی ومخالفته.

الذِّکر والتقوی

إنّ (الذِّکر) و (التقوی) ضمانان أمینان یحفظان الإنسان فی سعیه فی الحیاة الدُّنیا من مزالق (الشرک) و (الذنوب).

إنّ السعی فی الدُّنیا ضرورة من الضرورات لا یمکن أن یستغنی عنه الإنسان، ولا یصحّ أن یتهرّب منه، إنّه سُنّة تکوینیّة، وسنّة تشریعیّة لله تعالی فی حیاة الإنسان. ولکن هذه السنّة الکونیّة الکبیرة تُعرِّض الإنسان لنوعین من المزالق الخطرة؛ وهما الانزلاق إلی (الشرک) والانزلاق إلی (الذنوب والمعاصی).

وإنّما یتکامل الإنسان فی هذه الدُّنیا بالسعی؛ لأنّ السعی یعرّضه لهذه المزالق الُمخیفة.

وقد جعل الله تعالی للإنسان فی هذه المزالق الصعبة ضمانین إثنین، یحفظان سلامة الإنس، وأمنه من الشرک والذنوب، وهذان الضمانان هما (الذِّکر) و (التقوی).

ب- أعراض السعی فی علاقة الإنسان بالدُّنیا

کلّما یزداد حظّ الإنسان من الدُّنیا یزداد حرصه بها، والدُّنیا کماء البحر کلّما شرب منه الإنسان ازداد ظمؤه، وهذه خصلة معروفة فی الدُّنیا یعرفها الناس.

رُوی عن رسول الله (ص) أنّه قال:

«لو کان لابن آدم وادیان من ذهب لابتغی ثالثاً، ولا یملأ جوف ابن آدم إلّا التراب» (۱).

وعن الإمام الباقر (ع): «مَثَل الحریص علی الدُّنیا کمَثَل دود القزّ، کلّما ازدادت من القزّ لفّاً کان أبعد لها من الخروج حتّی تموت» (۲).

وشکی رجلٌ إلی أبی عبدالله الصادق (ع) أنّه یطلب فیُصیب، وتنازعه نفسه إلی ما هو أکبر، فقال: علّمنی شیئاً أنتفعُ به.

فقال (ع): «إن کان ما یکفیک یُغنیک فأدنی ما فیها یُغنیک، وإن کان ما یکفیک لا یُغنیک فکلّ ما فیها لا یُغنیک» (۳).

ومن خصائص الحرص أن یُطیل أمل الإنسان فی الدُّنیا، وطول الأمل یُنسی الإنسان الموت، ونسیان الموت مصدر کثیر من شقاء الإنسان.

ومن خصائص الحرص أنّ الدُّنیا تستغرق هموم صاحبه وشخصیّته، فلا یکون للحریص همٌّ إلّا الدُّنیا، وتکون الدُّنیا کلّ همّ الحریص وامنیته، فیفقد بذلک حالة التوازن فی الدُّنیا والآخرة.

واختلال التوازن بین الدُّنیا والآخرة فی حیاة الإنسان مصدر عذاب وشقاء کثیر للإنسان.

وعلاج هذه الحالة فی علاقة الإنسان بالدُّنیا تقصیر الأمل بالدُّنیا، وذِکر الموت، والتجمّل فی طلب الرزق.

ج- أعراض السعی فی علاقة الإنسان بالآخرین

السعی إلی الرزق یتمّ- عادةً- فی أجواء من الاحتکاک والتماسّ بالآخرین، والمنافسة معهم علی مصادر المعیشة.

۱- مجموعة ورام: ۱۶۳، والجامع الصغیر للسیوطی.

۲- بحار الأنوار ۷۳: ۲۳.

۳- اصول الکافی ۲: ۱۳۵.

ص: ۳۹

وهـذا الاحتكاك والتماسّ يؤدّى إلى مجموعة من الأعراض المرضـيّة فى أخلاق الناس وعلاقاتهم؛ مثل الحسد، وسوء الظنّ، والبُخل، والشحّ، والاستئثار، والاختلاف، والعدوان، والمكر، والكيد بالآخرين، وما يتّصل بذلك من سوء الأخلاق فى العلاقات الاجتماعيّة.

إنّ المال يُفسد أخلاق الناس، ويُفرِّق شملهم، ويُفسد علاقاتهم، ويُثير بينهم الحسد والبغضاء والعدوان.

وعلاجه الزُّهـد فى الدُّنيا، ومكافحة حال التعلّق بالدُّنيا، حتّى يكون المال تحت سـلطان صاحبه، ولا يكون صاحب المال تحت سـلطان المال، عندئذ تنتفى الآثار السلبيّة التى يتركها (المال) و (الموقع) فى علاقات الناس الاجتماعيّة.

سعى الإنسان بين (السوق) و (المسجد)

إنّ ساحة الحياة تنشطر إلى شطرين:

شطر فى علاقة الناس بالله فى صلاتهم وصيامهم وحجّهم وذِكرهم لله، وفى التقوى والطاعة، والولاية لله. وشطرٌ فى حركتهم فى السوق، والمزرعة، والسـياسة، والإعلام، وحقول المعرفة، والعلاقات الاجتماعيّة، والحياة الزوجيّة، وما يؤمِّن معيشة الإنسان، وعلاقاته الاجتماعيّة والعائليّة.

ونرمز إلى ساحة عمل الناس فى الشـطر الأوّل ب- (المسـجد)، ونرمز إلى ساحة عمل الناس فى الشـطر الثانى من الحياة ب- (السوق)، فإنّ المسـجد أكثر المواقع التى يجمع ويضمّ اهتمامات الإنسان وأعماله وكـدحه من الشـطر الأوّل. والسوق أبرز المواقع التى تسـتقطب اهتمامات الإنسان وسعيه من الشطر الثانى.

والمقارنة بين هاتين البؤرتين فى حياة الإنسان تؤدّى إلى نتائج غريبة:

أ- إنّ المسجد يُصلِح نفوس الناس ويهديهم، والسوق يُفسد نفوس الناس وأخلاقهم.

ب- المسجد يُقرِّب الإنسان إلى الله، والسوق يُبعد الإنسان عن الله.

ج- المسـجد يُلطِّف العلاقـات الاجتماعيّة فيما بين الناس على أساس المحبّة والتعاون وحسن الظنّ والنصـيحة. أمّا فى السوق فيتعامل الناس مع بعضهم بعضاً على أساس الحسد، وسوء الظنّ، والاستئثار، والاستغلال، والبغضاء، والمكر ...

د- المسجد يجمع شمل الناس ويوحّدهم، والسوق يفرِّقهم ويشتّتهم.

وهكذا نجد أنّ هاتين البؤرتين اللّتين تجمعان وتستقطبان اهتمامات الناس وسعيهم وأعمالهم وجهدهم تقعان فى قطبين مختلفين.

وليس مـا ذكرنـاه من المقارنـة بين خصـائص كلّ من (المسـجد) و (السوق) قاعـدة رياضـيّة لا تختلف ولا تتخلّف، ولكنّها هى الطابع الغالب والصيغة الغالبة لكلّ من المسجد والسوق.

وقـد ذكرنـا إنّنا نرمز بالسوق إلى المواقع التى تسـتقطب اهتمامات الإنسان للحياة الـدُّنيا وسـعيه فيها، ونرمز بالمسـجد إلى المواقع التى تستقطب اهتمامات الإنسان وكدحه وسعيه إلى الله تعالى، فلا نُعيد.

ولا غنى للإنسان عن السوق، كما لا غنى له عن المسـجد، بل لا يتمكّن الإنسان من أن يرقى من المسجد إلى الله، إلّا أن يكون السوق الباب الذى يدخل منه الإنسان إلى المسجد، فمن السوق يرقى الإنسان إلى المسجد، ومن المسجد يرقى إلى الله ... وهذا هو سرّ اهتمام الإسـلام بعمارة الحياة الـدُّنيا والاهتمام بها، والتصـريح بأنّ الـدُّنيا مزرعـة الآخرة، وأنّ الدُّنيا متجر أحبّاء الله، والأمر بالعمل والسـعى فى الدُّنيا، والنهى عن البطالة والرهبانيّة، والتحذير من الفراغ والكسل.

تهذيب السعى

ص: ۴۰

إذن، لابدّ من الدخول فی السوق، ولا غنی للإنسان عن السعی رغم کلّ السلبیّات والأعراض المترتّبة علی السعی فی الأسواق.

وإلی جانب ذلک لابدّ من عمل واسع لتوجیه السعی، وتهذیبه فی حیاة الناس، ویتلخّص برنامج الإسلام فی تهذیب سعی الإنسان فی السوق فی نقطتین:

النقطة الاولی: الاستعانة بالله والتوکّل علیه فی السعی، والإیمان بأنّ الله تعالی مبدأ کلّ سبب، ومصدر کلّ حول وقوّة، ولا حول ولا قوّة فی هذا الکون بغیر الله، ومن دون إذن الله لا یحقّق الإنسان بسعیه أمراً، ولا یستغنی الإنسان بسعیه، وجهده، وماله، وسلطانه، مهما بلغ عن الاستعانة بالله تعالی، ولا یُغنیه أحدٌ عن الله، ولا یکفیه شیء من غیر الله، ولا تصحّ الاستعانة بغیر الله إلّا بإذن الله، فلا یستقلّ شیء فی الکون فی الفعل والتأثیر عن الله، فهو سبحانه مبدأ کلّ شیء والمُهیمن علی کلّ شیء، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله.

وبهذا البیان یدخل السعی فی السوق فی دائرة الاستعانة بالله وتحت مقولة التوحید، ویکون- کما ذکرنا من قبل- أحد شطری التوحید، فإذا آمن الإنسان بهذه الحقیقة الکونیّة الکُبری، وآتاه الله مثل هذا الوعی والبصیرة، لا یستقلّ فی سعیه عن ذکر الله، والدّعاء، والتوکّل، ویقترن سعیه فی السوق بذکر الله والاستعانة به.

وهذا الارتباط بالله فی السعی یعدِّل السعی ویلطّفه، ویُزیل عنه الأعراض السلبیّة التی تجتمع حوله فی علاقته بالله وبالناس وبالدُّنیا.

فی هذه الصورة یخرج السعی عن حالة التقاطع مع الذِّکر والعبادة، ویقع فی امتداده.

النقطة الثانیة: فی تعدیل سعی الإنسان فی السوق؛ هی التقوی والالتزام بحدود الله، وحلاله وحرامه. وهذا الالتزام بالحدود الإلهیّة یعدِّل سعی الإنسان فی السوق وساحات المعیشة بشکل کامل. والتقوی هی الالتزام بطاعة الله تعالی فی الحلال والحرام. وبالتقوی یقع السعی فی حوزة الشریعة ولا یخرج عن حدود الله تعالی فی الحلال والحرام.

وعلی هذا النهج یدخل (السعی) فی امتداد (العبادة والذِّکر) أوّلًا، ویقع تحت هیمنة الشریعة وحدودها ثانیاً.

وبهذه الصورة یتمّ تأمین وضمان سعی الإنسان فی الأسواق، فیواصل الإنسان عمله سعیاً للرزق فی الدُّنیا بصورة أمینة، دون أن تتعرّض علاقته بالله، وبالناس، وبالدُّنیا، للخطر والأذی.

وقد ذکرنا من قبل أنّ حیاة الإنسان شطران؛ شطرٌ یختصّ بسعی الإنسان للآخرة، وشطرٌ آخر یختصّ بسعی الإنسان للحیاة الدُّنیا، وأکثر مصائب الإنسان ومحنه نابع من الشطر الثانی، ولیس للإنسان غنیً عن الشطر الثانی؛ فهو سُلّم الإنسان الذی یرقی منه إلی الشطر الأوّل، ولابدّ له من السعی کما لابدّ له من الکدح إلی الله بالعبادة.

بقاء السعی وضیاعه

سعی الإنسان یبقی ویضیع، وأقصد ببقاء السعی: أنّه ینتفع منه صاحبه بعد موته ولا یندثر ولا ینفد، ویبقی غضّاً طریّاً.

وهذا هو العمل الذی یقصد به صاحبه وجه الله، ویلتزم فیه بحدود الله تعالی، فلا یتجاوز فیه حدّاً من حدود الله، وهذا هو الإخلاص والتقوی.

ص: ۴۱

فإذا صحَّ هذا وذاک فی العمل، یبقی العمل ویخلد مع صاحبه عند الله، ویُکسِب صاحبه نوراً یوم القیامة یسعی بین یدیه، وإذا سألهم المنافقون یومئذ أن یسمحوا لهم أن یقتبسوا من نورهم لیخرجوا به من الظلمات إلی النور، قالوا لهم: إرجعوا وراءکم إلی الدُّنیا فالتمسوا نوراً، فإنّ هذا النور هو النور الذی اقتبسوه من الإیمان والعمل الصالح فی الدُّنیا.

یَوْمَ تَرَی الْمُؤْمِنِینَ وَالْمُؤْمِنَاتِ یَسْعَی نُورُهُمْ بَیْنَ أَیْدِیهِمْ وَبِأَیْمَانِهِمْ بُشْرَاکُم الْیَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِینَ فِیهَا ذَلِکَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِیمُ* یَوْمَ یَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِینَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِکُمْ قِیلَ ارْجِعُوا وَرَاءَکُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً (۱).

إنّ هذا الجواب الذی یقابلون به المنافقین، وإن کان علی نحو السخریة، إلّا أنّه یحمل الحقیقة کلّها، فإنّ المنافقین خسروا هذا النور فی الدنیا یوم خسروا الإیمان والعمل الصالح فیها.

وهذا هو السعی الذی یبقی للإنسان، وینفعه ویستنیر به یوم القیامة، وقد یکون هذا السعی عملًا صغیراً لا قیمة له فی حساب الآدمیّین فی الدُّنیا، إلّا أنّه ینقلب یوم القیامة إلی نور ونعیم ورضوان، یستنیر به صاحبه وینعُم به یوم القیامة، ویکسب به رضوان الله؛ وذلک إذا أخلص فیه لله والتزم بحدوده فی الحلال والحرام.

وهذا هو السعی المذکور الذی یشکره الله تعالی لعباده ویحفظه لهم وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَی لَهَا سَعْیَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِکَ کَانَ سَعْیُهُمْ مَشْکُوراً (۲).

هذا هو السعی الباقی النافع المشکور.

ومن السعی السعی الباطل الزائل الضائع یوم القیامة، یأمل فیه صاحبه فی یوم فقره وفاقته یومئذ أن ینفعه، فیضلّ عنه ویضیع ولا ینتفع به قُلْ هَلْ نُنَبِّئُکُمْ بِالْأَخْسَرِینَ أَعْمَالًا* الَّذِینَ ضَلَّ سَعْیُهُمْ فِی الْحَیَاةِ الدُّنْیَا وَهُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ یُحْسِنُونَ صُنْعاً (۳).

وهذا هو السعی الذی لم یرد به صاحبه وجه الله، ولم یلتزم فیه بتقوی الله، فلا ینتفع منه صاحبه، ویضلّ عنه، أی یبطل، ویفقد قیمته.

إنّ أعمال الإنسان لا تفنی، وهذه واحدة من مسلّمات القرآن، ولکن الإنسان قد یضع ثقته یوم القیامة فی عمل، لم یقصد به وجه الله، ولم یلتزم فیه بتقوی الله فی الدنیا، فیتصوّر یومئذ أنّه ینفعه، فیضلّ عنه ویضیع ویبطل، فلا تبقی له قیمة، ویکون مثله مثل السراب یحسبه الظمآن ماءً فإذا بلغه لم یجده شیئاً وَالَّذِینَ کَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ کَسَرَابٍ بِقِیعَةٍ یَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّی إِذَا جَاءَهُ لَمْ یَجِدْهُ شَیْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِیعُ الْحِسَابِ (۴).

إنّها صورة مُخیفة مُرعبة لیوم القیامة، حیث یقبِل الإنسان علی أعماله التی کان یتصوّر أنّها تنفعه، فإذا هی کالسراب الذی ینقشع قد کان مرصوداً مُراقَباً من قِبل الله، وأنّ الله تعالی کان مطّلعاً علی سرّه وأعماله فی الدُّنیا، فیلغیها یومئذ ویُبطلها، ویحاسبه علی نیّته وعمله.

وهذا هو السعی الضائع فی حیاة الإنسان.

۱- الحدید: ۱۲- ۱۳.

۲- الإسراء: ۱۹.

۳- الکهف: ۱۰۳- ۱۰۴.

۴- النور: ۳۹.

ص: ۴۲

ص: ۴۳

ص: ۴۴

ائمهٔ اهل البیت (علیهم السلام) حفاظ السیرهٔ النبویهٔ و سننه و أحادیثه

یظهر من سبر التاریخ وفلتات مراقبیه أنّ المنع من تدوین الحدیث والروایات لم یظهر بعد وفاهٔ النبیّ (ص)، بل له جذور فی أیّام حیاته (ص) وأنّ هناک بعض الناس کانوا بصدد الحظر علی الحدیث أن ینشر والمنع علی الروایات أن تُذاع وتُنقل.

وذلک خلافاً لما کان رسول الله (ص) یریده من نشر أقواله وإفشاء آثاره خوفاً لها من الاندراس وحفظاً علیها من الاندثار حتّی أنّه ورد عنه فی الحدیث المشهور: «مَنْ حفظ علی امّتی أربعین حدیثاً بعثه الله یوم القیامهٔ فقیهاً».

فیا تری، حفظ الحدیث إذا کان مطلوباً فالمنع من نشره کیف یتلائم معه؟ فهل الحفظ المطلوب هو الحفظ عن ظهر القلب لا الحفظ بالکتابهٔ؟!

أولیس ثبت الحدیث وکتابته من وجوه حفظ الحدیث ومصادیقه؟!

فما الذی أحلّ روایهٔ الحدیث وحرّم کتابته؟!

ثمّ لماذا یحثّ النبیّ (ص) الامّهٔ علی نشر حدیثه وهناک اناس یمنعون من ذلک؟! وما الذی یدعوهم إلی مخالفهٔ رسول الله (ص)؟! فهل أنّ ذلک اجتهاد علی خلاف نصّه (ص)؟!

أو لم یکن رسول الله (ص) أدری من صحبه بما ینبغی العمل علیه؟!

أفهل کان رسول الله (ص) لا یدرک من الصلاح ما أدرکه من منع من نشر الحدیث؟! هذا ورسول الله (ص) لا ینطق عن الهوی بل ما یقوله إنّما هو وحیٌ یُوحی علّمه شدید القوی. وهو یعلم أنّه لو تقوّل علی الله بعض الأقاویل لأخذ الله منه بالیمین ثمّ لقطع منْهُ الْوَتِینَ وَمَا أَحَد عَنْهُ حَاجِزِینَ.

ثمّ المعروف أنّ منع تدوین الحدیث أمر حادث بعد وفاهٔ النبیّ (ص) ولکن کما ذکرنا یظهر من بعض النصوص أنّ الأمر أسبق والقضیّهٔ أقدم؛ فقد روی فی مسند أحمد بسنده عن عبدالله بن عمر قال: کنت أکتب کلّ شیء أسمعه من رسول الله (ص) ارید حفظه فنهتنی قریش فقالوا: إنّک تکتب کلّ شیء تسمعه من رسول الله (ص) و رسول الله (ص) بشرٌ یتکلّم فی الغضب والرِّضا، فأمسکت عن الکتاب، فذکرت ذلک لرسول الله (ص) فقال: اکتب فوالذی نفسی بیده ما خرج منّی إلّا حقّ ... (۱)

ومثله روایهٔ الدارمی وأبی داود إلّا أنّ فیها:

وذکرت ذلک لرسول الله (ص) فأومأ بإصبعه إلی فِیه وقال:

اکتب فوالذی نفسی بیده ما خرج منه إلّا حقّ (۲).

وممّا یتناغم مع حدیث منع تدوین الحدیث هو قولهٔ القائل: حسبنا کتاب الله، دَع ما ضمّ إلیه القائل من أنّ رسول الله (ص) یهجر الذی هو تصریحٌ بهجر الکتاب وترک العمل به حیث یقول: وَمَا یَنْطِقُ عَنِ الْهَوَی* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْیٌ یُوحَی (۳)، وهل یبقی للرسول اعتبار فیما جاء به لو جاز علیه الهجر فی القول والشطط فی الکلام؟!

والعجب کلّ العجب من الاعتذار عن قائل الهجوهٔ المتقدِّمهٔ وصاحب الزلّهٔ الآنفهٔ أو اعتذاره نفسه بأنّه فعل ما فعل لحفظ الإسلام من الضیاع وصون الدِّین من الانمحاء، وصاحب الرسالهٔ أولی وأدری بحفظ ما جاء به، والنبیّ (ص) أعلم وأخبر بذاک وهو ممدودٌ بالوحی ومؤیَّدٌ بالسماء ومُسدّدٌ بالنبوّهٔ، والله یرعاه والملائکهٔ خَدَمَتهُ.

ویظهر من ملاحظهٔ الآثار ودراسهٔ الأخبار أنّ القولهٔ المتقدّمهٔ صدرت أو کان صدورها مترقّباً للنبیّ (ص) من بعض الامّهٔ حسبما یستفاد من بعض النصوص، وأنّه (ص) ردَّ علیها فی حال صحّته وسلامته کی لا یبقی عذر لمعتذر ولا ذریعهٔ لمتشبّث ولا یکون هناک حجّهٔ لمن یؤمن بالله ورسوله والیوم الآخر.

۱- مسند أحمد ۱۶۲: ۲.

۲- سنن الدارمى ۱۲۵: ۱؛ سنن أبى داود ۳۱۸: ۳.

۳- سورة النجم: ۳ و ۴.

ص: ۴۵

فقـد روی ابن الأثیر عن الترمـذی وأبی داود روایـهٔ المقـدام بن معد یکرب قال: قال رسول الله (ص): «ألا هل من رجل یبلغه الحدیث عنّی هو متّکئ علی أریکته، فیقول: بیننا وبینکم کتاب الله فما وجدنا فیه حلالًا اسـتحللناه وما وجدنا فیه حراماً حرّمناه وإنّما حرّم رسول الله (ص) کما حرّم الله».

وفی روایـهٔ أبی داود، قـال: قـال رسول‌الله (ص): «ألاـ إنّی اوتیت هـذا الکتـاب ومثله معه ألاـ یوشـک رجلٌ شـبعان علی أریکته یقول: علیکم بهذا القرآن فما وجدتم فیه من حلال فأحلّوه وما وجدتم فیه من حرام فحرّموه، ألا لا یحلّ لکم الحمار الأهلی ولا کلّ ذی ناب من السباع ...».

وروی عن أبی داود والترمـذی من أبی رافع: أنّ رسول الله (ص) قـال: «لاـ أعرفنّ الرجـل منکم یـأتیه الأـمر من أمری إمّـا أمرت به أو نهیت عنه وهو متّکئ علی أریکته فیقول: ما نـدری ما هـذا، عندنا کتاب الله ولیس هذا فیه، وما لرسول الله أن یقول ما یخالف القرآن؛ وبالقرآن هداه الله» (۱).

وفی لفظ أخصر: إنّ رسول الله (ص) قال: «لا ألفینّ أحدکم متّکئاً علی أریکته یأتیه أمری ممّا أمرت به أو نهیت عنه، فیقول: لا أدری، ما وجدنا فی کتاب الله اتّبعناه» (۲).

وأیّـاً کـان السـبب لمنع تـدوین الحـدیث فقـد أوجب ذلـک ضـیاع أحـادیث النبیّ (ص) عن الناس إلّا ما بقی علی الخواطر وما لعبت بضـبطه أیـدی النسـیان والاضـطراب فانتهی إلی الناس من الحدیث ما حوی الاختلاف وبقی لهم ما تضـمّن الاضـطراب واشـتمل علی السـهو، هـذا کلّه بالغضّ عمّا وضـعته بعض الأیادی وقالته بعض الکَذَبَهٔ علی النبیّ (ص) عمداً ودسّه بعض المفترین ضـمن الکثیر من النصوص قصداً، وناهیک فی إثبات ذلک مؤلّفات الفریقین فی فرز الأحادیث الموضوعهٔ وتشخیص النصوص المعمولهٔ.

وقد قیّض الله لحفظ الشریعهٔ منذ حیاهٔ رسول الله (ص) أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام) فعملوا فی مجال حفظ الحدیث وصیانته ونشره، ولم تتمکّن السـلطات الحاکمـهٔ من حجمهم عن ذاک ولا منعهم عن نشاطهم فی هذا المجال، فلیس فی المسـلمین کتاب فی الحدیث أقدم من کتابهم فی مجال الفقه والأحکام ولا موجود عند الناس مضـمار محفوظ أسـبق من مضامیرهم (علیهم السـلام)، فقد صـرّحت النصوص المتواترهٔ عن أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السـلام) بأنّ أمیر المؤمنین علیاً کتب بیده عن إملاء رسول الله (ص) ما یکفی الناس فی مجـال الأحکـام وسـدّ حـاجتهم إلی یوم القیامـهٔ، فلم یبق عنـد المسـلم فی الاـنحراف عن فقه أهـل البیت لو کان معـذوراً عن التسـلیم لخلافتهم وإمامتهم فی مجال تولّی الحکم وإدارهٔ شؤون الناس؛ فإنّ أئمّـهٔ أهل البیت ثقات باعتراف الامّهٔ قاطبهً، فلا مجال للنکول عن التسـلیم لروایاتهم بعد کونها مرویّهٔ عن النبیّ (ص) بسـند متّصل ولا حجّهٔ لأحد فی الغضّ عن أقوالهم (علیهم السـلام) بعد تصـریحهم بأنّها أقوال النبیّ (ص) انتهت إلیهم عبر الوسائط الثقات ممّن تعتبر الامهٔ بأسرها بعدلهم وورعهم وصدقهم ووثاقتهم.

ولو أردت أن أستقصـی ما روی فی مجال روایات أهل البیت وسابقتها لطال بی الکلام ولو رمتُ أن أجمع ما یتعلّق بشأن حدیث أئمّهٔ أهل البیت ووصـفهم لضاق بی المقال، إلّا أنی أُشـیر إلی بعض ما ورد فی ذلک وأحکی نزراً ممّا روی فی هـذا المجال، وما ذاک إلّا کقبـهٔ العجلان لضـیق المجال وقصور الوقت عن الإحاطـهٔ، ولکن المیسور لا یترک بالمعسور فإنّ ما لا یُـدرک کلّه لا ینبغی أن یُترک کلّه.

ففی معتبرهٔ سـماعهٔ بن مهران عن أبی الحسن موسی (ع) فی حدیث قال: قلت: أصلحک الله أتی رسول الله (ص) الناس بما یکتفون به فی عهده؟ قال: «نعم ما یحتاجون إلیه إلی یوم القیامهٔ» قلت: فضاع من ذلک شیء؟ قال: «لا هو عند أهله» (۳).

فأهل رسول الله (ص) حفظوا تراثه من الضیاع وصانوا حدیثه من الاندراس ومنعوا روایاته (ص) من النسیان.

۱- جامع الاصول ۲۸۱: ۱، حديث ۶۸.

۲- المصدر نفسه، الحديث: ۶۹.

۳- الفصول المهمّة ۴۸: ۱، الباب ۷، فی اصول الفقه، الحديث: ۱.

ص: ۴۶

وفی معتبرهٔ أبی بشیر المرویّهٔ فی الکافی عن أبی عبدالله (ع) فی حدیث قال: «علّم رسول الله (ص) علیّاً ألف باب یفتح کلّ باب منها ألف باب» إلی أن قال: «فإنّ عندنا الجامعهٔ صحیفهٔ طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله (ص) وإملائه من فلق فیه وخطّ علیّ (ع) بیمینه فیها کلّ حلال وحرام وکلّ شیء یحتاج إلیه الناس حتّی الأرش فی الخدش، وضرب بیده إلیَّ فقال لی: «تأذن لی یا أبا محمّد؟» قال: قلت: جعلت فداک إنّما أنا لک فاصنع ما شئت، قال: فغمز لی بیده، ثمّ قال: «حتّی أرش هذا» کأنّه مغضب» (۱).

وفی معتبرهٔ أبان عن أبی شیبهٔ قال: سمعت أبا عبدالله (ع) یقول: «ضلّ علم ابن شبرمهٔ عند الجامعهٔ إملاء رسول الله (ص) وخطّ علیّ بیده؛ إنّ الجامعه لا تدع لأحد کلاماً، فیها الحلال والحرام» (۲).

نعم إنّ الجامعهٔ لا تدع لأحد کلاماً سواء ابن شبرمهٔ أم غیره، وذلک لأنّ حکم الناس عادهً یکون عن خرص وتخمین أو قیاس واستحسان وما شاکل ذلک، ولئن قُدّر لمثل ذلک الاعتبار فإنّما هو حیث فقد النصّ ولم توجد روایهٔ ولا کان نقل ثقهٔ لحدیث وخبر عن صادق، وهذا بإجماع الامّهٔ لا یختلف فیه إثنان، وحیث إنّ الجامعهٔ کتاب علیّ وإملاء رسول الله (ص) متضمّن لحکم کلّ قضیّهٔ وحاو لما یحتاج إلیه الناس فی وظیفتهم فلا یبقی موضوع للعمل بالقیاس ولا هناک مورد للاکتفاء بالظنون الارتجالیّهٔ ولا محلّ للتعویل علی الحدس والتخمین.

وفی روایهٔ أبی الجارود عن أبی جعفر (ع) فی حدیث: «إنّ الحسین (ع) دفع إلی ابنته فاطمهٔ کتاباً ثمّ دفعته إلی علیّ بن الحسین (علیهما السلام)، قال: ثمّ صار والله ذلک الکتاب إلینا یا زیاد. قال: قلت: فما فی ذلک الکتاب؟ قال: فیه والله ما یحتاج إلیه ولد آدم منذ خلق الله آدم إلی أن تفنی الدُّنیا، والله إنّ فیه الحدود حتّی أنّ فیه أرش الخدشهٔ» (۳).

وفی معتبرهٔ أبی عبیدهٔ عن أبی عبدالله (ع) فی حدیث: إنّه سُئِلَ عن الجامعهٔ، فقال: «تلک صحیفهٌ طولها سبعون ذراعاً فی عرض الأدیم مثل فخذ الفالج، فیما ما یحتاج إلیه الناس ولیس من قضیّهٔ إلّا وهی فیها حتّی أرش الخدش» (۴).

إلی غیر ذلک من النصوص التی فاقت حدّ التواتر وجازت حدّ الیقین، وقد أوردنا شطراً منها فی کتاب المبسوط عند التعرّض للمباحث التمهیدیّهٔ فی مجال استنباط الأحکام الفقهیّهٔ للمسائل المعاصرهٔ، کما أورد شطراً کبیراً منها الشیخ الحرّ العاملی فی کتاب الوسائل وفی کتاب الفصول المهمّهٔ فی اصول الأئمّهٔ.

فراجع صحاح وروایات الصیرفی، وسلیمان بن خالد، وأبی بصیر، ومحمد بن سلیم، وعبدالله بن سنان، وابن فضّال، وسلیم بن قیس، ومحمّد بن حکیم، وغیرها من النصوص المرویّهٔ فیما أزمعنا إلیه وفی غیره من الکتب.

ولا تستغرب اشتمال کتاب أو صحیفهٔ طولها سبعون ذراعاً علی عامّهٔ أحکام الفقه، فإنّ کتب الحدیث إنّما طالت لاشتمال کلّ روایهٔ منها علی سند غیر ما للآخر، ولو حذفت أسانیدها حیث کان لها سند واحد لتقلّصت إلی حدٍّ کبیر، کما أنّ تلک الکتب تشتمل علی تکرار وتأکید وتطویلات لا ضرورهٔ فیها، ولو حذفت لاختلف مقدار الکتاب وطوله جدّاً، ولو نظرت إلی متون الفقه فی کتب الفریقین شیعهً وسنّهً لصدّقت ما أقول ووافقتنی فیما ذکرت، مع اشتمال المتون علی عامّهٔ أحکام الفقه، فکیف إذا کان الماتن رسول‌الله (ص) والکاتب أمیر المؤمنین والراوی عنهما أولادهما وأهل بیتهما من فقهاء المسلمین وعظمائهم، دع عنک استحقاقهم لمنصب الخلافهٔ والإمامهٔ وکونهم أولی بالناس من أنفسهم بعد رسول الله (ص).

وقد ورد التصریح بسند أهل بیت رسول الله (ص) فی روایتهم عن جدّهم بما لا یبقی ریباً لمرتاب ولا یَدَع شکّاً لأحد إلّا لمن کان فی قلبه زیغ أو کان فی فهمه رین.

۱- المصدر نفسه، الحدیث: ۱۱.

۲- المصدر نفسه، الحديث: ۱۵.

۳- المصدر نفسه، الحديث: ۲۱.

۴- المصدر نفسه، الحديث: ۱۶.

ص: ۴۷

فقد روی عن هشام بن سالم وحمّاد بن عثمان وغیرهما قالوا: سمعنا أبا عبدالله (ع) یقول: «حدیثی حدیث أبی وحدیث أبی حدیث جدّی وحدیث جدّی حدیث الحسین وحدیث الحسین حدیث الحسن وحدیث الحسن حدیث أمیر المؤمنین (ع) وحدیث أمیر المؤمنین حدیث رسول الله (ص) وحدیث رسول الله قول الله عزّ وجلّ» (۱)

والعارف باللغهٔ لا یخفی علیه أنّ قوله (ع): حدیثی حیث أضاف الحدیث إلی نفسه یفید العموم ولیس معناه حدیث واحد، بل مفهومه أنّ کلّ ما یعدّ حدیثه فهو مرویّ بهذا الإسناد ومحکیّ بهذا الاستناد؛ ولاحظ أیضاً ما یأتی.

وقد روی فی الصحیح عن سیف بن عمیرهٔ، عن عمرو بن شمر، عن جابر، قال: قلت لأبی جعفر (ع): إذا حدّثتنی بحدیث فاسنده لی، فقال: «حدّثنی أبی عن جدّی عن رسول الله (ص) عن جبرئیل عن الله تبارک وتعالی وکلّ ما أُحدّثک بهذا الإسناد» (۲).

وروی عن ابن سنان عن أبی عبدالله (ع) قال: سمعته یقول: «لیس علیکم فیما سمعتم منّی أن تروه عن أبی، ولیس علیکم جُناح فیما سمعتم من أبی أن تروه عنّی لیس علیکم فی هذا جناح» (۳).

وفی روایهٔ عن حفص بن البختری، قال: قلت لأبی عبدالله (ع): نسمع الحدیث منک فلا أدری منک سماعه أو من أبیک؟ فقال: «ما سمعته منّی فاروه عن أبی وما سمعته منّی فاروه عن رسول الله (ص)» (۴).

وفی روایهٔ عن أبی بصیر قال: قلت لأبی عبدالله (ع): الحدیث أسمعه منک أرویه عن أبیک أو أسمعه من أبیک أرویه عنک؟ قال: «سواء، إلّا أنّک ترویه عن أبی أحبُّ إلیَّ». وقال أبو عبدالله (ع) لجمیل: «ما سمعته منّی فاروه عن أبی» (۵).

هذا کلّه بالغضّ عمّا ورد فی وفور علم أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام) وأنّهم ورثهٔ علوم الأنبیاء وخاتمهم محمّد (ص)، فهم یعلمون علوم رسول الله (ص) بتعلیمه أمیر المؤمنین (ع)، ثمّ إنّ أوصیائه (علیهم السلام) تناقلوها من بعده وتوارثوها، وأنّ محمّداً (ص) ورث علم من کان قبله من الأنبیاء والمرسلین (۶)، وأنّ رسول الله صیّر ما صار إلیه من علم النبیّین بأسره وکلّه عند أمیر المؤمنین (ع)، وأنّ العلم یتوارث فلا یموت عالم إلّا وترک من یعلم مثل علمه (۷).

وأنّ رسول الله (ص) لمّا قبض ورث علیّ (ع) علمه وسلاحه، ثمّ صار إلی الحسن، ثمّ صار إلی الحسین، ثمّ بعد ذلک علیّ بن الحسین، ثمّ إلی محمّد بن علیّ، ثمّ إلی جعفر بن محمّد (علیهم السلام)، وإنّه لا یموت منهم عالم إلّا وترک من یعلم مثل علمه، وما تواتر من کتب الفریقین أنّ رسول الله (ص) علّم علیّاً (ع) ألف باب یُفتح من کلّ باب ألف باب (۸).

وما ورد من أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام) یعلمون کلّ ما أظهر الله علیه ملائکته وأنبیائه ورسله (۹).

فهذا الذی ذکرناه یعیّن علی فقهاء المسلمین أن لا یتغاضوا حیث یریدون الإفتاء عمّا یفتی به أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام)؛ حیث إنّ فتاویهم هی مضمون روایاتهم عن النبیّ (ص) وأقوالهم هی ما تضمّنته أحادیث رسول‌الله (ص) ممّا نقل إلیهم فی کتاب الجامعهٔ المدوّنهٔ فی حیاهٔ رسول الله (ص).

وأنت تعلم أنّه لا یجوز الإفتاء فی مسألهٔ إلّا بعد الفحص عن النصوص، ولا یجوز إبداء الرأی إلّا بعد الاستقصاء وبذل الطاقهٔ فی مجال الأحادیث، ولا ینبغی القول فی حکم إلّا بعد الیأس عن وجود دلیل بخلافه من مخصّص أو مقیّد أو حجّهٔ علی خلاف الظهور.

فإذا کان المسلمون یعترفون لأئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام) بالصدق والأمانهٔ کما ینبغی الاعتراف لهم بالضبط والاتقان بعد تدوینهم النصوص عن صاحب الشریعهٔ مباشرهً، فلا ینبغی بعد هذا وذاک الوقوف تجاه روایاتهم (علیهم السلام) بالحیاد فضلًا عن الانحراف عنها والإعراض عن العمل بها وترجیح آراء غیرهم علیها، بعد کون تلک الآراء مبنیّهً علی الاجتهاد والحدس فی کثیر من مواردها، وعلی الغفلهٔ- إن لم یکن التغافل- عن روایات أئمّهٔ أهل البیت فی جملهٔ وفیرهٔ منها، مع ما کان أصحاب تلک

۱- الوسائل ۵۸: ۱۹، الباب ۸ من صفات القاضی، الحدیث ۲۶.

۲- المصدر نفسه، الحدیث: ۶۷.

۳- المصدر نفسه، الحدیث: ۸۵.

۴- المصدر نفسه، الحدیث: ۸۶.

۵- المصدر نفسه، الحدیث: ۱۱.

۶- الکافی ۲۲۴: ۱، الحدیث ۱.

۷- المصدر نفسه، الحدیث: ۷ وغیره.

۸- الکافی ۲۳۸: ۱، الحدیث ۱، وراجع الفصول المهمّة فی اصول الأئمّة ۵۳۳: ۱، الحدیث ۵ وغیره فی الباب.

۹- الکافی ۲۵۵: ۱، الحدیث: ۱ وغیره.

ص: ۴۸

الآراء یکنّون لأهل البیت من الاحترام ویضمرون لهم من المرتبهٔ، بل ویتظاهرون لهم من التجلیل والحرمهٔ ویتصادقون لهم علی الفقاههٔ والعلم، إضافهٔ إلی الوثاقهٔ والضبط، بل وکانوا یعترفون لشیعتهم والرواهٔ عنهم بالفضل والفقه والوثاقهٔ والعدالهٔ مع اختلافهم معهم فی المذهب والعقیدهٔ، فلا یمنعهم ذلک من تصدیقهم وقبول أقوالهم، والشواهد علی ذلک کثیرهٔ، وأنا أکتفی فی المقام بذکر روایهٔ واحدهٔ تصدّق ما أقول وتشهد بما ذکرت.

فقد روی الکلینی بإسناده عن السیّاری قال: روی عن ابن أبی لیلی أنّه قدم إلیه رجل، فقال: إنّ هذا باعنی هذه الجاریهٔ فلم أجد علی رکبها حین کشفتها شعراً وزعمت أنّه لم یکن لها قطّ، قال: فقال له ابن أبی لیلی: إنّ الناس یحتالون لهذا بالحیل حتّی یذهبوا به فما الذی کرهت؟ قال: أیُّها القاضی إن کان عیباً فاقض لی به، قال: إصبر، حتّی أخرج إلیک فإنّی أجد أذیً فی بطنی، ثمّ دخل وخرج من باب آخر، فأتی محمّد بن مسلم الثقفی فقال له: أیّ شیء ترووون عن أبی جعفر (ع) فی المرأهٔ لا یکون علی رکبها شعر، أیکون ذلک عیباً؟ فقال محمّد بن مسلم: أمّا هذا نصّاً فلا أعرفه، ولکن حدّثنی أبو جعفر (ع) عن أبیه عن آبائه عن النبیّ (ص) أنّه قال: «کلّ ما کان فی أصل الخلقهٔ فزاد أو نقص فهو عیب»، فقال له ابن أبی لیلی: حسبک، ثمّ رجع إلی القوم فقضی لهم بالعیب (۱).

وأنا أقترح علی الامّهٔ الإسلامیّهٔ من أیّ مذهب کانوا وعلی أیّ أصل عوّلوا فی عقائدهم واصول دینهم ومذهبهم أن ینظروا فیما أقول ویتأمّلوا فی کلامی هذا فإنّی لا أظنّ منافاته لمذهب من المذاهب، ولا أنّه مخالف للدِّین علی شتّی المسالک.

بل اصول المسلمین قاضیهٔ بلزوم الأخذ بما أقول وعقیدتهم حاکمهٔ بتعیّن العمل بما أذکر ألا وهو اعتبار روایات أهل بیت النبیّ (ص) وحجّیّهٔ نصوصهم، بل وتقدّمها علی آراء سائر المسلمین حیث إنّ نصوصهم هی متون أقوال النبیّ (ص)، ورواياتهم هی اصول کلمات رسول الله (ص) ولم یزیدوا فیها من أنفسهم شیئاً ولم ینقصوا ولم یحرّفوا ولا أنّهم بدّلوا تبدیلًا.

وإن شئت مزید توضیح لهذا الکلام، أقول متوکّلًا علی الله:

إنّ أسباب الانصراف عن أحادیث أهل بیت النبیّ (ص) بعد اتّفاق المسلمین علی حجّیهٔ أخبار الثقات واعتبار أقوالهم لا تخلو من أحد مناشئ:

الأوّل: التشکیک فی وثاقهٔ أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام) أنفسهم.

الثانی: التشکیک فی وثاقهٔ الرواهٔ عن الأئمّهٔ من شیعتهم ومحبّیهم.

الثالث: إرسال روایات أئمّهٔ أهل البیت لعدم إدراکهم للنبیّ (ص) فی حیاته.

الرابع: التشکیک فی کون أحادیثهم روایهٔ واحتمال کونها اجتهادات وفتاوی منهم (علیهم السلام).

وإذا بطلت هذه الاحتمالات فثبت وثاقهٔ الأئمّهٔ أنفسهم والرواهٔ عنهم، وتحقّق کون أقوالهم روایات لا فتاوی وأنّ روایاتهم متّصلهٔ الإسناد إلی رسول الله (ص) لا إرسال فیها ولا انقطاع.

لم یبق هناک مناص من اعتبار تلک الروایات، ولا مجال فی الترديد فی حجّیهٔ تلک النصوص. وسوف أتعرّض بما یناسب المقام من التفصیل لکلّ من هذه الامور الأربعهٔ إن شاء الله تعالی.

أمّا ما ورد عن الأئمّهٔ (علیهم السلام) من النصوص، فهی روایات لا اجتهادات، فقد أسمعناک ما صرّحوا به أنفسهم من أنّ حدیثهم هو حدیث النبیّ (ص) ورواياتهم هی أقوال رسول الله (ص).

وأمّا قضیّهٔ إرسال أحادیثهم، فقد سمعت أنّ رواياتهم هی بواسطهٔ آبائهم حتّی تنتهی إلی أمیر المؤمنین علیّ (ع) وهو قد أدرک النبیّ (ص) منذ بدء الرسالهٔ وصاحبه طیلهٔ حیاته ولم یفارقه حتّی وفاته (ص)، وهو أوّل مَنْ أسلم وکان ملازماً له (ص)، ناهیک

۱- الوسائل ۴۱۰: ۱۲، الباب ۱، من أحكام العيوب.

ص: ۴۹

عن أنّ روایات أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام) لا تحتاج إلی سند، ونصوصهم لا تحتاج إلی بیان الوسائط؛ وذلک لأنّها مضمون الکتاب الواصل إلیهم عن جدّهم رسول الله (ص) ألا وهو کتاب علیّ (ع) الذی تواترت روایات أهل البیت (علیهم السلام) فی شأنه وأنّه کتابٌ أملاهُ رسول الله (ص) من فلق فیه علی علیّ أمیر المؤمنین فکتبها بخطّه (ع)، ومثل هذا الکتاب قطعیّ لهم لا یحتاج إلی ذکر السند.

ألا تری أنّ المسلمین لا یحتاجون فی إسناد کتاب البخاری ومسلم وکتاب الکافی والتهذیب إلی مصنّفها وعزو نسخها إلی أصحابها إلی سند ووسائط، ولو ذکرت هناک الوسائط کان مجرّد تشریف، فیا تُری أنّ أحداً یشکّ فی أنّ القانون والشفا لابن سینا حتّی یحتاج إلی ذکر سند معنعن أو طریق متّصل؟!

بل هل تری أحداً یشکّ فی کتب وصلتنا من أفلاطون وغیره من السابقین علی الإسلام أنّها لهم وهم ألّفوها؟

وإن شئت قلت: إنّ نسبهٔ مثل هذه الکتب إلی أصحابها قطعیّهٔ وصدورها من مؤلّفیها بتیّهٔ لتواترها عنهم أو لغیر ذلک.

ومع هذا کلّه، فلیفرض حاجهٔ نسبهٔ کتاب علیّ (ع) إلیه إلی سند بین الأئمّهٔ من أهل بیت نبیّه (علیهم السلام) الذین هم رواهٔ کتابه ونَقَلَهٔ آثاره.

فلم یبق إلّا قضیّهٔ وثاقهٔ الأئمّهٔ أنفسهم أو الرواهٔ عنهم؛ أمّا وثاقهٔ الأئمّهٔ فالأمر فیه أوضح من أن یسطر وأظهر من أن یحتاج إلی إثبات، وقد تسالم المسلمون ممّن عرفوهم علی ذلک ولا یرتاب فیه مَن له أدنی إنصاف، ولا یشکّ فیه إلّا أهل الاعتساف.

ولو أردت أن أتعرّض لما ذکره أرباب السِّیر فی شأنهم (علیهم السلام) لطال بنا الکلام واحتاج إلی مجلّدات، ولو أردت أن أجمع ما أثنی به أصحاب المعاجم والتراجم علی أئمّهٔ أهل البیت (علیهم السلام) لکانت مجموعهٔ ضخمهٔ.

وحیث إنّ کثیراً من روایات أهل البیت هی من الإمامین محمّد بن علی الباقر وابنه جعفر بن محمّد الصادق (علیهم السلام) فإنّی أذکر یسیراً من ترجمتهما واشیر إلی نزر من فضلهما بما یکفی العاقل ویطمئن به ذوو الألباب، ثمّ احیل القارئ فی سائر فضلهما وفضل سائر الأئمّهٔ من أهل البیت (علیهم السلام) إلی المراجعهٔ إلی المصادر والوقوف علی المراجع.

وأقول علی الإجمال: إنّ الأئمّهٔ من آل محمّد (ص) کلّهم نورٌ واحد وهم شرکاء فی الجلالهٔ والفضل والسیادهٔ والعظمهٔ، وقد شهد لهم أعداؤهم بالفضل والسؤدد، وأقرَّ لهم مخالفوهم بالعظمهٔ والجلال، وقدیماً قالوا: الفضل ما شهدت به الأعداء.

وإنّنی أقتصر هنا علی مصادر غیر الشیعهٔ، حتّی لا یحتمل کون الحامل لهم علی الإطراء والمدح الاعتقاد بإمامتهم فی المذهب، فإنّ الشیعهٔ یعتقدون فیهم العصمهٔ کما یرونها للأنبیاء.

وقبل التعرّض لشأنهما أقول: قد توسّط بینهما وبین رسول الله (ص) فی أحادیثهما علیّ بن الحسین زین العابدین وسیّد الساجدین، ثمّ الواسطهٔ بینه وبین النبیّ (ص) أبوه وعمّه الحسن والحسین سیّدا شباب أهل الجنّهٔ وریحانتا رسول الله (ص) وسبطاه، ثمّ الواسطهٔ بین الحسنین وبین رسول الله (ص) حیث لم یرویا مباشرهً عنه (ص) هو أبوهما أخو رسول الله وابن عمّه وزوج ابنته علیّ بن أبی طالب (ع) وهو من إن کان الحدیث عن صحبهٔ النبیّ (ص) فلا تجد مَن هو أسبق صحبهً منه فإنّه أوّل المسلمین وأوّل مَنْ صلّی وعبد ولم یُشرک بالله طرفهٔ عین، وما ورد فی فضله من القرآن والحدیث لا تجد فی کتاب أو دفتر ولا یحصر فی العدد فإنّه نفس النبیّ ۹ بنصّ الکتاب وأخوه بنصّ الرسول، وزوج ابنته وأبو ذرّیته بلا ریب، ووصیّه ووارث علمه وکاتب وحیه، وإجمال القول: إنّه ما من فضیلهٔ إلّا وهو حائزها، ولا من مکرمهٔ إلّا وهو صاحبها، وهو خلیفهٔ رسول الله والإمام الذی نصَّ النبیّ (ص) علی أنّه مع الحقّ والحقّ معه، یدور معه حیثما دار.

ص: ۵۰

وإنّی لأستحیی من ربّی أن أتصدّی لإثبات وثاقهٔ هذه السلسلهٔ من السند أو أتعمّد لتحکیم صدق هؤلاء، وهم فی غنیً عمّن سواهم والکلّ محتاجون إلیهم، ولکن عذری فی ذلک سنّهٔ الدهر فی ظلمه علی أصحاب الفضائل وهوانه فی عداه علی أرباب الکمال، فلا محیص لی عن التعرّض لهذا والتصدّی له وأروم الاختصار وأقصد التلخیص، بعد أن أجوز بیان شأن علیّ وابنیه والامّهٔ عالمهٔ بفضلهم والمسلمون مذعنون بأمانتهم وإمامتهم، أتعرّض لشأن الأئمّهٔ الثلاثهٔ علیّ بن الحسین وابنه محمّد بن علیّ الباقر وابنه جعفر بن محمّد الصادق (علیهم السلام).

قال الذهبی- وهو ممن یعرفه أهل السِّیر بأنّه لا یجامل ولا یبالغ فی ذِکر فضیلهٔ لأهل بیت النبیّ (ص) إذا لم ینقصهم حقّهم أو یبخسهم فضلهم، کما أنّ موقفه مع شیعتهم معروف ولسانه فی وصف مواولیهم معلوم.

أذکر کلام الذهبی وأُحیل الزیادهٔ علیه علی سائر الکتب من مؤلّفات أرباب السِّیر والتراجم ومن جملتها تهذیب الکمال.

وکیف کان، قال الذهبی:

علیّ بن الحسین (ع) ابن الإمام علیّ بن أبی طالب بن عبد المطّلب بن هاشم ابن عبد مناف، السیّد الإمام، زین العابدین، الهاشمی العَلَویّ، المدنیّ.

یُکنّی أبا الحسین ویُقال: أبو الحسن، ویُقال: أبو محمّد، ویُقال: أبو عبدالله. وامّه امّ ولد، اسمُها سلامهٔ سُلافهٔ بنت ملک الفرس یزدجرد، وقیل: غزالهٔ.

وُلِدَ فی سنهٔ ثمان وثلاثین ظنّاً.

وحدَّث عن: أبیه الحسین الشهید، وکان معه یوم کائنهٔ کربلاء وله ثلاثٌ وعشرون سنهٔ، وکان یومئذ موکوعاً فلم یُقاتل، ولا تعرّضوا له، بل أحضروه مع آله إلی دمشق، فأکرمهُ یزید، وردّه مع آله إلی المدینهٔ، وحدَّث أیضاً عن جدّه مرسلًا، وعن صفیّهٔ امّ المؤمنین، وذلک فی «الصحیحین»، وعن أبی هریرهٔ، وعائشهٔ وروایته عنها فی «مسلم»، وعن أبی رافع، وعمّه الحسن، وعبدالله بن عبّاس، وامّ سَلَمهٔ، والمِسوَر بن مخرَمهٔ، وزینب بنت أبی سلمهٔ، وطائفهٔ. وعن مروان بن الحکم، وعُبید الله بن أبی رافع، وسعید بن المسیّب، وسعید بن مرجانهٔ، وذَکوان مولی عائشهٔ، وعمرو بن عثمان بن عفّان، ولیس بالمُکثِر من الروایهٔ.

حدَّث عنه: أولاده: أبو جعفر محمّد، وعُمر، وزید المقتول، وعبدالله، والزُّهری، وعمرو بن دینار، والحَکَم بن عُتیبهٔ، وزید بن أسلم، ویحیی بن سعید، وأبو الزِّناد، وعلیّ بن جُدعان، ومسلم البَطِین، وحبیب ابن أبی ثابت، وعاصم بن عبیدالله، وعاصم بن عمر بن قتادهٔ بن النُّعمان، وأبوه عمر، والقعقاع بن حکیم، وأبو الأسود یتیم عروهٔ، وهشام بن عروهٔ، وأبو الزبیر المکّی، وأبو حازم الأعرج، وعبدالله بن مسلم بن هرمز، ومحمد بن الفرات التمیمی، والمِنهال بن عمرو، وخَلْقٌ سواهم.

وقد حدَّث عنه أبو سلمهٔ، وطاووس، وهما من طبقته.

قال ابن سعد: هو علیّ الأصغر، وأمّا أخوه علیّ الأکبر، فقُتِل مع أبیه بکربلاء (۱). وکان علیّ بن الحسین ثِقَهً، مأموناً، کثیر الحدیث عالیاً، رفیعاً، ورِعاً (۲).

روی ابن عُیینهٔ، عن الزُّهری، قال: ما رأیت قُرشیّاً أفضل من علیّ بن الحسین (۳).

وقیل: إنّ عمر بن سعد قال یوم کربلاء: لا تعرِّضُوا لهذا المریض- یعنی علیّاً.

ابنُ وَهْب: عن مالک، قال: کان عُبید الله بن عبدالله من العلماء، وکان إذا دخل فی صلاته، فقعد إلیه إنسان، لم یُقبِل علیه حتّی یفرُغ، وإنَّ علیّ بن الحسین کان من أهل الفضل، وکان یأتیه، فیجلسُ إلیه، فیطوِّل عُبید الله فی صلاته، ولا یلتفت إلیه، فقیل له: علیٌّ وهو ممّن هو منه! فقال: لابُدَّ لمَن طلب هذا الأمر أن یُعنّی به.

۱- طبقات ابن سعد: ۵/ ۱۶۳.

۲- طبقات ابن سعد: ۵/ ۱۷۲.

۳- طبقات ابن سعد: ۵/ ۱۶۷.

ص: ۵۱

وقال: قال نافع بن جُبير لعليّ بن الحسين: إنّك تُجالس أقواماً دوناً! قال: آتى مَن أنتفعُ بمجالسته فى دينى. قال: وكان نافعٌ يجِدُ فى نفسه، وكان عليّ بن الحسين رجلًا له فضلٌ فى الدِّين.

ابن سعد، عن عليّ بن محمّد، عن عليّ بن مجاهد، عن هشام بن عروهٔ، قال: كان عليّ بن الحسين يخرجُ على راحلته إلى مكّهٔ ويرجع لا يَقْرعُها، وكان يُجالِسُ أسلمَ مولى عُمَر، فقيل له: تَدَعُ قريشاً، وتُجالسُ عَبْد بنى عدِىّ!؟ فقال: إنّما يجلس الرجلُ حيثُ ينتفع.

وعن عبد الرحمن بن أردك (۱)- أخو عليّ بن الحسين لُامّه- قال: كان عليّ ابن الحسين يدخل المسجد، فيشُقُّ الناس حتّى يجلس فى حلقهٔ زيد بن أسلم، فقال له نافع بن جُبير: غفر الله لك، أنتَ سيّد الناس، تأتى تتخطّى حتّى تجلس مع هذا العبد، فقال عليّ بن الحسين: العلم يُبتغى ويُؤتَى ويُطلَبُ من حيث كان.

الأعمش، عن مسعود بن مالك، قال لى عليّ بن الحسين: تستطيع أن تجمع بينى وبين سعيد بن جُبير؟ قلت: ما حاجتك إليه؟ قال: أُريد أن أسأله عنها، إنّ الناس يأتوننا بما ليس عِندنا.

ابن عُيَيْنَهٔ، عن الزُّهرى، قال: ما كان أكثر مجالستى مع عليّ بن الحسين، وما رأيت أحداً كان أفقه منه، ولكنّه كان قليل الحديث.

وروى شعيب، عن الزُّهرى، قال: كان عليّ بن الحسين من أفضل أهل بيته، وأحسنهم طاعهً، وأحبّهم إلى مروان، وإلى عبد الملك.

مَعْمَر، عن الزُّهرى: لم أُدرك من أهل البيت أفضل من عليّ بن الحسين.

وروى عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: ما رأيتُ فيهم مثل عليّ بن الحسين.

ابن وهب، عن مالك، قال: لم يكُن فى أهل البيت مِثلُه، وهو ابنُ أمهٔ.

حمّاد بن زيد، عن يحيى بن سعيد: سمعتُ عليّ بن الحسين- وكان أفضل هاشميّ أدركتُه- يقول: يا أيّها الناس، أحبّونا حُبَّ الإسلام، فما بَرِحَ بنا حُبّكم حتّى صار علينا عاراً.

أبو معاويهٔ، عن يحيى بن سعيد، عن عليّ: يا أهل العراق، أحبُّونا حُبَّ الإسلام، ولا تحبّونا حُبَّ الأصنام، فما زال بنا حُبّكم حتّى صار علينا شَيْناً.

قال الأصمعى: لم يكن له عقِب- يعنى الحسين- إلّا من ابنه عليّ، ولم يكن لعليّ بن الحسين ولدٌ إلّا من امّ عبد الله بنت الحسن وهى ابنهٔ عمّه، فقال له مروان: أرى نسلَ أبيك قد انقطع، فلو اتّخذتَ السّرارى لعلَّ الله يرزُقَكَ منهنَّ، قال: ما عندى ما أشترى، قال: فأنا أُقرِضُك. فأقرضه مائهٔ ألف، فاتّخذ السرارى، ووُلدَ له جماعهٔ من الولد. ثمّ أوصى مروان لمّا احتضر أن لا يُؤخذ منه ذلك المال.

إسنادها منقطع، ومروان ما احتُضر، فإنّ امرأته عَمّتهُ تحت وسادهٔ هى وجواريها.

قال أبو بكر بن البرقى: نَسْلُ الحسين كلّه من قِبَل ابنه عليّ الأصغر؛ وكان أفضل أهلِ زمانه. ويقال: إنّ قريشاً رَغِبَتْ فى امّهات الأولاد بعد الزُّهد فيهنّ حين نشأ عليّ بن الحسين، والقاسم بن محمّد، وسالم بن عبدالله.

قال العِجلىّ: عليّ بن الحسين مدنىّ، تابعى، ثقهٔ.

وقال أبو داود: لم يسمع عليّ بن الحسين من عائشهٔ؛ وسمعتُ أحمد بن صالح يقول: سِنّهُ وسِنُّ الزُّهرى واحد.

قلت: وَهِمَ ابن صالح، بل عليّ أسنُّ بكثير من الزُّهرىّ.

ورُوى عن أبى بكر بن أبى شيبهٔ، قال: أصحُّ الأسانيد كلّها: الزُّهرى، عن عليّ بن الحسين، عن أبيه، عن عليّ.

۱- هو عبد الرحمن بن حبيب بن أردك، صدوق، وله ما ينكر. وقال النسائى: منكر الحديث انظر ميزان الاعتدال ۵۵۵: ۲، وتقريب التهذيب الترجمهٔ ۳۹۴۵ ط دار الفكر، وفيه «ويقال: حبيب بن عبد الرحمن».هو عبد الرحمن بن حبيب بن أردك، صدوق، وله ما

ينكر. وقال النسائى: منكر الحديث انظر ميزان الاعتدال ۵۵۵: ۲، وتقريب التهذيب الترجمة ۳۹۴۵ ط دار الفكر، وفيه «ويقال: حبيب بن عبد الرحمن».

ص: ۵۲

عبدالله بن عمر العُمری، عن الزُّهری، قال: حدَّثْتُ علیّ بن الحسین بحدیث، فلمّا فرَغْتُ قال: أحسنت! هکذا حُدِّثناهُ؛ قلتُ: ما أُرانی إلّا حدّثتک بحدیث أنتَ أعلمُ به منّی، قال: لا تَقُلْ ذاک، فلیس ما لا یُعرفُ من العِلم، إنّما العِلم ما عُرِف، وتواطأت علیه الألسن.

وقیل: إنّ رجلًا قال لابن المُسیِّب: ما رأیت أورعَ من فلان؛ قال: هل رأیتَ علیّ بن الحسین؟ قال: لا. قال: ما رأیتُ أورعَ منه.

وقال جویریهُ بن أسماء: ما أکلَ علیّ بن الحسین بقرابتهِ من رسول الله (ص) دِرهماً قطّ.

محمّد بن أبی معشر السِّندیّ، عن أبی نوح الأنصاری، قال: وقَع حریقٌ فی بیت فیه علیّ بن الحسین وهو ساجد، فجعلوا یقولون: یا ابن رسول الله! النار. فما رفَع رأسهُ حتّی طُفِئت. فقیل له فی ذلک، فقال: ألهَتنی عنها النار الاخری.

ابن سعد: عن علیّ بن محمّد، عن عبدالله بن أبی سلیمان، قال: کان علیّ بن الحسین إذا مشی لا تجاوز یدهُ فخذیه ولا یخطِرُ بها، وإذا قام إلی الصلاهٔ، أخذتهُ رِعدهٔ، فقیل له، فقال: تدرون بین یدیّ مَنْ أقوم ومَنْ اناجی (۱)!.

وعنه، أنّه کان إذا توضّأ اصفرَّ.

إبراهیم بن محمّد الشافعی، عن سفیان: حجّ علیّ بن الحسین، فلمّا أحرم، اصفرَّ وانتفضَ ولم یستطِع أن یُلبّی، فقیل: ألا تُلبّی؟ قال: أخشی أن أقول: لبّیک، فیقول لی: لا لبّیک، فلمّا لبّی، غُشیَ علیه، وسقط من راحلته، فلم یزَلْ بعضُ ذلک به حتّی قضی حجّه. إسنادها مرسل.

وروی مصعب بن عبدالله، عن مالک، أحرم علیّ بن الحسین، فلمّا أراد أن یُلبّی، قالها، فاغمیَ علیه، وسقط من ناقته، فهُشِم. ولقد بلغَنی أنّه کان یُصلّی فی کلّ یوم ولیلهٔ ألف رکعهٔ إلی أن مات. وکان یُسمی زین العابدین لعبادته.

ویُروی عن جابر الجُعفی، عن أبی جعفر: کان أبی یُصلّی فی الیوم واللیلهٔ ألف رکعهٔ، فلمّا احتُضِر، بکی، فقلت: یا أبتِ ما یُبکیک؟ قال: یا بُنیّ، إنّه إذا کان یوم القیامهٔ لم یبق ملَکٌ مقرّب، ولا نبیٌّ مرسل، إلّا کان لله فیه المشیئهٔ، إنْ شاء عذّبه، وإن شاء غَفَرَ له. إسنادها تالف (۲).

عن طاووس: سمعتُ علیّ بن الحسین وهو ساجد فی الحِجْر یقول: عُبَیْدُکَ بفنائک، مسکینُک بفنائک، سائِلُکَ بفِنائک، فقیرُکَ بفِنائک. قال: فوالله ما دعوتُ بها فی کَرب قطّ إلّا کُشِفَ عنّی.

حجّاج بن أرطأهٔ، عن أبی جعفر، أنّ أباه قاسَمَ الله تعالی مالَهُ مرّتین. وقال: إنّ الله یحبّ المُذنِبَ التوّاب.

ابن عُیینهٔ، عن أبی حمزهٔ الثمالی، أنّ علیّ بن الحسین کان یحمل الخُبز باللیل علی ظهره یتَّبعُ به المساکین فی الظُّلمهٔ، ویقول: إنّ الصدقهٔ فی سواد اللیل تُطفئ غضب الرّب.

یونس بن بُکیر، عن [محمّد] (۳) بن إسحاق: کان ناسٌ من أهل المدینهٔ یعیشون، لا یدرون من أین کان معاشهم، فلمّا مات علیّ بن الحسین، فقدوا ذلک الذی کانوا یؤتَوْنَ باللیل.

جریر بن عبد الحمید، عن عمرو بن ثابت: لمّا ماتَ علیّ بن الحسین، وجدوا بظهره أثراً ممّا کان ینقُل الجُرْبَ باللیل إلی منازل الأرامِل.

وقال شَیبهُ بن نعامهٔ: لمّا مات علیّ وجدوه یَعُولُ مائهٔ أهلِ بیت.

قلت: لهذا کان یُبخّل، فإنّه یُنفِق سِرّاً ویظُنُّ أهله أنّه یجمع الدراهم.

وقال بعضهم: ما فقدنا صدقهٔ السرّ، حتّی تُوفّی علیّ.

۱- طبقات ابن سعد ۱۶۷: ۵.

۲- فی إسناده جابر بن یزید الجعفی. وثّقه بعضهم وضعّفه الأکثرون. انظر ترجمته مطوّلة فی میزان الاعتدال للمصنّف ۳۷۹: ۱- ۳۸۴.

۳- ما بین حاصرتین زیادة من حلیة الأولیاء ۱۳۶: ۳.

ص: ۵۳

وروی واقـد بن محمّد العُمَری، عن سـعید بن مرجانهٔ، أنّه لمّا حدَّث علیّ بن الحسـین بحدیث أبی هریرهٔ: «مَن أعتق نسـمهً مؤمنهً أعتق الله کلّ عضو منه بعضو منه من النار، حتّی فرْجَهُ بِفَرْجِهِ» (۱) فأعتقَ علیٌّ غلاماً له، أعطاه فیه عبد الله بن جعفر عشرهٔ آلاف درهم.

وروی حـاتِمُ بن أبی صـغیرهٔ، عن عمرو بن دینـار، قال: دخل علیّ بن الحسـین علی محمّـد بن اسامـهٔ بن زیـد فی مرضه، فجعل محمّد یبکی، فقال: ما شأنُکَ؟ قال: علیَّ دَیْن؛ قال: وکَمْ هو؟ قال: بِضعهٔ عشر ألف دینار، قال: فهی علیَّ.

علیّ بن موسی الرضا: حدّثنا أبی عن أبیه، عن جدّه، قال علیّ بن الحسین: إنّی لأستحیی من الله أن أری الأخ من إخوانی، فأسأل الله له الجنّهٔ وأبخلَ علیه بالدُّنیا، فإذا کان غداً قیل لی: لو کانت الجنّهٔ بیدک لکنتَ بها أبخَل وأبخَل.

قال أبو حازم المـدنی: ما رأیتُ هاشـمیّاً أفقه من علیّ بن الحسـین، سـمعته وقـد سُئِل: کیف کانت منزلهٔ أبی بکر وعمر عند رسول‌الله (ص)؟ فأشار بیده إلی القبر، ثمّ قال: بمنزلتهما منه الساعهٔ.

رواها ابن أبی حازم عن أبیه.

أحمد بن عبد الأعلی الشـیبانی: حدّثنی أبو یعقوب المدنی، وکان بین حسن بن حسن وبین ابن عمّه علیّ بن الحسـین شیء، فما ترکَ حسنٌ شـیئاً إلّا قاله، وعلیٌّ ساکت، فـذهب حسن، فلمّا کان فی اللیل، أتاهُ علیٌّ، فخرج، فقال علیّ: یا ابن عمّی إن کنت صادقاً فغفرَ الله لی، وإن کنتَ کاذباً، فغَفَر الله لک، السلامُ علیک. قال: فالتزمه حسنٌ، وبکی حتّی رثی له.

قال أبو نُعیم: حدّثنا عیسی [بن] (۲) دینار- ثقهٔ- قال: سألتُ أبا جعفر عن المختار، فقال: قام أبی علی باب الکعبهٔ، فلَعَنَ المختار، فقیل له: تلعنُهُ وإنّما ذُبِحَ فیکم؟! قال: إنّه کان یکذِبُ علی الله وعلی رسوله.

وعن الحَکَم، عن أبی جعفر، قال: إنّا لنُصلّی خلفَهُمْ- یعنی الأُمویّهٔ- من غیر تقیّهٔ، وأشهدُ علی أبی أنّه کان یُصلّی خلفهم من غیر تقیّهٔ.

رواه أبو إسرائیل المُلائی (۳)

وروی عُمر بن حبیب، عن یحیی بن سعید، قال: قال علیّ بن الحُسین: والله ما قُتِل عثمان رحمه الله علی وجه الحقّ.

نقل غیرُ واحد، أنّ علیّ بن الحسین کان یخضِبُ بالحِنّاء والکَتَم. وقیل: کان [له] (۴) کِساءٌ أصفر یلبسُهُ یوم الجمعهٔ.

وقال عثمان بن حکیم: رأیتُ علی علیّ بن الحسین کِساء خَزّ، وجُبّهَ خزّ.

وروی حُسین بن زیـد بن علیّ، عن عمّه، أنّ علیّ بن الحسـین کـان یشتری کسـاءَ الخَزّ بخمسـین دیناراً یشـتُو فیه، ثمّ یبیعه، ویتصـدّقُ بثمنه.

وقال محمّد بن هلال: رأیتُ علیّ بن الحسین یَعْتَمُّ، ویُرْخی منها خلف ظهره.

وقیل: کان یَلبَسُ فی الصیف ثوبین مُمشّقین من ثیاب مِصر ویتلو: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِینَهَ اللهِ الَّتِی أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّیِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ (۵).

وقیل: کان علیّ بن الحسین إذا سار فی المدینهٔ علی بغلته، لم یقُل لأحد: الطریق ... ویقول: هو مُشترک لیس لی أن انحّی عنه أحداً.

وکـان له جلالـهٔ عجیبـهٔ، وحقَّ له والله ذلـک، فقـد کان أهلًا للإمامـهٔ العظمی لشـرفه وسؤدده وعِلمِه وتألّهِهِ وکمال عقله. قـد اشـتهرت قصـیدهٔ الفرزدق- وهی سـماعُنا- أنّ هشام بن عبـد الملک حجَّ قُبیل ولایته الخلافهٔ، فکان إذا أراد اسـتلام الحَجر زُوحِمَ علیه، وإذا دنا علیّ بن الحسین من الحجر تفرّقوا عنه إجلالًا له، فوجَمَ لها هشام وقال: مَنْ هذا؟ فما أعرفهُ،

۱- أخرجه البخـاری فی الکفّـارات، باب ۶، حدیث ۶۷۱۵. ومسـلم فی العتق، حـدیث ۲۳ ۲۲. والترمـذی فی النذور باب ۱۴، حدیث ۱۵۴۱. وأحمد فی المسند: ج ۳ حدیث ۹۴۴۱ و ۹۴۶۵.

۲- ما بین حاصرتین ساقط من الأصل وأثبتناه من التهذیب وفروعه.

۳- أبو إسرائيل الملائى: هو إسماعيل بن أبى إسحاق. ضعّفوه. وقد كان شيعيّاً بغيضاً من الغلاة الذين يكفرون عثمان. وقيل: اسمه عبد العزيز. حدث عن الحكم بن عتيبة وعطية العوفى، وعنه أبو نعيم وإسماعيل بن عمرو البجلى وجماعة انظر ميزان الاعتدال ۲۲۶: ۱، ۴۹۰: ۴.

۴- زيادة لإيضاح المراد.

۵- الأعراف: ۳۱.

ص: ۵۴

فأنشأ الفرزدق يقول:

هذا الذى تعرفُ البطحاءُ وطأتهُ والبيتُ يعرِفهُ والحِلُّ والحَرَمُ

ه-- ذا ابنُ خير عبادِ الله كلّهمُ هذا التقىّ النقىّ الطاهِرُ العَلَمُ

إذا رأتهُ قريشٌ قالَ قائِلُها إلى مكارِمِ هذا ينتهى الكَرَمُ

يَكادُ يُمسِكُهُ عِ-- رفان راحتهِ رُكنَ الحطيم إذا ما جاء يَستَلِمُ

يُغضِى حياءً ويُغضى من مهابتهِ ف-- ما يُكلِّمُ إلّا حينَ يَبْتَسِمُ

هذا ابن فاطمهٔ إن كُنتَ جاهلُه بجدّهِ أنبياءُ الله قد خُتِموا

وهى قصيدهٔ طويلهٔ. قال: فأمرَ هشام بحبس الفرزدق، فحُبِسَ بعُسفان، وبعث إليه علىّ بن الحسين باثنى عشر ألف درهم، وقال: أعذِر أبا فراس. فردّها، قال: ما قلتُ ذلك إلّا غضباً لله ولرسوله. فردّها إليه وقال: بحقّى عليك لما قَبِلْتها، فقد علم الله نيّتك ورأى مكانَك. فقَبِلها.

وقال فى هشام:

أيحبُسنى بين الم-- دينهٔ والتى

إليها قُلوبُ الناس يَهوى مُنيبُها

يُقلِّبُ رأساً لم يكُن رأسَ سيِّد

وعينين حَولاوين باد عُيوبُها

وكانت امّ علىّ من بنات ملوك الأكاسرهٔ، تزوّج بها بعد الحسين (ع) مولاه زُبَيْد، فولدت له عبدالله بن زييد- بياءين- قاله ابن سعد.

وقيل: هى عمّهٔ امّ الخليفهٔ يزيد بن الوليد بن عبد الملك.

قال الواقدى، وأبو عبيد، والبخارى، والفلّاس: مات سنهٔ أربع وتسعين. ورُوى ذلك عن جعفر الصادق.

وقال يحيى أخو محمّد بن عبدالله بن حسن: مات فى رابع عشر ربيع الأوّل ليلهٔ الثلاثاء سنهٔ أربع.

وقال أبو نُعيم وشَباب: تُوفّى سنهٔ اثنتين وتسعين.

وقال مَعْنُ بن عيسى: سنهٔ ثلاث. وقال يحيى بن بُكير: سنهٔ خمس وتسعين. والأوّل الصحيح.

قال أبو جعفر الباقر: عاشَ أبى ثمانياً وخمسين سنهٔ.

أبو جعفر الباقر (ع)

هو السيّد الإمام، أبو جعفر محمّد بن علىّ بن الحسين بن علىّ، العلوىّ، الفاطمىّ، المَدَنىّ، ولَدُ زين العابدين، وُلِدَ سنهٔ ستٍّ وخمسين فى حياهٔ عائشهٔ وأبى هريرهٔ، أرّخ ذلك أحمد بن البرقى.

ص: ۵۵

روی عن: جدّیه: النبیّ (ص)، وعلیّ (ع) مرسلًا، وعن جدّیه الحسن والحسین (علیهما السلام) مرسلًا أیضاً، وعن ابن عبّاس، امّ سلمهٔ، وعائشهٔ مرسلًا، وعن ابن عمر، وجابر، وأبی سعید، وعبدالله بن جعفر، وسعید بن المسیّب، وأبیه زین العابدین، ومحمّد ابن الحنفیّهٔ، وطائفهٔ. وعن أبی هریرهٔ، وسمُرهٔ بن جُندب مرسلًا أیضاً، ولیس هو بالمُکثِر، هو فی الروایهٔ کأبیه وابنه جعفر، ثلاثتهم لا یبلغُ حدیث کلّ واحد منهم جزءاً ضخماً، ولکن لهم مسائل وفتاوٍ.

حدَّث عنه: ابنه، وعطاء بن أبی رباح، والأعرج مع تقدّمهما، وعمرو بن دینار، وأبو إسحاق السبیعی، والزُّهری، ویحیی بن أبی کثیر، وربیعهٔ الرأی، ولیث ابن أبی سُلیم، وابن جُریج، وقُرّهٔ بن خالد، وحجّاج بن أرطأهٔ، والأعمش، ومُخَوّل ابن راشد، وحربُ بن سُریج، والقاسم بن الفضل الحُدّانی، والأوزاعی، وآخرون.

وروایته عن الحسن وعائشهٔ فی سنن النسائی، وذلک منقطع.

وروایته عن سَمُرهٔ فی سُنن أبی داود.

وکان أحد مَن جمعَ بین العلم والعمل والسؤدد، والشرف، والثقهٔ، والرّزانهٔ، وکان أهلًا للخلافهٔ. وهو أحد الأئمّهٔ الإثنی عشر الذین تُبجّلهم الشیعهٔ الإمامیّهٔ وتقول بعصمتهم وبمعرفتهم بجمیع الدِّین. فلا عصمهٔ إلّا للملائکهٔ والنبیّین، وکلّ أحد یُصیبُ ویُخطئ، ویُؤخذ من قوله ویُترک سوی النبیّ (ص) فإنّه معصوم، مؤیّدٌ بالوحی.

وشُهِرَ أبو جعفر: بالباقر، مِن: بَقَرَ العلم، أی شقّهُ فعرَفَ أصلهُ وخفیّه. ولقد کان أبو جعفر إماماً، مجتهداً، تالیاً لکتاب الله، کبیر الشأن، ولکن لا یبلغ فی القرآن درجهٔ ابن کثیر ونحوه، ولا فی الفقه درجهٔ أبی الزّناد، وربیعهٔ؛ ولا فی الحِفظ ومعرفهٔ السُّنن درجهٔ قتادهٔ وابن شهاب، فلا نُحابیه، ولا نحیفُ علیه، ونُحبّه فی الله لما تجمّعَ فیه من صفات الکمال.

[ویواصل الذهبی حدیثه قائلًا:] قال ابن فُضیل، عن سالم بن أبی حفصهٔ: سألت أبا جعفر وابنه جعفراً عن أبی بکر وعمر، فقالا لی: یا سالم، تولّهُما وابرأ من عدوِّهما، فإنّهما کانا إمامَی هدیً.

کان سالم فیه تشیّع ظاهر، ومع هذا فیُبُثُّ هذا القول الحقّ، وإنّما یَعرِفُ الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، وکذلک ناقِلها ابن فضیل، شیعیّ ثقهٔ. فعثّر الله شیعهٔ زماننا ما أعرقهُم فی الجهل والکذب، فینالون من الشیخین وزیری المصطفی (ص)، ویحملون هذا القول من الباقر والصادق علی التقیّهٔ.

وعن عبدالله بن محمّد بن عقیل، قال: کنتُ أنا وأبو جعفر نختلفُ إلی جابر نکتبُ عنه فی ألواح، وبلغنا أنّ أبا جعفر کان یُصلّی فی الیوم واللیلهٔ مائهٔ وخمسین رکعهٔ.

وقد عدّه النسائی وغیره من فقهاء التابعین بالمدینهٔ. واتّفق الحفّاظ علی الاحتجاج بأبی جعفر.

قال الزبیر بن بکّار: کان یُقال لمحمّد بن علیّ: باقر العلم، وامّه هی امّ عبدالله بنت الحسن بن علیّ، وفیه یقول القرظی:

یا باقِرَ العلم لأهل التُّقی وخیرَ مَنْ لبّی علی الأجبُلِ

وقال فیه مالک بن أعین (۱): إذا طلَبَ الناس عِلمَ القُرآنِ

کانتْ قُریشٌ علیه عِیالا وإنْ قیل: ابن ابنِ (۲) بنتِ الرَّسولِ

نِلتَ بذلک فَرعاً طُوالا تَحُومُ تُهلِّلُ (۳) ل-- لمُدلِج-- ینَ

جِبالٌ تُورّثُ عِلماً جِبالا

۱- مالک بن أعین الجهنی. توفّی سنهٔ ثمان وأربعین ومائهٔ (انظر معجم الشعراء للمرزبانی: ۲۶۸.

۲- رواية المرزبانى ۲۶۸: «أين ابن ...».

۳- رواية المرزبانى ۲۶۸: «نجوم تهلّل».

ص: ۵۶

ابن عُقدهٔ (۱): حدّثنا محمّد بن عبدالله بن أبی نجیح، حدّثنا علیّ بن حسّان القرشی، عن عمّه عبد الرحمن بن کثیر، عن جعفر بن محمّد، قال: قال أبی: أجلَسَنی جدّی الحسین فی حِجره، وقال لی: رسول الله (ص) یُقرِئُکَ السلام.

عن أبان بن تغلب، عن محمّد بن علیّ، قال: أتانی جابر بن عبدالله، وأنا فی الکتّاب. فقال لی: اکشِفْ عن بطنک، فکشفتُ، فألصقَ بطنهُ ببطنی، ثمّ قال: أمرنی رسول الله أن اقرئکَ منه السلام.

قال ابن عدیّ: لا أعلمُ رواهُ عن أبان غیرُ المُفضّل بن صالح أبی جمیلهٔ النحّاس.

لوین (۲): حدّثنا أبو یعقوب عبدالله بن یحیی، قال: رأیتُ علی أبی جعفر إزاراً أصفر، وکان یُصلّی کلّ یوم ولیلهٔ خمسین رکعهٔ بالمکتوبهٔ.

وعن سلمهٔ بن کُهَیل، فی قوله: لَایَات لِلْمُتَوَسِّمِینَ (۳) قال: کان أبو جعفر منهم.

الزُّبیر فی «النسَب»: حدّثنی عبد الرحمان بن عبدالله الزّهری، قال: حجَّ الخلیفهٔ هشام، فدخل الحَرَم مُتّکئاً علی ید سالم مولاه، ومحمّد بن علیّ بن الحسین جالس، فقال: یا أمیر المؤمنین، هذا محمّد بن علیّ، فقال: المَفْتُونُ به أهلُ العراق؟ قال: نعم. قال: إذهب إلیه فقُل له: یقول لک أمیر المؤمنین: ما الذی یأکل الناس ویشربون إلی أن یُفصَل بینهم یوم القیامهٔ؟

فقال له محمّد: یُحشر الناسُ علی مثل قُرصهِ النّقیّ (۴)، فیها الأنهار مفجّرهٔ. فرأی هشام أنّه قد ظَفر، فقال: الله أکبر، إذهب إلیه، فقُل له: ما أشغَلَهُمْ عن الأکل والشرب یومئذ! ففعل. فقال: قُل له: هم فی النار أشغل، ولم یُشغَلوا أن قالوا: أَفِیضُوا عَلَیْنَا مِنْ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَکُمْ اللهُ (۵).

قال المُطّلب بن زیاد: حدّثنا لیث بن أبی سُلیم، قال: دخلتُ علی أبی جعفر محمّد بن علیّ وهو یَذْکُر ذُنوبه وما یقول الناس فیه، فبکی.

وعن أبی جعفر، قال: من دخلَ قلبه ما فی خالص دین الله، شَغَله عمّا سِواه. ما الدُّنیا! وما عسی أن تکون! هل هو إلّا مرکبٌ رکبتَهُ وثَوبٌ لبِستهُ، أو امرأهٌ أصبتها.

أبو نعیم: حدّثنا أبو جعفر الرازی: عن المِنهال بن عمرو، عن محمّد بن علیّ: قال: اذکروا من عظمهٔ الله ما شئتم، ولا تذکرون منه شیئاً إلّا وهی (۶) أعظمُ منه؛ واذکروا من النار ما شئتم، ولا تذکرونَ منها شیئاً إلّا وهیَ أشدُّ منه، واذکروا من الجنّهٔ ما شئتم، ولا تذکرون منها شیئاً إلّا وهی أفضل.

وعن جابر الجعفیّ، عن محمّد بن علیّ، قال: أجمع بنو فاطمهٔ علی أن یقولوا فی أبی بکر وعُمر أحسنَ ما یکون من القول.

قلت: امّ فروهٔ بنت القاسم بن محمّد بن أبی بکر الصدِّیق هی صاحبهٔ أبی جعفر الباقر، وامّ ولدهِ جعفر الصادق (۷).

أبو بکر بن عیّاش، عن الأعمش، عن أبی جعفر محمّد بن علیّ، قال: یزعمون أنّی المهدیّ، وإنّی إلی أجلی أدنی منّی إلی ما یَدْعُون.

قال سفیان الثوری: اشتکی بعضُ أولاد محمّد بن علی، فجزع علیه، ثمّ اخبر بموته، فسُرّی عنه. فقیل له فی ذلک، فقال: ندعو الله فیما نُحِبّ، فإذا وقع ما نکرهُ، لم نُخالف الله فیما أحبّ.

قال ابن عُیینهٔ: حدّثنا جعفر بن محمّد: سمعت أبی یقول لعمّته فاطمهٔ بنت الحسین: هذا تُوفی لی ثمانیاً وخمسین سنهٔ. فمات فیها.

قال عفّان: حدّثنی معاویهٔ بن عبد الکریم، قال: رأیتُ علی أبی جعفر محمّد بن علیّ جُبّهٔ خزّ ومُطرف خزّ.

۱- هو أحمد بن محمّد بن سعید بن عقدهٔ الحافظ أبو العبّاس، محدّث الکوفهٔ. شیعی متوسّط. ضعّفه غیر واحد، وقوّاه آخرون انظر میزان الاعتدال ۱۳۶: ۱.

۲- هو محمّد بن حبیب بن جبیر المتوفّی سنهٔ ۲۴۵ أو ۲۴۶. لقّب بلوین لأنّه کان یبیع الدواب فیقول: هذا الفرس لوین. ثقهٔ. أخرج له

أبو داود والنسائی. انظر ترجمته فی تهذیب التهذیب: ۹: ۱۹۸ وتقریب التهذیب: ۱۶۶: ۲ والتاریخ الکبیر: ۹۸: ۱ والثقات: ۱۰۱: ۹ والوافی بالوفیات: ۱۲۳: ۳.

۳- الحجر: ۷۵.

۴- النقیّ: هو الخبز الحواری، وهو الخبز الأبیض.

۵- الأعراف: ۴۹.

۶- تصحّفت فی الأصل إلی «وهم» والصواب ما أثبتناه.

۷- انظر طبقات ابن سعد: ۲۴۶: ۵.

ص: ۵۷

وقال عبید الله بن [موسی] (۱): حدّثنا إسماعیل بن عبد الملک، قال: رأیت علی أبی جعفر ثوباً مُعْلَماً، فقلتُ له: فقال: لا- بأس بالأصبعین من العَلم بالإبریسم فی الثوب.

وقال عمرو بن مَوْهَب: رأیتُ علی أبی جعفر مِلحَفهً حمراء.

وروی إسرائیل، عن عبد الأعلی، أنّه رأی محمّد بن علیّ یُرسل عِمامته خلفه، وسألتهُ عن الوسْمَهٔ، فقال: هو خضابُنا أهل البیت.

مات أبو جعفر سنهٔ أربع عشرهٔ ومائهٔ بالمدینهٔ. أرّخهُ أبو نُعَیم وسعید بن عُفیر، ومُصعَب الزُّبیری. وقیل: تُوفّی سنهٔ سبع عشرهٔ.

ومن عالی روایته: أنبأنا علیّ بن أحمد وطائفهٔ، قالوا: أنبأنا عُمر بن محمّد، أنبأنا عبد الوهاب الأنماطی، أنبأنا أبو محمّد بن هزارمرد، أنبأنا ابن حَبابَهٔ، أنبأنا أبو القاسم البَغَویّ، حدّثنا علیّ بن الجَعْد، حدّثنا القاسم بن الفضل، عن محمد بن علیّ، قال: کانت امّ سلمهٔ تقول: قال رسول الله (ص) «الحجُّ جهادُ کُلِّ ضعیف» (۲).

جعفر بن محمّد بن علیّ، ابن الشهید أبی عبدالله.

ریحانهٔ النبیّ (ص) وسبطه ومحبوبه الحسین ابن أمیر المؤمنین أبی الحسن علیّ بن أبی‌طالب عبد مناف بن شیبهٔ، وهو عبد المطّلب بن هاشم، واسمه عمرو بن عبد مناف بن قصیّ، الإمام، الصادق، شیخ بنی هاشم أبو عبدالله القرشی، الهاشمی، العلوی، النبوی، المدنی، أحد الأعلام.

وامّه هی امّ فروهٔ بنت القاسم بن محمّد بن أبی بکر التّیمیّ، وامّها هی أسماء بنت عبد الرحمن بن أبی بکر، ولهذا کان یقول: ولدنی أبو بکر الصدِّیق مرّتین.

وکان یغضب من الرافضهٔ، ویمقتُهم إذا علم أنّهم یتعرّضون لجدّه أبی بکر ظاهراً وباطناً. هذا لا ریب فیه، ولکن الرافضهٔ قوم جهلهٔ، قد هوی بهم الهوی فی الهاویهٔ، فبُعداً لهم.

ولد سنهٔ ثمانین، ورأی بعض الصحابهٔ، أحسبه رأی أنس بن مالک، وسَهل بن سعد.

حدّث عن: أبیه أبی جعفر الباقر وعُبید الله بن أبی رافع، وعروهٔ بن الزبیر، وعطاء بن أبی رباح وروایته عنه فی مسلم. وجدّه القاسم بن محمّد، ونافع العمری، ومحمّد بن المنکدر، والزُّهری، ومُسلم بن أبی مریم وغیرهم، ولیس هو بالمُکثر إلّا عن أبیه. وکانا من جلّهٔ علماء المدینهٔ.

حدَّث عنه: ابنه موسی الکاظم، ویحیی بن سعید الأنصاری، ویزید بن عبدالله ابن الهاد وهما أکبر منه، وأبو حنیفهٔ، وأبان بن تغلب، وابن جُریج، ومعاویهٔ بن عمّار الدُّهنی، وابن إسحاق فی طائفهٔ من أقرانه، وسفیان، وشُعبهٔ، ومالک، وإسماعیل بن جعفر، ووهب بن خالد، وحاتم بن إسماعیل، وسلیمان بن بلال، وسفیان بن عُیینهٔ، والحسن بن صالح، والحسن بن عیّاش أخو أبی بکر، وزهیر بن محمد، وحفص بن غیاث، وزید بن حسن الأنماطی، وسعید بن سفیان الأسلمی، وعبدالله بن

۱- ما بین حاصرتین زیادهٔ من طبقات ابن سعد: ۲۴۶: ۵.

۲- رواه الإمام أحمد فی المسند ۱۰: حدیث ۲۶۵۸۲ و ۲۶۶۴۷ و ۲۶۷۳۶. وابن ماجهٔ فی المناسک باب ۸ حدیث ۲۹۰۲.

ص: ۵۸

میمون، وعبد العزیز بن عمران الزُّهری، وعبد العزیز الدراوردیّ، وعبد الوهّاب الثقفی، وعثمان بن فرقد، ومحمّد بن ثابت البُنانیّ، ومحمد بن میمون الزعفرانی، ومسلم الزّنجی، ویحیی القطان، وأبو عاصم النبیل، وآخرون.

قال مصعب بن عبدالله: سمعت الدراوردی یقول: لم یرو مالک عن جعفر حتّی ظهر أمر بنی العبّاس.

قال مصعب: کان مالک یَضُمه إلی آخر. وقال علیّ عن یحیی بن سعید، قال: أملی علیَّ جعفر بن محمّد الحدیث الطویل، یعنی فی الحجّ (۱)، ثمّ قال: وفی نفسی منه! مجالد أحبُّ إلیَّ منه.

قلت: هذه من زلقات یحیی القطان، بل أجمع أئمّهٔ هذا الشأن علی أنّ جعفراً أوثق من مجالد. ولم یلتفتوا إلی قول یحیی.

[والکلام لازال للذهبی] وقال إسحاق بن حکیم: قال یحیی القطّان: جعفر ما کان کذوباً.

وقال إسحاق بن راهویه: قلت للشافعی فی مناظرهٔ جرت: کیف جعفر بن محمّد عندک؟ قال: ثقهٔ.

وروی عبّاس عن یحیی بن معین: جعفر بن محمّد ثقهٔ مأمون.

وروی أحمد بن زهیر، والدارمی، وأحمد بن أبی مریم، عن یحیی: ثقهٔ. وزاد ابن أبی مریم عن یحیی: کنت لا أسأل یحیی بن سعید عن حدیثه. فقال: لِمَ لا تسألنی عن حدیث جعفر؟ قلت: لا أریده. فقال: إن کان یحفظ، فحدیث أبیه المسند، یعنی حدیث جابر فی الحجّ.

ثمّ قال یحیی بن معین: وخرج حفص بن غیاث إلی عبّادان وهو موضع رباط، فاجتمع إلیه البصریّون، فقالوا: لا تحدّثنا عن ثلاثهٔ؛ أشعث بن عبد الملک، وعمرو بن عُبید، وجعفر بن محمّد. فقال: أمّا أشعث فهو لکم، وأمّا عمرو فأنتم أعلم به، وأمّا جعفر فلو کنتم بالکوفهٔ لأخذتکم النّعالُ المُطرَقَهٔ.

قال ابن أبی حاتم: سمعت أبا زُرعهٔ، وسُئِلَ عن جعفر بن محمّد، عن أبیه، وسُهیل عن أبیه، والعلاء عن أبیه، أیّها أصحّ؟ قال: لا یُقْرَنُ جعفر إلی هؤلاء. وسمعت أبا حاتم یقول: جعفر لا یُسأل عن مثله.

قلت: جعفر، ثقهٌ صدوق، ما هو فی الثبت کشعبهٔ، وهو أوثق من سهیل وابن إسحاق. وهو فی وزن ابن أبی ذئب ونحوه. وغالب روایاته عن أبیه مراسیل.

قال أبو أحمد بن عدی: له حدیث کثیر عن أبیه، عن جابر وعن آبائه، ونُسَخٌ لأهل البیت. وقد حدّث عنه الأئمّهٔ، وهو من ثقات الناس کما قال ابن معین.

وعن عمرو بن أبی المِقدام قال: کنت إذا نظرت إلی جعفر بن محمّد علمت أنّه من سلالهٔ النبیّین، قد رأیته واقفاً عند الجمرهٔ یقول: سَلُونی، سَلُونی.

وعن صالح بن أبی الأسود، سمعتُ جعفر بن محمّد یقول: سلونی قبل أن تفقدونی، فإنّه لا یُحدِّثکم أحدٌ بعدی بمثل حدیثی.

ابن عقدهٔ الحافظ، حدّثنا جعفر بن محمّد بن حسین بن حازم، حدّثنی إبراهیم بن محمّد الرمّانی أبو نجیح، سمعت حسن بن زیاد، سمعت أبا حنیفهٔ، وسئل: مَنْ أفقه من رأیت؟

قال: ما رأیت أحداً أفقه من جعفر بن محمّد، لمّا أقدمه المنصور الحیرهٔ، بعث إلیَّ فقال: یا أبا حنیفهٔ، إنّ الناس قد فُتِنُوا بجعفر بن محمّد، فهیّئ له من مسائلک الصِّعاب. فهیّأت له أربعین مسألهٔ. ثمّ أتیت أبا جعفر، وجعفر جالس عن یمینه، فلمّا بَصرتُ بهما، دخلنی لجعفر من الهیبهٔ ما لا یدخلنی لأبی جعفر، فسلّمت وأذن لی، فجلست. ثمّ التفتَ إلیَّ جعفر، فقال: یا أبا عبدالله، تعرِفُ هذا؟ قال: نعم. هذا أبو حنیفهٔ. ثمّ أتبعها: قد أتانا.

۱- هو حديث طويل وصف فيه جابر رضى الله عنه ما شاهده من أفعال النبىّ ۹ وأقواله فى حجّة الوداع. رواه مسلم فى الحجّ باب حجّة النبىّ ۹.

ص: ۵۹

ثمّ قال: یا أبا حنیفهٔ، هات من مسائلک نسأل أبا عبدالله، فابتدأت أسأله. فکان یقول فی المسألهٔ: أنتم تقولون فیها کذا وکذا، وأهل المدینهٔ یقولون کذا وکذا، ونحن نقول کذا وکذا، فربما تابَعَنا وربما تابعَ أهل المدینهٔ، وربما خالفنا جمیعاً، حتّی أتیت علی أربعین مسألهٔ ما أخرِمُ منها مسألهٔ. ثمّ قال أبو حنیفهٔ: أ لیس قد روینا أنّ أعلم الناس أعلمهم باختلاف الناس؟!

وبه، قال أبو نُعیم: حدّثنا أبو أحمد الغِطرِیفی، حدّثنا محمّد بن أحمد بن مُکرَم الضّبی، حدّثنا علیّ بن عبد الحمید، حدّثنا موسی بن مسعود، حدّثنا سفیان قال: دخلتُ علی جعفر بن محمّد وعلیه جبّهٔ خزّ دکناء أبدجانی فجعلتُ أنظر إلیه تعجّباً، فقال: ما لکَ یا ثوریّ؟ قلت: یا ابن رسول الله، لیس هذا من لباسک، ولا لباس آبائک، فقال: کان ذاک زماناً مقتراً، وکانوا یعملون علی قدر إقتاره وإفقاره، وهذا زمان قد أسبل کلّ شیء فیه عزالیه (۱). ثمّ حسر عن ردن جبّته، فإذا فیها جبّهٔ صوف بیضاء یقصر الذیلُ عن الذّیلِ، وقال: لبسنا هذا لله، وهذا لکم، فما کان لله أخفیناه، وما کان لکم أبدیناه.

وقیل: کان جعفر یقول: کیف أعتذر وقد احتججت، وکیف أحتج وقد علمت؟

روی یحیی بن أبی بکیر عن هیّاج بن بسطام، قال: کان جعفر بن محمّد یُطعم حتّی لا یَبقی لعیاله شیء.

قال المدائنی، وشباب العُصفری، وعدّهٔ: مات جعفر الصادق فی سنهٔ ثمان وأربعین ومائهٔ. وقد مرَّ أنّ مولده سنهٔ ثمانین، أرّخه الجِعَابی (۲)، وأبو بکر بن منجویه، وأبو القاسم اللّالکائی (۳)، فیکون عمره ثمانیاً وستّین سنهٔ رحمه الله.

لم یخرج له البخاری فی الصحیح، بل فی کتاب الأدب وغیره.

وله عدّهٔ أولاد: أقدمهم إسماعیل بن جعفر ومات شابّاً فی حیاهٔ أبیه، سنهٔ ثمان وثلاثین ومائهٔ، وخلّف محمّداً وعلیّاً وفاطمهٔ، فکان لمحمّد من الولد جعفر وإسماعیل فقط، فولد جعفر محمّداً، وأحمد دَرَجَ، ولم یُعقب، فولد لمحمّد بن جعفر، جعفر وإسماعیل وأحمد وحسن، فولد لحسن جعفر الذی مات بمصر سنهٔ ثلاث وتسعین ومائتین، وخلّف ابنه محمّداً، فجاءه خمسهٔ بنین، وولد لإسماعیل بن محمّد، أحمد ویحیی ومحمّد وعلی دَرَج ولم یُعقب، فولد لأحمد جماعهٔ بنین، منهم إسماعیل بن أحمد المتوفّی بمصر سنهٔ خمس وعشرین وثلاثمائهٔ، فبنُوا محمّد بن إسماعیل بن جعفر عدد کثیر کانوا بمصر، وبدمشق وقد استوعبهم الشریف العابد أبو الحسین محمد بن علیّ بن الحسین بن أحمد بن إسماعیل بن محمّد بن إسماعیل بن جعفر الصادق، ویُعرف هذا بأخی مُحسّن، کان یسکن بباب توما (۴). مات قبل الأربعمائهٔ. وذکر منهم قوماً بالکوفهٔ. وبالغ فی نفی عُبید الله المهدی من أن یکون من هذا النسب الشریف، وألّف کتاباً فی أنّه دعی، وأنّ نحلته خبیثهٔ، مدارها علی المخرقهٔ والزندقهٔ.

رجعنا إلی تتمّهٔ آل جعفر الصادق، فأجلّهم وأشرفهم ابنه:

موسی الکاظم (ت، ق). الإمام، القوهٔ، السیّد أبو الحسن العلوی، والد الإمام علیّ بن موسی الرضا، مدنیّ نزل بغداد.

وحدّث بأحادیث عن أبیه، وقیل: إنّه روی عن عبدالله بن دینار، وعبد الملک بن قدامهٔ.

حدّث عنه أولاده: علیّ، وإبراهیم، وإسماعیل، وحسین. وأخواه: علیّ بن جعفر، ومحمّد بن جعفر، ومحمّد بن صدقهٔ العنبری، وصالح بن یزید، وروایته یسیرهٔ لأنّه مات قبل أوان الروایهٔ، رحمه الله.

ذکره أبو حاتم فقال: ثقهٔ، صدوق، إمام من أئمّهٔ المسلمین.

قلت: له عند الترمذی، وابن ماجهٔ حدیثان.

قیل: إنّه ولد سنهٔ ثمان وعشرین ومائهٔ بالمدینهٔ.

قال الخطیب: أقدمه المهدی بغداد، وردّه، ثمّ قدمها. وأقام ببغداد فی أیّام الرشید، قدم فی صحبهٔ الرشید سنهٔ تسع وسبعین ومائهٔ، وحبسه بها إلی أن توفّی فی محبسه.

۱- العزالی: جمع العزلاء، وهو فم المزادهٔ الأسفل.

۲- هو الحافظ أبو بکر محمّد بن عمر بن محمّد التمیمی البغدادی، له ترجمهٔ فی تذکرهٔ الحفّاظ: ۹۲۵: ۳.

۳- هو الإمام أبو القاسم هبهٔ الله بن الحسن بن منصور الطبری الرازی. له ترجمهٔ فی تذکرهٔ الحفّاظ: ۱۰۸۳: ۳.

۴- قال یاقوت فی معجم البلدان: باب توماء: أحد أبواب مدینهٔ دمشق؛ لمّا حاصر المسلمون دمشق فی أیّام أبی بکر، نزل أبو عبیدهٔ من قِبل باب الجابیهٔ، ونزل خالد بن الولید بدیر یُقال له: دیر خالد بالجانب الشرقی، ونزل یزید ابن أبی سفیان بباب توماء؛ فقال عبد الرحمن بن أبی سرح وکان من أصحاب یزید بن أبی سفیان:

ألا أبلغ أبا سفیان عنّا بأنّنا

علی خیر حال کان جیشٌ یکونها

وأنّا علی باب لتوماء نرتمی

وقد حان من باب لتوما حیونُها

ص: ۶۰

ثمّ قال الخطیب: أنبأنا الحسن بن أبی بکر، أنبأنا الحسن بن محمّد بن یحیی العلوی، حدّثنی جدّی یحیی بن الحسن بن عُبید الله بن الحسین بن علیّ بن الحسین، قال: کان موسی بن جعفر یُدعی العبد الصالح من عباداته واجتهاده.

روی أصحابنا أنّه دخل مسجد رسول الله (ص) فسجد سجدةً فی أوّل اللیل، فسمع وهو یقول فی سجوده: عَظُم الذنبُ عندی فلیحسُن العفو من عندک، یا أهل التقوی، ویا أهلَ المغفرة، فجعل یُردّدها حتّی أصبح.

وکان سخیّاً کریماً، یبلغه عن الرجل أنّه یُؤذیه فیبعث إلیه بصرّة فیها ألف دینار. وکان یصرُّ الصُّرر بثلاثمائة دینار، وأربعمائة، ومائتین، ثمّ یقسِمُها بالمدینة، فمن جاءته صُرّة، استغنی. حکایة منقطعة، مع أنّ یحیی بن الحسن متّهم.

ثمّ قال یحیی هذا: حدّثنا إسماعیل بن یعقوب، حدّثنا محمّد بن عبدالله البکری، قال: قدمتُ المدینة أطلب بها دَیْناً، فقلت: لو أتیتَ موسی بن جعفر فشکوتَ إلیه، فأتیته بنَقَمَی (۱) فی ضیعته، فخرج إلیَّ، وأکلتُ معه، فذکرت له قصّتی فأعطانی ثلاثمائة دینار.

ثمّ قال یحیی: وذکر لی غیرُ واحد، أنّ رجلًا من آل عمر کان بالمدینة یؤذیه ویشتم علیّاً، وکان قد قال له بعض حاشیته: دعنا نقتله، فنهاهم، وزجرهم.

وذُکر له أنّ العُمریّ یزْدَرِعُ بأرض، فرکب إلیه فی مزرعته، فوجده، فدخل بحماره، فصاحَ العُمَریّ: لا توطّئ زرعنا فوطئ بالحمار حتّی وصل إلیه، فنزل عنده وضاحکه. وقال: کم غرِمت فی زرعک هذا؟ قال: مائة دینار. قال: فکم ترجو؟ قال: لا أعلم الغیب وأرجو أن یجیئنی مائتا دینار. فأعطاه ثلاثمائة دینار. قال: هذا زرعُک علی حاله. فقام العُمریّ فقبّل رأسه، وقال: الله أعلمُ حیثُ یجعل رسالاته. وجعل یدعو له کلّ وقت. فقال أبو الحسن لخاصّته الذین أرادوا قتل العمری: أیما کان خیرٌ؟ ما أردتم أو ما أردت أن أصلح أمره بهذا المقدار؟

قلت: إن صحّت، فهذا غایة الحلم والسماحة.

وقال الخطیب: أنبأنا أبو العلاء الواسطی، حدّثنا عمر بن شاهین، حدّثنا الحُسین بن القاسم، حدّثنی أحمد بن وهب، أخبرنی عبد الرحمن بن صالح الأزدی، قال: حجَّ الرشید فأتی قبر النبیّ (ص) ومعه موسی بن جعفر، فقال: السلام علیک یا رسول الله، یا ابن عمّ، افتخاراً علی من حوله. فدنا موسی وقال: السلام علیک یا أبهْ. فتغیّر وجه هارون، وقال: هذا الفخر یا أبا الحسن حقّاً.

قال یحیی بن الحسن العلوی: حدّثنی عمّار بن أبان قال: حبس موسی بن جعفر عند السندی بن شاهک، فسألته اخته أن تولّی حبسَهُ وکانت تَدَیَّنُ، ففعل. فکانت علی خدمته، فحکی لنا أنّها قالت: کان إذا صلّی العَتَمَهْ، حمدَ الله ومجّده ودعاه. فلم یَزل کذلک حتّی یزول اللیل. فإذا زالَ اللیل، قام یُصلّی حتّی یُصلّی الصبح. ثمّ یذکر حتّی تطلع الشمس، ثمّ یقعد إلی ارتفاع الضحی، ثمّ یتهیّأ ویستاک، ویأکل. ثمّ یرقد إلی قبل الزوال، ثمّ یتوضّأ ویُصلّی العصر، ثمّ یذکر فی القبلة حتّی یُصلّی المغرب، ثمّ یُصلّی ما بین المغرب إلی العَتَمة.

فکانت تقول: خابَ قومٌ تعرّضوا لهذا الرجل. وکان عبداً صالحاً.

وقیل: بعث موسی الکاظم إلی الرشید برسالة من الحبس یقول: إنّه لن ینقضی عنّی یوم من البلاء إلّا انقضی عنک معه یومٌ من الرّخاء حتّی نُفضیَ جمیعاً إلی یوم لیس له انقضاء یخسرُ فیه المُبطلون.

وعن عبد السلام بن السندی قال: کان موسی عندنا محبوساً، فلمّا مات، بعثنا إلی جماعة من العدول، من الکَرْخ فأدخلناهم علیه، فأشهدناهم علی موته، ودُفن فی مقابر الشونیزیّة.

۱- قال یاقوت فی معجم البلدان: نقمی بالتحریک والقصر من النقمة وهی العقوبة، مثل الجَمَزَی من الجمز: بجانب أُحد، کان لآل أبی

طالب.

ص: ۶۱

قلت: له مشهدٌ عظیم مشهورٌ ببغداد. دُفن معه فیه حفیده الجواد. ولولده علیّ بن موسی مشهدٌ عظیم بطُوس. وکانت وفاهٔ موسی الکاظم فی رجب سنهٔ ثلاث وثمانین ومائهٔ. عاش خمساً وخمسین سنهٔ وخلف عدّهٔ أولاد. الجمیع من إماء: علیّ، والعبّاس، وإسماعیل، وجعفر، وهارون، وحسن، وأحمد، ومحمّد، وعبید الله، وحمزهٔ، وزید، وإسحاق، وعبد الله، والحُسین، وفضل، وسلیمان، سوی البنات، سمَّی الجمیع: الزبیر فی «النسب».

انتهی کلام الذهبی.

بعد هذا کلّه، لم یبق من موانع قبول حدیث الشیعهٔ وروایاتهم إلّا قضیّهٔ وثاقتهم أنفسهم وصدقهم فی مقالهم وإنّ المسلم المنصف إذا راجع تراجم الرجال ووصف الرواهٔ فی المعاجم المعدّهٔ لذلک لیری کوضح النهار أنّ شأن الشیعهٔ فی الوثاقهٔ والصدق لا یقلّ- علی الأقلّ- من شأن غیرهم من المسلمین الذین رووا، ولا أنّ أمرهم من ذلک أنقص- علی الأقلّ- من أمر غیرهم؛ فتری أنّ أصحاب التراجم وکتب الرجال علی اختلاف مشاربهم ومذاهبهم یذکرون کثیراً من الشیعهٔ ویعترفون لهم بصدق الحدیث والأمانهٔ فی القول بعدما وصفوهم بالتشیّع فی المذهب، وربّما سبّوهم أو لعنوهم لمذهبهم، ولکن لم یکن عندهم مجال للقدح فیهم من حیث الوثاقهٔ ولا لهم مناص من الاعتراف بالصدق.

فلم یؤخذ علیهم إلّا أنّ مذهبهم التشیّع ولا رأوا لهم زلّهٔ إلّا موالاتهم لأهل بیت نبیّهم (ص)، وقد جمع الإمام السیّد شرف الدِّین العاملی فی کتابه المراجعات ما یزید علی مائهٔ ممّن وصف بالتشیّع مع الاعتراف من مخالفیهم لهم بالصدق والاعتماد إلیهم فی الحدیث والرکون إلیهم فی الروایهٔ.

ویکفیک فی هذا المجال أن تراجع کتاب الذهبی الذی قلّما یشذّ عن سبّه ولعنه شیعیّ أو ینجو من طعنه ولسانه موالی لأهل البیت (علیهم السلام)، ومع ذا وذاک فاعترافه بوثاقهٔ جمٍّ غفیر من الشیعهٔ بیِّن، ومصادقته لهم علی الوثاقهٔ فی طیّات کتابه غیر خفیّ، وکفی بذلک فضلًا.

قال الذهبی فی سالم بن أبی حفصهٔ العجلی الکوفی: رأی ابن عبّاس وروی عن الشعبی وطائفهٔ؛ وعنه السفیانان ومحمّد بن فضیل.

قال الفلّاس: ضعیف مفرط فی التشیّع، وأمّا ابن معین فوثّقه.

وقال النسائی: لیس بثقهٔ.

وقال ابن عدی: عیب علیه الغلوّ، وأرجو أنّه لا بأس به (۱).

أقول: إنّما عابوا علیه تشیّعه أو غلوّه حسب زعمهم.

وقال فی محمد بن فضیل بن غزوان: کوفیّ صدوق مشهور؛ وثّقه ابن معین.

وقال أحمد: حسن الحدیث شیعی.

وقال أبو داود: کان شیعیّاً محترفاً.

وقال ابن سعد: بعضهم لا یحتجّ به، وله تصانیف.

وقال النسائی: لا بأس به (۲).

أقول: ظنّی أنّ عدم احتجاج البعض لتشیّعه ولم یؤخذ علیه إلّا ذلک وکم له من نظیر.

وعلی أیّهٔ حال، فهذا الذی أشرنا إلیه غیضٌ من فیض فی توثیق رجالات الشیعهٔ بعد الاعتراف بتشیّعهم، ومن أراد الزیادهٔ فلیراجع کتب التراجم.

۱- ميزان الاعتدال ۱۱۰: ۲.

۲- ميزان الاعتدال ۹: ۴.

ص: ۶۲

وقد جرت سيرة الناس عامة على نسبة المذاهب إلى أصحابها بواسطة ثبوتها عن طريق أتباعهم وشيعتهم؛ فهذه فتاوى الشافعي ومالك وأبي حنيفة وغيرهم محسوبة عليهم عند أهل السنّة؛ وإنّما نقلها عنهم أتباع مدارسهم وتلامذتهم مباشرةً أو بواسطة أو وسائط.

وثبوت مذهب أهل البيت (عليهم السلام) عنهم لا يشذّ عن هذا الوجه ولا ينبغي أن يتخلّف عن هذا المسلك.

ص: ۶۳

ص: ۶۴

فقه الحج

السياسة وفقه الحج

هل السياسة بعيدة عن الحج وفقهه وقضاياه؟ وهل يفترض بحقّ تحييد الحج عن قضايا السياسة؟ وهل يلعب الحج دوراً فى الحياة السياسية؟

هناك فى أوساط العلماء والفقهاء المسلمين أكثر من اتجاه يختلف فى هذه القضية التى التبس فيها الأمر.

الاتجاه الأول: ويذهب هذا الفريق إلى علمنة العبادات الدينية عموماً، ويرى أن الفقه الإسلامى يقدّم العبادات معلمنة خالية من أى علاقة أو دور فى الحياة السياسية العامّة؛ فنحن إذا قرأنا كتب بعض الفقهاء المسلمين عندما يتحدثون عن العبادات بشكل عام، والحج بصورة خاصّة، نجد غياباً تاماً للسياسة والاجتماع؛ فهل تجد أن هناك كلمة لهذا الفقيه أو ذاك فى ربط الصوم بواقع الاجتماع الإسلامى والسياسة؟ ومتى وجدنا ربطاً فى كلمات الفقه الإسلامى بين الصلاة وقضايا المسلمين الكبرى؟

إن الذى يسود التصوّرات الفقهيّة للعبادات، هو منطق علمانى بشكل تام أو شبه تام؛ لهذا يرى أنصار الاتجاه الأوّل أن من الطبيعى الفصل بين فقه العبادات عامة- والحج خاصة- وبين قضايا السياسة والاجتماع؛ لأن هذا هو الأمر الطبيعى الذى يخرج به أىّ مطالع لتراث المسلمين فى فقه العبادات.

إن الفصل بين الدين العبادى وبين السياسة أمر نجده حتى فى طبيعة الأعمال الفكرية لبعض الذين لايؤمنون بالفصل بين الدين والسياسة عامّة؛ فالعبادات ظلّت الجانب المحايد فى الدين عن قضايا الاجتماع السياسى، بل نحن نجد فى ثقافة المسلمين اليوم نزعة ميّالة لتحييد دُوْر العبادة وبيوتها أيضاً عن الاجتماع والسياسة؛ فتراهم يقولون: المسجد لله؛ وليس للعمل السياسى لهذا الحزب أو ذاك التنظيم أو ذلك التجمّع .. حيّدوا المساجد عن الصراعات السياسية!!

وعندما يكبر هذا المسجد ليصير المسجد الحرام أو المسجد النبوى الشريف، فمن الطبيعى أن يتضاعف الصوت المطالب بتحييد هذين المسجدين عن مثل ذلك، وبهذه الطريقة تمّت علمنة العبادات، وهى علمنة ساهم فيها بعض الفقهاء المسلمين أنفسهم قديماً وحديثاً.

۱- نقد نظرية علمنة العبادات

والذى نلاحظه على اتجاه علمنة العبادات الدينية:

أولًا: إذا وجدنا فى النصوص التى هى مرجع عمل الفقهاء وفتاواهم ما يؤكد لنا الدور السياسى للعبادات وبيوت الصلاة والدعاء؛ فسنكون مضطرين لاستبدال مرجعية الفقه الموروث بمرجعية أخرى هى الأصل و الأساس، عنيت مرجعية الكتاب والسنّة، لأن الفقه هو الفرع الذى يخرج من ذاك الأصل، فلا يصحّ له أن يتخطاه أو يتجاوزه.

وإذا رجعنا إلى العبادات فى الكتاب والسنّة سنجد المدلول السياسى والاجتماعى حاضراً؛ فالأحاديث تذكر- ومنها خطبة الرسول الأكرم (ص) فى استقبال شهر رمضان المبارك- أن الصوم يبعث على إحساس طبقات المجتمع ببعضها، أى إنّه يساعد على تقصير المسافة بين الطبقة الغنية والطبقة الفقيرة، وبهذا ندخل- شئنا أم أبينا- فى سياق سياسى داخلى، فى علاقات طبقات المجتمع ببعضها؛ لأن السياسة لا تعنى قضايا الحرب والسلم فحسب، بل تطال- بالمفهوم العام- مختلف قضايا الاجتماع الإسلامى العامّة.

ص: ۶۵

وهكذا عندما نجد أن الصلاة والحج و ... فيها مثل هذه الخصوصيات، كما سوف نلمح بعون الله تعالى.

ثانياً: لنفرض أن النصوص ليس فيها أىّ إشارة لهذا الموضوع، لكن تحليل بعض هذه العبادات يدفعنا للاقتناع بذلك، فالخمس والزكاة بأنواعهما من العبادات فى الرأى الفقهى السائد، هل يستطيع أحد أن يفصلهما عن المفهوم السياسى العام؟! ألا يدخلان فى السياسة الاقتصادية وفى علاقات الناس ببعضها؟!

ثالثاً: لنفرض أننا تنازلنا عن الأمرين السابقين، لكن وجدنا بالتجربة أنه يمكن توظيف هذه العبادة أو تلك فى الصالح العام للمسلمين، هل يكون تفعيل دور العبادات فى الصالح العام أمراً مرفوضاً؟! هل القاعدة العامة ترفض ذلك إذا استطعنا تجنّب بعض سلبيات التطبيق أم تدعمه؟! إذا جعلنا من الحج مؤتمراً سنوياً ليفتح المسلمون فيه قلوبهم لبعضهم، ويطرحوا فيه قضاياهم، ويتعرّفوا على أوضاعهم، ويتبادلوا الرأى فى حلّ مشكلاتهم الكبرى، هل قوله تعالى- فى الآية التى ذكرت محرّمات الحج-: فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِي الْحَجِّ (۱) تحظر مثل هذا الأمر، أم أن العمومات والقواعد العامّة تساعد عليه، مثل الحديث الشريف: «من لم يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم، ومن سمع رجلًا ينادى: يا للمسلمين، فلم يجبه، فليس بمسلم» (۲)؟!

نعم، رفض علمانية العبادات وتعطيلها عن التأثير على حياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، يجب أن يلحظ معه بعض الأمور، حتّى لا يؤدى ذلك إلى التورّط فى بعض السلبيات، ومن هذه الأمور التى لا نقصدها ما يلى:

أ- الخلط بين القضايا السياسية والاجتماعية الكبرى، وبين المخاصمات الحزبية الضيقة أو الاستغلال الحزبى والسياسى المحدود الأفق للعبادات، فعندما نقول: إنّ المسجد له دور فى الحياة السياسية، وأنّ المسجد النبوى كان مركزاً للعمل السياسى فى حياة الرسول (ص)، وأنّه يمثل البرلمان الإسلامى على حدّ قول الدكتور على شريعتى .. عندما نقول ذلك، لا يعنى أن تنقسم مساجدنا انقساماً سياسياً، فهذا المسجد للجماعة الفلانية، وذاك للجماعة الأخرى، وهذا المسجد لا ندخله؛ لأنّه للحزب الفلانى، وآخر ندخله لأنه للحزب الآخر الذى ننتمى إليه.

وحتّى لو تخطينا المدلول الضيّق لتسييس المسجد، فإن الأمر عينه يجرى على مذهبة المساجد، فهذا المسجد شيعى إذاً فلا يدخله السنى، وهذا المسجد سنى إذاً فلا يدخله الشيعى، وذاك المسجد أباضى إذا فلا يدخله الإسماعيلى ...

هذا المعنى لتسييس المساجد ومذهبتها لا أساس له فى الدين، فههنا نقول: المسجد لله تعالى، هو للصلاة، هو بيت الله، لا بيت هذا الزعيم ولا ذاك، هو بيت الرحمن لا بيت هذا الحزب السياسى أو ذاك، هو بيت الصلاة، وليس بيت هذا المذهب أو ذاك.

وهذا ما يظهر جلياً فى المساجد والمشاهد الإسلامية الكبرى، فهى للمسلمين عموماً وإن تولاها هذا المذهب أو ذاك، أو هذه الجماعة السياسية أو تلك، أو هذا الزعيم أو ذاك، أو هذه الدولة أو تلك.

فعندما أدخل المسجد الحرام فأنا أدخل مسجد الله ومكان عبادته، ولا أدخل مسجداً سلفياً أو سعودياً أو عربياً، وهكذا عندما أدخل الحرم الرضوى فى مدينة مشهد فى إيران، فأنا لا أدخل مشهداً شيعياً ولا إيرانياً ...

نعم، هذا المعنى للتسييس مرفوض؛ إنّه استغلال لبيت الله وللعبادات وليس استخداماً له لخدمة الدين، فعلينا أن لا نخلط بين علاقة العبادة بالسياسة والاجتماع، وبين هذه المعانى الضيّقة للسياسة.

ب- تغيب الدور الروحى للعبادات؛ فعندما نتحدّث عن علاقة العبادات- ومنها الحج- بالسياسة والاجتماع الإسلاميين، فهذا لا يعنى تغييب أو إضعاف الدور الروحى للعبادات؛ حيث يفترض أن لا يكون هذا على حساب ذاك، ولا ذاك على حساب هذا، بل يفترض تحقيق التوازن الذى يضع كل واحدة فى موضعها؛ تفادياً لأىّ إفراط أو تفريط.

۱- البقرة: ۱۹۷.

۲- الكافي ۱۶۴: ۲.

ص: ۶۶

وبهذا يتبين أن اتجاه علمنة العبادات ليس اتجاهاً صائباً عند ما يؤخذ على إطلاقه.

۲- الحج واتجاه الاعتدال بين الحقّ والخلق

الاتجاه الثانى: وهو الاتجاه الذى يرى أن للعبادات وجهين: أحدهما روحى غيبى فى اتصاله مع الله سبحانه، وثانيهما اجتماعى- سياسى فى علاقته بالخلق، وأنه لا يصح تجاهل أحد الوجهين لصالح الآخر، بل يفترض إيجاد التوازن بينهما.

وطبقاً لهذا الإطار العام الذى يحكم العبادات، يجرى تطبيق المفهوم عينه على الحج، فللحج بُعد سياسى ووحدوى واجتماعى كما يقول الشيخ محمود شلتوت (۱)، ونجد ما ينصر هذا البعد فى آيات القرآن الكريم، قال تعالى: جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرامَ قِياماً لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرامَ وَ الْهَدْىَ وَ الْقَلائِدَ ... (۲)، فكلمة «قياماً» لها دلالة على مكانة هذه المسميات الواردة فى الآية فى إقامة شؤون الناس.

وقال سبحانه: وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَكُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَكُمْ فِيها خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۳)، وقال عز من قائل: لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ (۴).

فهذه الآيات تضع الهدى فى سياق تعاون اقتصادى يكفل فيه الغنىّ الفقير ليطعمه، فلا ينظر للجانب الروحى الصرف، وإنما يربط العبادة بجانبها الاجتماعى أيضاً.

من هنا، نميل إلى الاتجاه الثانى الذى يحافظ على كلا بُعدى العبادة، فلا يفرط هنا أو هناك، ونحن نجد فى السيرة النبوية كيف لم ينأى الرسول (ص) عن إقحام القضايا السياسية فى الحج، فلم يقل: إنّ الناس فى حج، ولا ينبغى فى أثناء العبادات أن نعلن البراءة من المشركين، بل أرسل علياً (ع) ليعلن هذا القرار السياسى الهام جداً، والذى أمره به القرآن الكريم فى مطلع سورة التوبة (۵).

نعم، قد نختلف فى كيفية وطريقة وآلية المحافظة على البعد السياسى فى الحج، وربما أرجّح طريقةً وترجّح أنت أخرى، وهذا شىء طبيعى لا يضرّ بأصل الحفاظ على الحيثية الاجتماعية والسياسية لهذه الفريضة، إنما حديثنا عن المبدأ الذى لا ينبغى هدره لأجل الخلاف فى التفاصيل والآليات.

بين فقه الحج و فقه الزيارة

فى قضية فقه الحج وفقه الزيارة، نجد أنّه لابدّ من دراسة هذا الموضوع ورصده على مستوى الاهتمام، فنحن نلاحظ وجود تيارات ثلاثة فى هذا المجال، وهى:

التيار الأول: يرى أنصار هذا التيار الفكرى والدينى والثقافى أن الزيارات مبدأ مرفوض، فلا معنى لزيارة القبور فى البقيع وغيرها، وأن الله تعالى قد نهانا عن ذلك من خلال السنّة النبوية، فالحاج عليه الذهاب إلى الحج وأداء أعماله ومناسكه، وأن لا يلتهى بمثل هذه الزيارات للقبور ونحوها عن أعمال الحج وذكر الله والتضرّع إليه، نعم زيارة الرسول الأكرم (ص) وردت بها السنّة من حيث زيارة المسجد النبوى.

التيار الثانى: ويرى أو يمارس اهتماماً عظيماً بأمر الزيارات، حتّى أننا نجده يذهب إلى الحجاز والزيارة حاضرة فى قلبه ومشاعره أكثر من حضور الحج نفسه، إنّه يعتقد أن الزيارات مقوّم أساس لإيمان المرء وأنّها يجب أن تكون فى سلّم الأولويات فى فقه الحج وقضاياه.

۱- محمود شلتوت، من توجيهات الإسلام: ۴۰۳، دار القلم، القاهرة.

۲- المائدة: ۹۷.

۳- الحج: ۳۶.

۴- الحج: ۲۸.

۵- التوبة: ۳.

ص: ۶۷

التيـار الثـالث: وهو الـذى نميـل إليه، فنحن نعتقـد أنّه لابـد من إصـلاحات على وجهـة نظر الفريق الأـوّل والثانى معاً؛ لوضع الأمور فى نصابها الطبيعى والصـحيح، فعلى مسـتوى الفريق الأوّل نقول: إن زيارة المشاهـد والمراقـد والأماكن التاريخيـة فى مكة والمدينة وعامة بلاد الحجاز ليست أمراً محرماً فى حـدّ نفسه حتّى نتشـدّد معه بهذه الطريقة، فأىّ مانع أن يرتبط الناس بهؤلاء العظماء فى البقيع وغيرها من وجوه وكبار أئمة أهل البيت النبوى والصـحابة والشـهداء وغيرهم، إنّه ارتباط بالقيم والمثل التى حملوها فى تاريخ حياتهم، وزيارة المشاهد التاريخية تذكّر بتاريخ الإسلام ليبقى راسخاً فى ذاكرة الحاجّ والمعتمر، يحدّث عن هؤلاء العظماء وعن ذاك التاريخ الحافل، بعـد عودته إلى موطنه، إنها مقاصد شـرعية عليا تظهر جلية فى هذا الأمر، وبدل أن نحاربها علينا أن ندعمها ونرسّـخها لربط الناس بهذا التاريخ وبهؤلاء الرجال.

نحن نعتقـد أنه حتى الرسائل العمليـة الفقهية يجب أن تحوى- ولو باختصار- موجزاً عن تاريخ الإسـلام فى بلاد الحجاز والشخصـيات الكبرى والأولى فى هـذا التاريخ؛ فالحاج عندما يذهب إلى هناك يذهب واعياً للتاريخ ولما هو موجود، فيكون حجّه عن وعى، فكلما رأى مَعْلَماً تـذكّر كل ذلك المجـد العريق للإسـلام، فبدل أن ندمّر هذه الذاكرة التاريخية العظيمة علينا المحافظة عليها، فإن فى ذلك ربط الناس- كما قلت- بالإسلام ومثله وقيمه.

نعم، نسـتدرك- وهنـا نتحـاور مع بعض أنصـار الفريق الثـانى أيضـاً- ونقول: قـد تصـدر هنـا أو هنـاك طرائق فى التعبير لا نتفق معها، فالحديث عن عدم الاهتمام بالحج و شعائره وعدم الحضور الروحى معها لصالح التفاعل العاطفى مع الزيارات فحسب ... هذا الحديث غير صـحيح إسـلامياً، ويجب ترشـيد النـاس الـذين لاـ نوايـا خبيثـة لهـم، ففى الزيـارات- كمـا فى أىّ عبـادة أخرى- يجب على الفقه الإسـلامى وعلى القيّمين على تطبيق الفقه والأخلاـق، أن ينتبهوا من أىّ ممارسـات مبالغ بها وتحوى إفراطاً وخروجاً عن جادّة الشـرع، ليقفوا فى وجهها حتّى لو كان فاعلها غير سـيئ النيـة، فيجب ممارسـة الإرشاد معه فى هـذا المجال أو ذاك، وهذا شـىء لا يحصل فى الزيارات فقط، بل يحصل فى كل الأمور، فإذا ارتكب بعض المسـلمين أخطاء فى إحياء المولـد النبوى الشـريف فلا يعنى ذلك حرمة إحياء هذا المولد، بل يعنى ضرورة تصحيح هذه الأخطاء لو كانت موجودة. وإذا فعل الحجاج خطأ ما فى طوافهم أو سعيهم فالمطلوب تصحيح الخطأ لا إلغاء الطواف والسعى.

نعم، من واجب علمـاء الـدين فى المـذاهب كافـة، أن ينتبهوا على الـدوام للأخطـاء التى يرتكبها عامـة الناس أثناء أدائهم لعبادة هنا أو هناك، وأن يكونوا المصـفاة التى تنقّى الـدين من الكادورات التى تعلق به، إما عن عمد وسوء نية من بعض الناس أو عن جهل وعدم قصـد سـيئ من آخرين، وهـذا يسـرى على المـذاهب كافـة ولا يختص بمـذهب أو بآخر، حتّى نضع كل اهتمامنا بمذهب وكأن أتباع المذاهب الأخرى منزهون عن ذلك أو مثله!!

إذن، فرفض الزيـارات بمعناهـا الواسع مرفوض لأنّه لا مبرّر شـرعى له، كـذلك إرخاء العنان للعامـة من الناس أن يفعلوا أو يعتقـدوا ما شاؤوا دون تصويب حركتهم أمر غير صـحيح؛ فالمفترض التوازن والسـير على جادّة الشـريعة، كلٌّ حسب مذهبه، ولا يصح لنا الدخول فى نوايـا النـاس وقصودهـا لاتهام هـذا بالشـرك وذاك بالغلو، وثالث بالتقصـير ورابع باللامبالاة، بل نتعامل مع الظاهر ونحمل المؤمن والمسلم على الأحسن، كما أمرنا فى الكتاب والسنة أن نتعامل بود وأخوة مع المسلمين.

ص: ۶۸

ص: ۶۹

(والفجر* و ليال عشر)

سورة الفجر سورة مكية وآياتها ثلاثون آية. بدأت بأقسام أربعة وَ الْفَجْرِ* وَ لَيالٍ عَشْرٍ* وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ* وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ ... فى هذه المقالة نقف عند الآيتين الأوليين فأكثر الكلام فيهما وأكتفى ببعض الإشارات أو الأقوال للآية وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ.

إن الأيام كلها عند الله تعالى- وهى من مخلوقاته- تعد أوقات بركة، وأبواب خير ورحمة للناس، إلا أن عملية التفضيل تبقى مع ذلك- أمراً وارداً فيها، كما هو فى كل شىء وفى كل ما خلق الله تعالى .. لهذا وبعد أن خلق الله سبحانه وتعالى الأرض ميّز بعضها على بعض، وفضل بعضها على بعض، وخلق الزمان وفضل بعض أيامه على بعضها الآخر، فخصّ بعض الشهور والأيام والليالى بمزايا وفضائل لا- تجدها فى غيرها، يعظم فيها الأجر، ويضاعف فيها الثواب من قبله سبحانه وتعالى، ويكثر فيها الفضل والعطاء، رحمة منه بعباده، و تشجيعاً لهم على الزيادة فى العمل الصالح والرغبة فى الطاعة، وعوناً منه تعالى لهم فى تجديد النشاط؛ ليحظى المسلم بنصيب وافر من التقوى، فالأجر والثواب .. ويتأهب للموت قبل قدومه ويتزود للآخرة قبل أوانها: وتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى.

فالأيام والأزمنة وكذا الأماكن، التى تميزها السماء وتفضلها على غيرها هى فى الحقيقة وقفات تدبر وتأمل و محطات تزوّد، كما وأنها مواسم مباركة تصب بخيرها علينا .. مواسم عبادة يحب الله تعالى أن يعبد فيها ويجزل فيها العطاء للعابدين، فصول يستدرك فيها الإنسان ما فاته ويسد الخلل، ويبدل النقص، ويعوض ما فاته فى حياته، فيستأنف نشاطاً سليماً مرضياً عند بارئه وخالقه عز وجل، وما من موسم من هذه المواسم الفاضلة، إلا وقد شرع لله تعالى فيه وظيفة من وظائف الطاعة يتقرب بها العباد إليه .. وإلا لله تعالى فيها لطيفة من لطائف كرمه، ونفحة من نفحاته يصيب بها من يشاء بفضله ورحمته، فالسعيد من اغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات خصوصاً المفضلة سماوياً، وتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من طاعات، فعسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار، ولا يصيبه شقاء بعدها، والنفحات جمع نفحة والنفحة لغةً تعنى الطيب الذى ترتاح له النفس. (۱)

وقد نسب إلى رسول الله (ص) قوله:

«إن لربكم فى أيام دهركم نفحات، فتعرضوا لها، لعل أحدكم أن يصيبه منها نفحة لا يشقى بعدها أبداً». (۲)

إن لَيالٍ عَشْر هى العشر الأوائل من ذى الحجة، وهو قول يعد أصحّ الأقوال كما يبدو من خلال دراسة أقوالهم العديدة فيها والتى سنأتى عليها، وهى تعد من أعظم المناسبات، فقد ثبت أن لهذه الليالى العشر الأوائل من شهر ذى الحجة فضلًا كبيراً نستقيه:

أولًا: من كتاب الله سبحانه وتعالى فقد قال الله تعالى:

وَ الْفَجْرِ* وَ لَيالٍ عَشْرٍ

وإذا أقسم الله بشىء دلّ هذا على عظم مكانته وفضله؛ إذ العظيم لا يقسم إلا بالعظيم.

ثانياً: من كونها أياماً معلومات شرع الله تعالى فيها ذكره المبارك، ويحظون فيها بمنافع عظيمة ويؤدون فيها أموراً أخرى كالذى حمله قوله تعالى:

لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳)

و هذه الأيام هى عشر ذى الحجة كما عليه الأكثر، حتى ورد كما نسب إلى رسول الله (ص) أنه شهد أنها أفضل أيام الدنيا.

۱- انظر المعجم الوسيط.

۲- انظر الدر المنثور للسيوطى.

۳- الحج: ۲۸- ۲۹.

ص: ۷۰

فعن جابر ۲ عن النبى (ص) قال:

«أفضل أيام الدنيا أيام العشر- يعنى عشر ذى الحجة- قيل: ولا مثلهن فى سبيل الله؟ قال: ولا مثلهن فى سبيل الله إلا رجل عفر وجهه بالتراب.»

ثالثاً: مما صح من الأحاديث عن رسول الله (ص) التى توضح فضلها؛

فعن ابن عباس عن النبى (ص) أنه قال: ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من هذه الأيام العشر فقالوا: يا رسول الله! ولا الجهاد فى سبيل الله؟ فقال: ولا الجهاد فى سبيل الله إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشىء»

«أنه ما من أيام أحب إلى الله تعالى العمل فيهن من هذه الأيام، يعنى أيام العشر، قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله يا رسول الله؟ قال: ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن يخرج الرجل بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشىء».

رابعاً: من العبادات: الصلاة والصيام والصدقة والحج .. فمن أظهر أسباب فضل وامتياز هذه الأيام العشر من ذى الحجة، اجتماع أفضل العبادات فيها، وهى الصلاة والصيام والصدقة والحج ..

وفى الفتح قال الحافظ ابن حجر: «والذى يظهر أن السبب فى امتياز عشر ذى الحجة لمكان اجتماع أمهات العبادة فيها، وهى الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يتأتى ذلك فى غيره». «... وإن صيام يوم منها يعدل بصيام سنة، والعمل فيهن يضاعف بسبعمائة ضعف».

«ما من أيام أحب إلى الله أن يُتعبد له فيها من عشر ذى الحجة، يعدل صيام كل يوم منها بسنة وكل ليلة منها بقيام ليلة القدر».

وفى التاج الجامع قالت أم سلمة أو حفصة: كان النبى (ص) يصوم تسع ذى الحجة ويوم عاشوراء. وفى الهامش: إلا إذا كان فى الحج فلا يصوم عرفة.

و صيام يوم عاشور فيه كلام ليس هذا محله.

وعن أبى هريرة عن النبى (ص) أنه قال: «ما من أيام أحب إلى الله أن يتعبد له فيها من عشر ذى الحجة يعدل صيام كل يوم منها بصيام سنة وقيام كل ليلة منها بقيام ليلة القدر».

رواه الترمذى وإن كان سنده ضعيفاً كما يشيرون، ولكنهم يؤيدونه بالذى قبله ثم يقولون: ومعناه أن الله تعالى يحب العبادة فى عشر ذى الحجة أكثر من كل وقت، بل ثواب صوم اليوم الواحد منهنّ كثواب صوم سنة، وقيام الليلة فيها كقيام ليلة القدر، وهذا ترغيب عظيم وفضل الله أعظم.

وفى هامش الصفحة ۹۴: ۲ من التاج: وهى التى أقسم الله بها فى قوله تعالى:

وَ الْفَجْرِ* وَ لَيالٍ عَشْرٍ* وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ* وَ اللَّيْلِ إِذا يَسْرِ* هَلْ فِى ذلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ

وهى العشر الأول من ذى الحجة. فالعمل الصالح فى هذه العشر أفضل منه فى كل وقت، إلا من خرج يجاهد بنفسه وماله فى سبيل الله فاستشهد فإن درجته أعظم. (۱)

ومعروف أن الصيام، وهو من أعظم الأعمال الصالحة، وهو العبادة التى لا يمكن أن يدخلها رياء، يمتاز بأن الله تعالى اصطفاه لنفسه كما فى الحديث القدسى: قال الله تعالى: «كل عمل بنى آدم له إلا الصيام فإنه لى وأنا أجزى به».

خامساً: من استحباب التبكير إلى الفرائض فى هذه الليالى والأيام والإكثار من التكبير فقد نسب الى رسول الله (ص) القول:

۱- صحيح البخارى ومسلم. والترمذى. والتاج الجامع للأصول فى أحاديث الرسول ۹ للشيخ منصور على ناصف ۹۴: ۲. الترغيب والترهيب للمنذرى.

ص: ۷۱

«ما من أيام أعظم عند الله سبحانه ولا أحب إليه العمل فيهنّ من هذه الأيام العشر، فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد».

«فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير وذِكْر الله ..»

وعن الصادق (ع): «إن أبواب السماء لا تغلق تلك الليلة لأصوات المؤمنين، لهم دوى كدوى النحل يقول الله عز وجل: أنا ربكم وأنتم عبادى، أديتم حقى وحقٌّ على أن أستجيب لكم، فيحط تلك الليلة عمن أراد أن يحط عنه ذنوبه ويغفر لمن أراد أن يغفر له».

حتى قال الشيخ الصدوق فى عقب هذه الرواية: فإذا ازدحم الناس فلم يقدروا على أن يتقدموا ولا يتأخروا كبروا فإن التكبير يذهب بالضغاط. (۱)

ولأهمية التكبير وفضيلته قال بعضهم: فالتكبير المطلق يجوز من أول ذى الحجة إلى أيام العيد، له أن يكبر فى الطرقات وفى الأسواق، وفى منى، ويلقى بعضهم بعضاً فيكبر الله ويكبر أهل الأسواق حتى ترتج منى تكبيراً .. والتكبير المقيد فهو ما كان عقب الصلوات الفرائض، وخاصة إذا أديت فى جماعة، وكذلك فى مصلى العيد .. فى الطريق إليه، وفى الجلوس فيه، على الإنسان أن يكبر، ولا يجلس صامتاً .. سواء فى عيد الفطر، أو عيد الأضحى؛ لأن هذا اليوم ينبغى أن يظهر فيه شعائر الإسلام، ومن أبرز هذه الشعائر التكبير .. وقد قيل: «زيّنوا أعيادكم بالتكبير».

سادساً: من استحباب الإكثار من النوافل وأفضلها قيام الليل، فإن أبواب السماء لا تغلق فى تلك الليالى فهى ليالى الرحمة والمغفرة ..

سابعاً: استحباب الإكثار من السجود؛ لقوله (ص):

«عليك بكثرة السجود لله، فإنك لا تسجدلله سجدة إلا رفعك الله بها درجة، وحط عنك بها خطيئة» (۲)

ثامناً: من استحباب الإكثار من التصدق والإنفاق وفعل غيرهما من أعمال البر والخير والصلاح .. فعن ابن عباس حول العمل الصالح فيها أن رسول الله (ص) قال: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام، يعنى أيام العشر، قالوا يا رسول الله! ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله ثم لم يرجع بشىء».

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله (ص): «ما من أيام أفضل عند الله، ولا العمل فيهن أحب إلى الله عز وجل من هذه الأيام».

تاسعاً: من ذلك اليوم العظيم؛ الحج عرفة: إنه يوم عرفة يوم الحج الأكبر، ويوم مغفرة الذنوب، ويوم العتق من النيران، ولو لم يكن فى عشر ذى الحجة إلا يوم عرفة لكفاها ذلك فضلًا.

و يوم عرفة هو: اليوم التاسع من ذى الحجة، حيث يقف الحجيج بعرفات (على بعد اثنى عشر ميلًا من مكة)، والوقوف بعرفات ركن الحج الأعظم لقول النبى (ص): «الحج عرفة»، وهو يوم مبارك، وهو:

«أفضل الأيام يوم عرفة».

«مَا مِنْ يَوْمٍ أَفْضَلُ عِنْدَ اللهِ مِنْ يَوْمِ عَرَفَةَ، يَنْزِلُ اللهُ تَعَالَى إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا فَيُبَاهِى بِأَهْلِ الْأَرْضِ أَهْلَ السَّمَاءِ».

كلاهما عن الصحابى الجليل جابر عن رسول الله (ص).

وفى رواية: «إِنَّ اللهَ يُبَاهِى بِأَهْلِ عَرَفَةَ مَلائِكَتَهُ، فَيَقُولُ: يَا مَلائِكَتِى، انْظُرُوا إِلَى عِبَادِى، قَدْ أَتَوْنِى شُعْثًا غُبْرًا ضَاحِينَ».

كما يشهد لفضل يوم عرفة قول الله عز وجل: وَ الْفَجْر* وَ لَيالٍ عَشْرٍ

۱- من لا يحضره الفقيه ۱۴۱: ۲.

۲- رواه مسلم.

ص: ۷۲

وهو قَسَم يحمل عظمة هذه الأيام وعرفة منها، فالله عز وجل يقسم ببعض مخلوقاته لبيان فضلها، وقسمه سبحانه بالليالى العشر لبيان منزلتها، والترغيب بالعمل الصالح فيها .. إنه يوم مغفرة الذنوب والعتق من النار.

فعن الإمام الصادق (ع) أنه قال: «الحاج إذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه».

وقال أبو جعفر (ع): «ما يقف أحد على تلك الجبال بر ولا فاجر إلا استجاب الله له، فأما البر فيستجاب فى آخرته ودنياه، وأما الفاجر فيستجاب له فى دنياه».

وقال الصادق (ع): «ما من رجل من أهل كورة (المدينة والناحية) وقف بعرفة من المؤمنين إلا ـ غفر الله لأهل تلك الكورة من المؤمنين، وما من رجل وقف بعرفة من أهل بيت من المؤمنين إلا غفر الله لأهل ذلك البيت من المؤمنين».

«سمع على بن الحسين (عليهما السلام) يوم عرفة سائلًا يسأل الناس، فقال له: «ويحك أغير الله تسأل فى هذا اليوم؟ إنه ليرجى لما فى بطون الحبالى فى هذا اليوم أن يكون سعيداً».

«ومن أعتق عبداً له عشية يوم عرفة فإنه يجزى عن العبد حجة الإسلام ويكتب للسيد أجران: ثواب العتق وثواب الحج».

«وأعظم الناس جرماً من أهل عرفات الذى ينصرف من عرفات وهو يظن أنه لم يغفر له، يعنى الذى يقنط من رحمة الله عز وجل».

وقال الصادق (ع): «إذا كان عشية عرفة بعث الله عز وجل ملكين يتصفحان وجوه الناس، فإذا فقدا رجلًا قد عود نفسه الحج، قال أحدهما لصاحبه: يا فلان ما فعل فلان؟ قال: فيقول: الله أعلم، قال: فيقول أحدهما: اللهم إن كان حبسه عن الحج فقر فأغنه، وإن كان حبسه دين فاقض عنه دينه، وإن كان حبسه مرض فاشفه، وإن كان حبسه موت فاغفر له وارحمه». (۱)

وعن عائشة أن رسول الله (ص) قال:

«ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو، ثم يباهى بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء». قال ابن عبد البر: وهو يدل على أنهم مغفور لهم؛ لأنه لا يباهى بأهل الخطايا والذنوب إلا بعد التوبة والغفران.

وفى صيام هذا اليوم نسب إلى رسول‌الله ۹ القول:

«صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله، والسنة التى بعده». (۲)

فقالوا يستحب صيامه لغير الحاج، أما الحاج فلا ينبغى أن يصومه حتى يتقوى على الوقوف وذكر الله تعالى.

وعن صيام يوم عرفة- تحت باب صيام عرفة لغير الحاج فى التاج الجامع- نسب إلى رسول الله (ص) قوله:

عن أبى قتادة عن النبى (ص): «صيام يوم عرفة إنى أحتسب على الله أن يكفر السنة التى قبله والسنة التى بعده».

أحتسب على الله أى أرجوه، ورجاؤه (ص) محقق، فصوم يوم من عرفة يكفر ذنوب السنة الماضية والسنة الآتية، إن وقعت فيها ذنوب تقع مغفورة، والمراد الصغائر وإن لم تكن فيرجى التخفيف من الكبائر وإلا رفع له به درجات. (۳)

وفى أفضلية الدعاء فى يوم عرفة، روى الترمذى أن رسول الله (ص) قال:

«أفضل الدعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شىء قدير».

وروى أيضاً أن الإمام على بن أبى‌طالب (ع) قال:

أكثر ما دعا به النبى (ص) يوم عرفة فى الموقف:

۱- انظر من لا يحضره الفقيه للشيخ الصدوق ۱۴۰: ۲.

۲- صحيح مسلم.

۳- انتهى ما جاء فى هامش الصفحة ۹۵ من الجزء ۲ من الجامع.

ص: ۷۳

«اللهم لک الحمد کالذی نقول وخیراً مما نقول، اللهم لک صلاتی ونسکی ومحیای ومماتی، وإلیک مآبی ولک ربی تراثی. اللهم إنی أعوذ بک من عذاب القبر ووسوسة الصدر وشتات الأمر .... (۱)

عاشراً: وتقتبس فضیلتها من ذلک الیوم العظیم المبارک التاسع من ذی الحجة یوم إکمال الدین و إتمام النعمة ورضا الله تعالی، وقد نزل فیه قوله تعالی:

الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیتُ لَکُمُ الإِسْلامَ دِیناً (۲)

وعن مجمع البیان فی تفسیر الآیة: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ قیل فیه أقوال:

أحدها: أن معناه أکملت لکم فرائضی وحدودی وحلالی وحرامی بتنزیلی ما أنزلت وبیانی ما بینت لکم، فلا زیادة فی ذلک ولا نقصان منه بالنسخ بعد هذا الیوم، وکان ذلک یوم عرفة عام حجة الوداع عن ابن عباس والسدی واختاره الجبائی والبلخی قالوا: ولم ینزل بعد هذا علی النبی (ص) شیء من الفرائض فی تحلیل ولا تحریم وأنه مضی بعد ذلک بإحدی وثمانین لیلة، فإن اعترض معترض فقال: أکان دین الله ناقصاً وقتاً من الأوقات حتی أتمّه فی ذلک الیوم؟ فجوابه أن دین الله لم یکن إلا فی کمال کاملًا فی کل حال ولکن لما کان معرضاً للنسخ والزیادة فیه ونزول الوحی بتحلیل شیء أو تحریمه لم یمتنع أن یوصف بالکمال إذا أمن من جمیع ذلک فیه کما توصف العشرة بأنها کاملة، ولا یلزم أن توصف بالنقصان لما کانت المائة أکثر منها وأکمل.

وثانیها: أن معناه الیوم أکملت لکم حجکم وأفردتکم بالبلد الحرام تحجّونه دون المشرکین ولا یخالطکم مشرک، عن سعید بن جبیر وقتادة. واختاره الطبری قال: لأن الله سبحانه أنزل بعده: یَسْتَفْتُونَکَ قُلِ اللهُ یُفْتِیکُمْ فِی الْکَلالَةِ قال الفراء: وهی آخر آیة نزلت وهذا الذی ذکره لو صحّ لکان لهذا القول ترجیح لکن فیه خلاف.

وثالثها: أن معناه الیوم کفیتکم الأعداء وأظهرتکم علیهم، کما تقول: الآن کمل لنا الملک وکمل لنا ما نرید بأن کفینا ما کنا نخافه عن الزجاج.

والمروی عن الإمامین أبی جعفر وأبی‌عبدالله ۸ أنه إنما أنزل بعد أن نصب النبی ۹ علیاً ۷ علماً للأنام یوم غدیر خم منصرفه عن حجة الوداع قالا: وهو آخر فریضة أنزلها الله تعالی ثم لم ینزل بعدها فریضة.

وأما البخاری فقد روی بسنده: قالت الیهود لعمر: إنکم تقرءون آیة لو نزلت فینا لاتخذناها عیداً فقال عمر رضی الله عنه: إنی لأعلم حیث أنزلت، وأین أنزلت وأین کان رسول الله (ص) حین أنزلت: نزلت یوم عرفة إنا والله بعرفة قال سفیان: وأشک کان یوم الجمعة أم لا: الْیَوْمَ أَکْمَلْتُ لَکُمْ دِینَکُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِی وَرَضِیتُ لَکُمُ الإِسْلَامَ دِینًا (۳)

وإکمال الدین فی ذلک الیوم حصل؛ لأن المسلمین لم یکونوا حجوا حجة الإسلام من قبل فکمل بذلک دینهم لاستکمالهم عمل أرکان الإسلام کلها، ولأن الله أعاد الحج علی قواعد إبراهیم (ع)، ونفی الشرک وأهله فلم یختلط بالمسلمین فی ذلک الموقف منهم أحد.

وأما إتمام النعمة فإنما حصل بالمغفرة فلا تتم النعمة بدونها، کما قال الله تعالی لنبیه: لِیَغْفِرَ لَکَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِکَ وَمَا تَأَخَّرَ وَیُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَیْکَ (۴) وهی تختم بأول یوم من أیام عید الأضحی؛

فعن أبی أمامة أن النبی (ص) قال:

«یوم عرفة ویوم النحر وأیام التشریق عیدنا أهل الإسلام، وهی أیام أکل وشرب» (۵)

«فنزول هذه الآیة فی عرفة التی هی أظهر معالم الحج وفی یوم جمعة الذی هو عید الأسبوع معلنة بإکمال الدین وإتمام النعمة، واختیار أحسن الأدیان جدیر بأن یکون من أعظم الأعیاد فلله مزید الحمد ووافر الشکر». (۶)

۱- رواه الترمذى.

۲- المائدة: ۳.

۳- المائدة: ۳.

۴- الفتح: ۲.

۵- رواه أبو داود.

۶- انظر التاج الجامع للأصول للشيخ منصور على ناصف ۴: هامش ۱۰۲.

ص: ۷۴

حادى عشر: وتحظى بفضلها من يوم النحر وهو أعظم أيام السنة عند بعض العلماء، قال رسول الله (ص):

«أعظم الأيام عند الله يوم النحر، ثم يوم القر، ويوم القر هو اليوم الذى يلى يوم النحر؛ لأن الناس يقرون فيه بمنى بعد أن فرغوا من الطواف والنحر واستراحوا». (۱)

وعن الإمام الصادق (ع): «ما من عمل أفضل يوم النحر من دم مسفوك، أو مشى فى بر الوالدين أو ذى رحم قاطع يأخذ عليه بالفضل ويبدأه بالسلام، أو رجل أطعم من صالح نسكه ثم دعا إلى بقيته جيرانه من اليتامى وأهل المسكنة والمملوك وتعاهد الأسراء».

«يغفر لصاحب الأضحية عند أول قطرة تقطر من دمها».

والأضحية شكر لنعمة الله تعالى، وإحياء لسنة خليله إبراهيم (ع). وفيها تذكر معانى الصبر، وتقديم محبة الله تعالى على شهوة النفس، وفيها توسعة على الأهل والجار والفقير.

فإن كنت ممن وسع الله فى رزقه فاحرص على الأضحية. فقد ورد ذلك فى الكتاب والسنة، قال تعالى: (فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ) (۲)، المعنى صلِّ العيد وانحر البدن، وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله (ص) ضحى بكبشين أملحين أقرنين ذبحهما بيده وسمى وكبر.

ثانى عشر: كونها أى لَيالٍ عَشْر هى التى- كما عليه بعض المفسرين- أعطاها الله تعالى لنبيه موسى (ع) وهى عشر ذى الحجة ليتم الميقات كما جاء بالآية المباركة:

وَ واعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (۳)

وفى اليوم العاشر منها يؤدى المسلمون صلاة عيد الأضحى وأنها من ضمن ما تؤشر إليه هذه الصلاة أنها تعبير عن شكر الإنسان المؤمن لما أنعم الله تعالى عليه فى هذه الأيام المباركة من الطاعة، ويسأل فيه الله تعالى أن يقبل أعماله وأن يثيبه وأن يجنبه كل سوء .. فهو يوم شكر ورجاء .. وأخيراً ينبغى على هذا المسلم أن يحرص حرصاً شديداً ويعزم عزماً جاداً على عمارة هذه الأيام بالأعمال والأقوال الصالحة، ومن عزم على شىء أعانه الله وهيأ له الأسباب التى تعينه على إكمال العمل، ومن صدق الله صدقه الله، قال تعالى:

(وَ الَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا) (۴)

بعد أن تعرضنا لما أودع الله تعالى فى هذه الأيام من فضائل ومن أجر وخير وثواب، نبدأ الكلام عن الآيتين المباركتين والأقوال المختلفة فيها وما تحملانه وما قيل فيهما:

الآيتان إعراباً ولغةً وقراءةً:

الواو: حرف قسم وجر، والفجر مجرور بواو القسم، والجار والمجرور متعلقان بأقسم، والواو حرف عطف، وليال عطف على الفجر مجرور، وعلامة جره الفتحة نيابة عن الكسرة المقدرة على الياء المحذوفة لالتقاء الساكنين. وقد أشار ابن مالك إلى هذه القاعدة الهامة بقوله:

وكن لجمع مشبه مفاعلا أو المفاعيل بمنع كافلا

وذا اعتلال منه كالجوارى رفعاً وجراً أجره كسارى

۱- رواه أبو داود والنسائى وصححه الألبانى.

۲- الكوثر: ۲.

۳- الأعراف: ۱۴۲.

۴- العنكبوت: ۶۹.

ص: ۷۵

واختلف فى جواب القسم فقيل: هَلْ فِى ذلِكَ قَسَمٌ لِذِى حِجْرٍ وقيل: هى للتقرير كقولك: ألم أنعم عليك إذا كنت قد أنعمت، والجواب على هذا محذوف مضمر وتقديره: لنجازين كل أحد بما عمل، وقدّره الزمخشرى: لتعذبن وقيل: الجواب مذكور وهو إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ ..

وفى مجمع البيان للشيخ الطبرسى: جواب القسم إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصادِ وقيل: جوابه محذوف تقديره ليقبضن على كل ظالم أو لينتصفن كل مظلوم من ظالمه ..

وفى الدر المصون قوله: وَلْفَجْر: جوابُ هذا القَسَم قيل: مذكورٌ وهو قولُه: إِنَّ رَبَّكَ لَبِلْمِرْصَادِ

قاله ابن الأنبارى.

وقيل: محذوفٌ لدلالةِ المعنى عليه، أى: لَنُجازِيَنَّ أحداً بما عَمل؛ بدليلِ تعديدِه ما فعلَ بالقرونِ الخاليةِ. وقدَّر الزمخشرى: لَيُعَذِّبَنَّ قال: يَدُلُّ عليه أَلَمْ تَرَ (۱) إلى قولِه: فَصَبَّ (۲)

وقدَّر بما دَلَّتْ عليه خاتمةُ السورةِ قبلَه سورة الغاشية: إِنَّ إِلَيْنا إِيابَهُمْ* ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنا حِسابَهُمْ لإِيابُهم إلينا وحِسابُهم علينا. (۳)

وعشر نعت لليال.

الفجر: من الفعل فجر .. وهو انكشاف ظلمة الليل عن نور الصبح وهما فجران: أحدهما المستطيل وهو الكاذب، والآخر المستطير المنتشر فى الأفق وهو الصادق. (۴)

وفى مجمع البيان فى تفسير القرآن، الآية، قال الشيخ الطبرسى فى اللغة: الفجر شق عمود الصبح فجره الله لعباده فجراً إذا أظهره فى أفق المشرق مبشراً بإدبار الليل المظلم وإقبال النهار المضىء. وهما فجران: أحدهما الفجر المستطيل وهو الذى يصعد طولًا كذنب السرحان ولا حكم له فى الشرع. والآخر هو المستطير المنتشر فى أفق السماء وهو الذى يحرم عنده الأكل والشرب لمن أراد أن يصوم فى شهر رمضان وهو ابتداء اليوم.

ولصاحب تفسير البحر المحيط أبى حيان كلام فى تنكير ليال:

فإن قلت: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالى العشر، بعض منها أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها.

فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد لأنها ليال معلومة معهودة؟ قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير، ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية، انتهى.

وعن كتاب مسائل الرازى من غرائب آى التنزيل يقول:

فإن قيل: كيف نكر الليالى العشر دون سائر ما أقسم به، وهلا عرفها بلام العهد وهى ليالى معلومة معهودة، فإنها ليالى عشر ذى الحجة فى قول الجمهور؟

قلنا: لأنها مخصوصة من بين جنس الليالى العشر بفضيلة ليست لغيرها، فلم يجمع بينها وبين غيرها بلام الجنس، وإنما لم تعرف بلام العهد لأن التنكير أدل على التفخيم والتعظيم بدليل قوله تعالى: وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ ونظيره قوله تعالى: لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ فعرفه ثم قال وَوالد فنكّره، والمراد به آدم وإبراهيم أو محمد (ص)، ولأن الأحسن أن تكون اللامات كلها متجانسة، ليكون الكلام أبعد عن الألغاز والتعمية، وهى فى الباقى للجنس.

انتهى ما قاله محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازى فى سورة الفجر.

۱- الفجر: ۶.

۲- الفجر: ۱۳.

۳- انظر: اعراب القرآن الكريم وبيانه لمحيى الـدين الدرويش ۴۶۷: ۱۰ السورة والآية. ومجمع البيان فى تفسير القرآن، والدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى السورة والآية.

۴- انظر المعجم الوسيط الفعل فجر.

ص: ۷۶

وعن القراءة:

قرأ ابن عباس: «ولياليِ عَشْرٍ» بالإضافةِ. فبعضهم يكتبُ «ليالِ» فى هذه القراءةِ دونَ ياءٍ، وبعضُهم قال: «وليالى» بالياء، وهو القياسُ. قيل: والمرادُ: وليالى أيام عشرٍ، وكان مِنْ حَقِّه على هذا أن يُقال: عشرةٍ؛ لأنَّ المعدودَ مذكرٌ. ويُجاب عنه: بأنَّه إذا حُذِف المعدودُ جاز الوجهان، ومنه «وأتبعه بسِتٍّ من شوال» وسَمَعَ الكسائى: «صُمْنا من الشهر خمساً».

والعامَّةُ على «ليالٍ» بالتنوين، «عَشْرٍ» صفةٌ لها.

وقد قرأ أبو الدينار الأعرابى: والفجر، والوتر، ويسر بالتنوين فى الثلاثة. قال ابن خالويه: هذا كما روى عن بعض العرب أنه وقف على آخر القوافى بالتنوين، وإن كان فعلًا، وإن كان فيه ألف ولام. قال الشاعر:

أقلِّى اللوم عاذل والعتابا وقولى إن أصبت لقد أصابا

انتهى.

وهذا ذكره النحويون فى القوافى المطلقة إذا لم يترنم الشاعر، وهو أحد الوجهين اللذين للعرب إذا وقفوا على الكلم فى الكلام لا فى الشعر، وهذا الأعرابى أجرى الفواصل مجرى القوافى.

وقرأ الجمهور: وَ لَيالٍ عَشْرٍ بالتنوين؛ وابن عباس: بالإضافة، فضبطه بعضهم. وَ لَيالِ عَشْرٍ بلام دون ياء، وبعضهم وليالى عشر بالياء، ويريد: وليالى أيام عشر. ولما حذف الموصوف المعدود، وهو مذكر، جاء فى عدده حذف التاء من عشر.

والجمهور: والوتر بفتح الواو وسكون التاء، وهى لغة قريش. والأغر عن ابن عباس، وأبو رجاء وابن وثاب وقتادة وطلحة والأعمش والحسن: بخلاف عنه؛ والأخوان: بكسر الواو، وهى لغة تميم، واللغتان فى الفرد، فأما فى الرحل فالكسر لا غير.

وحكى الأصمعى فيه اللغتين؛ ويونس عن أبى عمرو: بفتح الواو وكسر التاء. والجمهور: (يسر) بحذف الياء وصلًا ووقفاً؛ وابن كثير: بإثباتها فيهما؛ ونافع وابن عمرو: بخلاف عنه بياء فى الوصل وبحذفها فى الوقف. (۱)

هذا ما ورد فى اللغة والإعراب والقراءة.

الأقوال:

ولهم فى تفسير الفجر أقوال:

۱- الفجر فجر يوم عرفة ويبدو أنه قول أكثر المفسرين.

۲- فجر يوم النحر؛ لأنه يقع فيه القربان ويتصل بالليالى العشر عن أبى مسلم.

۳- فجر أول يوم من ذى الحجة؛ لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: (وَ لَيالٍ عَشْرٍ) وهى عشر ذى الحجة عن مجاهد والضحاك.

۴- فجر أول المحرم لأنه تتجدد عنده السنة عن قتادة.

۵- فجر كل يوم أو فجر النهار وهو انفجار الصبح كل يوم، عن عكرمة والحسن والجبائى ورواه أبو صالح عن ابن عباس .. أقسم به كما أقسم بالصبح، ويراد به الجنس، لا فجر يوم مخصوص.

۶- أراد بالفجر النهار كله عن ابن عباس.

۷ فجر يوم الجمعة.

۸- الفجر هو صلاة الصبح. وقرآنها هو قرآن الفجر.

۹- وقيل: فجر العيون من الصخور وغيرها.

وفى وَ لَيالٍ عَشْرٍ لهم أقوال عديدة،

۱- انظر البحر المحيط لأبى حيان.

ص: ۷۷

وقبل ذلك يمكننا أن نشير إلى أن هناك قولين يعدان من أهم الأقوال فى المراد من وَ لَيالٍ عَشْرٍ نؤشر عليهما باختصار:

القول الأول: هو عشر ذى الحجة لما ذكرناه من أسباب خصت بها هذه الليالى منحتها صفات رائعة وجعلتها أياماً فاضلة.

القول الثانى: إن المراد ب- وَ لَيالٍ عَشْرٍ ليال العشر الأخيرة من رمضان؛ لأن الأصل فى الليالى أنها الليالى وليست الأيام، وقالوا: إن ليال العشر الأخيرة من رمضان فيها ليلة القدر التى قال الله عنها فى سورة القدر: خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ وقال: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ* فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (۱)

وقال هذا الفريق: وهذا القول أرجح من القول الأول، وإن كان القول الأول هو قول الجمهور، لكن اللفظ لا يسعف قول الجمهور، وإنما يرجح القول الثانى أنها الليالى العشر الأواخر من رمضان، وأقسم الله بها لشرفها، ولأن فيها ليلة القدر، ولأن المسلمين يختمون بها شهر رمضان الذى هو وقت فريضة من فرائض الإسلام وأركان الإسلام، فلذلك أقسم الله بهذه الليالى.

ويمكن أن يقال: إن اللغة العربية من السعة بدرجة عالية تسمح بأن تطلق الليالى ويراد بها الأيام والأيام تطلق ويراد بها الليالى.

بعد هذا نذكر الأقوال:

۱- العشر الأول من ذى الحجة عن ابن عباس والحسن وعبدالله بن الزبير وقتادة ومجاهد والضحاك والسدى. قال ابن عباس والحسن ومجاهد والضحاك: وهى العشر الأول من ذى الحجة شرفها الله تعالى ليسارع الناس فيها إلى عمل الخير واتقاء الشر على طاعة الله فى تعظيم ماعظم وتصغير ما صغره، وينالون بحسن الطاعة الجزاء بالجنة.

وقد اعتمد هذا القول الشيخ الطوسى فى تبيانه بعد أن أضاف للقائلين به كلًا من عبدالله بن الزبير ومسروق وابن زيد. وذكر القول الثانى: العشر من أول محرم، قال: والأول هوالمعتمد.

۲- العشر الأوائل من شهر محرم.

۳- العشر الأواخر من شهر رمضان فى رواية أخرى عن ابن عباس.

۴- وقيل: إنها عشر موسى للثلاثين ليلة التى أتمها الله بها.

وفى تفسير الأمثل تفصيل وأقوال أخرى ننقلها كما جاءت عنده:

الْفَجْر: فى الأصل، بمعنى الشقّ الواسع، وقيل للصبح «الْفَجْر»؛ لأنّ نوره يشقّ ظلمة الليل.

وكما هو معلوم فالفجر فجران: كاذب وصادق.

الفجر الكاذب: هو الخيط الأبيض الطويل الذى يظهر فى السماء، ويشبّه بذنب الثعلب، تكون نقطة نهايته فى الافق، وقسمه العريض فى وسط السماء.

الفجر الصادق: هو النور الذى يبدأ من الافق فينتشر، وله نورانية وشفافية خاصة، كنهر من الماء الزلال يغطى افق الشرق ثمّ ينتشر فى السماء.

ويعلن الفجر الصادق عن انتهاء الليل وابتداء النهار، وعنده يمسك الصائمون، وتصلى فريضة الصبح.

وفُسّر الْفَجْر فى الآية بمعناه المطلق، أى: بياض الصبح.

۱- الدخان: ۳- ۴.

ص: ۷۸

ولا ـ شك فهو من آيات عظمة الله سبحانه وتعالى، ويمثل انعطافاً فى حركة حياة الموجودات الموجودة على سطح الأرض، ومنها الإنسان، ويمثل كذلك حاكمية النور على الظلام، وعند مجيئه تشرع الكائنات الحية بالحركة والعمل، ويعلن انتهاء فترة النوم والسكون.

وقد أقسم الله تعالى ببداية حياة اليوم الجديد.

وفسّره بعض، بفجر أوّل يوم من محرم وبداية السنة الجديدة.

وفَسّره آخرون، بفجر يوم عيد الأضحى، لما فيه من مراسم الحج المهمّة ولاتصاله بالليالى العشرة الاولى من ذى الحجّة.

وقيل أيضاً: إنّه فجر أوّل شهر رمضان المبارك، أو فجر يوم الجمعة.

ثم يخلص إلى أن مفهوم الآية أوسع من أن تحدد بمصداق من مصاديقها، فهى تضم كلّ ما ذكر.

وذهب البعض إلى أوسع ممّا ذكر حينما قالوا: هو كلّ نور يشع وسط ظلام .. وعليه، فبزوغ نور الإسلام ونور المصطفى (ص) فى ظلام عصر الجاهلية هومن مصاديق الفجر، وكذا بزوغ نور قيام المهدى [فى وسط ظلام العالم (كما جاء فى بعض الرّوايات) (۱)

ومن مصاديقه أيضاً، ثورة الحسين (ع) فى كربلاء الدامية، لشقها ظلمة ظلام بنى اميّة، وتعرية نظامهم الحاكم بوجهه الحقيقى أمام النّاس.

ويكون من مصاديقه، كلّ ثورة قامت أو تقوم ضدّ الكفر والجهل والظلم على مرّ التاريخ ..

وحتى انقداح أوّل شرارة يقظة فى قلوب المذنبين المظلمة تدعوهم إلى التوبة، فهو «فجر».

وممّا لا شك فيه أنّ المعانى هى توسعة لمفهوم الآية، أمّا ظاهرها فيدل على «الفجر» المعهود.

وأخيراً وبعد ذكره لكل هذه الأقوال يذكر ما يلى:

والمشهور عن «ليال عشر»: إنّهن ليالى أوّل ذى الحجّة، التى تشهد أكبر اجتماع عبادى سياسى لمسلمى العالم من كافة أقطار الأرض، وورد هذا المعنى فيما رواه جابر بن عبد الله الأنصارى عن النّبى (ص). (۲)

وقيل: ليالى أوّل شهر محرم الحرام.

وقيل أيضاً: ليالى آخر شهر رمضان، لوجود ليلة القدر فيها.

والجمع بين كلّ ما ذُكر ممكن جدّاً.

وذكر فى بعض الرّوايات التى تفسّر باطن القرآن: إنّ «الفجر» هو «المهدى المنتظر [» .. و «ليال عشر» هم الأئمّة العشر قبله (عليهم السلام) .. و «الشفع»- فى الآية- هما علىّ وفاطمة (عليهما السلام).

وعلى أيّة حال، فالقسم بهذه الليالى يدلّ على أهميتها الإستثنائية نسبة لبقية الليالى، وهذا هو شأن القسم، ولا مانع من الجمع بين كلّ ما ذكر من معان.

وفى الهامش يذكر جاءت: وَلَيالٍ عَشْرٍ بصيغة النكرة للدلالة على عظمتها وأهميتها، وإلّا فهى تنطبق على كلّ ما ذكر أعلاه.

انتهى ما قاله صاحب التفسير الأمثل الشيخ مكارم الشيرازى عند تفسيره سورة الفجر.

ملاحظة:

وإن كان حديثنا يتناول الآيتين الأولى والثانية فقط من سورة الفجر، فمن الضرورى ذكر المراد من الآية: وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ باختصار:

۱- راجع تفسير البرهان ۴۵۷: ۴، الحديث ۱.

۲- تفسير أبى الفتوح الرازى، ۷۴: ۱۲.

ص: ۷۹

لهم أيضاً فى الآية وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ أقوال عديدة كما هى فى الآيتين السابقتين، ومن ضمن هذه الأقوال فى المراد من الشفع والوتر:

الأول:

الشفع: هو يوم النحر.

الوتر: هو يوم عرفة.

وهذان ينسبان إلى كل من ابن عباس وعكرمة والضحاك وهى رواية جابر عن النبى (ص)، والوجه فيه أن يوم النحر يشفع بيوم نفر بعده، وينفرد يوم عرفة بالموقف.

الثانى:

الشفع: يوم الترويه.

الوتر: يوم عرفة.

وروى ذلك عن أبى جعفر وأبى عبد الله ۸.

الثالث:

قيل: إن الشفع والوتر فى قول الله عز وجل: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ فالشفع النفر الأول، والوتر النفر الأخير .. (۱)

هذا، وقد ذكر كتاب التحرير والتحبير فيها ستة وثلاثين قولًا وذكر ابن عطية فى الشفع والوتر أربعة عشر قولًا، والزمخشرى ثلاثة أقوال ...

ومن الأقوال: مارواه أبو أيوب عنه (ص):

«الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر».

فيما روى جابر عنه (ص):

«الشفع يوم النحر، والوتر يوم عرفة».

وفى حديث عن جابر:

«صوم عرفة وتر لأنه تاسعها، ويوم النحر شفع لأنه عاشرها».

وفى حديث آخر عن أبى الزبير عن جابر عن النبى (ص) قال: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر»، ورواه النسائى. وذكره ابن كثير فى تفسيره.

وسنجد هذا فى أقوال بعضهم.

قالوا عن: لَيالٍ عَشْر

لهم العديد من الأقوال عن هذه الأيام المباركة، نسجل بعضها:

عن سعيد بن جبير:

۱. «لا تطفئوا سرجكم ليالى العشر»، كناية عن القراءة والقيام.

۲. ابن حجر:

السبب فى امتياز عشر ذى الحجة: لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهى الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يأتى ذلك فى غيره.

۳. ابن رجب:

۱- انظر مجمع البيان فى تفسير القرآن للشيخ الطبرسى: سورة الفجر.

ص: ۸۰

لما كان الله سبحانه قد وضع فى نفوس عباده المؤمنين حنيناً إلى مشاهدة بيته الحرام، وليس كل أحد قادراً على مشاهدته كل عام، فرض على المستطيع الحج مرة واحدة فى عمره، وجعل موسم العشر مشتركاً بين السائرين والقاعدين.

۴- وقال آخرون:

أيام عشر ذى الحجة أفضل الأيام، وليالى العشر الأواخر من رمضان أفضل الليالى.

۵- أيام عشر ذى الحجة أفضل من أيام العشر من رمضان، والليالى العشر الأواخر من رمضان أفضل من ليالى عشر ذى الحجة.

۶- أنس بن مالك:

كان يقال: أيام العشر بكل يوم ألف يوم، ويوم عرفة بعشرة آلاف يوم.

۷. الإمام الأوزاعى:

بلغنى أن العمل فى اليوم من أيام العشر كقدر غزوة يصام نهارها ويحرس ليلها إلا أن يختص امرؤ بشهادة ..

أقوال بعض المفسرين:

وهنا نذكر بإيجاز ما قاله عدد من المفسرين بخصوص هاتين الآيتين: وَالْفَجْرِ* وَلَيالٍ عَشْرٍ

بدأ الرازى فى تفسيره لهذه الآيات بقوله:

اعلم أن هذه الأشياء التى أقسم الله تعالى بها لا بد وأن يكون فيها إما فائدة دينية، مثل كونها دلائل باهرة على التوحيد، أو فائدة دنيوية توجب بعثاً على الشكر، أو مجموعهما، ولأجل ما ذكرناه اختلفوا فى تفسير هذه الأشياء اختلافاً شديداً، فكل أحد فسّره بما رآه أعظم درجة فى الدين، وأكثر منفعة فى الدنيا.

ثم راح يعدد فقط وجوهاً لتفسير المراد من: وَالْفَجْرِ* وَلَيالٍ عَشْرٍ.

وقال عن وَلَيالٍ عَشْرٍ إنما جاءت منكرة من بين ما أقسم الله به لأنها ليال مخصوصة بفضائل لا تحصل فى غيرها والتنكير دال على الفضيلة العظيمة.

وقبل أن يصوب الطبرى قولًا، يذكر عدداً من الروايات عن مراد وَلَيالٍ عَشْرٍ وهذه هى:

وقوله: وَلَيالٍ عَشْرٍ اختلف أهل التأويل فى هذه الليالى العشر أىّ ليال هى؟ فقال بعضهم: هى ليالى عشر ذى الحجة.

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا ابن أبى عدىّ، وعبد الوهاب ومحمد بن جعفر، عن عوف، عن زرارة، عن ابن عباس، قال: إن الليالىَ العشر التى أقسم الله بها، هى ليالى العشر الأول من ذى الحجة.

حدثنى محمد بن سعد، قال: ثنى أبى، قال: ثنى عمى، قال: ثنى أبى، عن أبيه، عن ابن عباس: وَلَيالٍ عَشْرٍ: عشر الأضحى قال: ويقال: العشر: أولَ السنة من المحرم.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وَهب، قال: أخبرنى عمر بن قيس، عن محمد بن المرتفع، عن عبد الله بن الزّبير وَلَيالٍ عَشْرٍ: أوّل ذى الحجة إلى يوم النحر.

حدثنى يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَية، قال: أخبرنا عوف، قال: ثنا زرارة بن أوفى، قال: قال ابن عباس: إن الليالى العشر اللاتى أقسم الله بهنّ: هن الليالى الأُوَل من ذى الحجة.

ص: ۸۱

حدثنا ابن بشار، قال: ثنا عبد الرحمن، قال: ثنا إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن مسروق وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: عشر ذى الحجة، وهى التى وعد الله موسى (ع).

حدثنى يعقوب، قال: ثنا ابن عُلَية، قال: أخبرنا عاصم الأحول، عن عكرِمة وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: عشر ذى الحجة.

حدثنا ابن حميد، قال: ثنا مهران، عن سفيان، عن الأغرّ المنقرىّ، عن خليفة بن حصين، عن أبى نصر، عن ابن عباس وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: عشر الأضحى.

حدثنى محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا عيسى، وحدثنى الحارث، قال: ثنا الحسن، قال: ثنا ورقاء، جميعاً، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد، فى قول الله: وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: عشر ذى الحجة.

حدثنا بشر، قال: ثنا يزيد، قال: ثنا سعيد، عن قتادة وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: كنا نحدّث أنها عشر الأضحى.

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثَور، عن معمر، عن يزيد بن أبى زياد، عن مجاهد، قال: ليس عمل فى ليال من ليالى السنة أفضل منه فى ليالى العشر، وهى عشر موسى التى أتمَّها الله له.

حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، عن أبى إسحاق، عن مسروق، قال: ليال العشر، قال: هى أفضل أيام السنة.

حُدثت عن الحسين، قال: سمعت أبا معاذ، يقول: ثنا عبيد، قال: سمعت الضحاك يقول فى قوله: (وَلَيالٍ عَشْرٍ) يعنى: عشر الأضحى.

حدثنى يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، فى قوله: وَلَيالٍ عَشْرٍ قال: أوّل ذى الحجة، وقال: هى عشر المحرّم من أوّله.

بعد أن ذكر الرازى ذلك يخلص إلى:

والصواب من القول فى ذلك عندنا: أنها عشر الأضحى، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأن عبد الله ابن أبى زياد القَطْوانىّ:

حدثنى قال: ثنى زيد بن حباب، قال: أخبرنى عياش بن عقبة، قال: ثنى جُبير بن نعيم، عن أبى الزبير، عن جابر، أن رسول‌الله (ص) قال: وَالْفَجْرِ* وَلَيالٍ عَشْرٍ، قال: عَشْرُ الأَضْحَى.

وفى تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور:

وقوله: وَلَيالٍ عَشْر: هى ليال معلومة للسامعين موصوفة بأنها عشر واستُغنى عن تعريفها بتوصيفها بعشر وإذ قد وصفت بها العدد تعين أنها عشر متتابعة، وعدل عن تعريفها مع أنها معروفة ليتوصل بترْك التعريف إلى تنوينها المفيد للتعظيم، وليس فى ليالى السَّنة عشرُ ليال متتابعة عظيمة مثل عشر ذى الحجّة التى هى وقتُ مناسك الحج، ففيها يكون الإحرام ودخول مكة وأعمال الطواف، وفى ثامنتها ليلة التروية، وتاسعتها ليلة عرفة وعاشرتها ليلة النحر. فتعين أنها الليالى المرادة بليال عشر. وهو قول ابن عباس وابن الزبير ..

ابن كثير فى تفسيره:

.. والليالى العشر المراد بها: عشر ذى الحجة؛ كما قاله ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وغير واحد من السلف والخلف، وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس مرفوعاً: «ما من أيام العمل الصالح أحب إلى الله فيهن من هذه الأيام» يعنى: عشر ذى الحجة، قالوا: ولا الجهاد فى سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد فى سبيل الله، إلا رجلًا خرج بنفسه وماله، ثم لم يرجع من ذلك بشىء».

ص: ۸۲

وواصل كلامه فى ذكر القول الثانى:

وقيل: المراد بذلك: العشر الأول من المحرم، حكاه أبو جعفر بن جرير، ولم يعزه إلى أحد، وقد روى أبو كدينة عن قابوس بن أبى ظبيان عن أبيه عن ابن عباس: (وَلَيالٍ عَشْرٍ) قال: هو العشر الأول من رمضان.

ثم ينتهى إلى القول:

والصحيح القول الأول. قال الإمام أحمد: حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا عياش بن عقبة، حدثنى خير بن نعيم عن أبى الزبير عن جابر عن النبى (ص) قال: «إن العشر عشر الأضحى، والوتر يوم عرفة، والشفع يوم النحر»، ورواه النسائى عن محمد بن رافع وعبدة بن عبد الله، وكل منهما عن زيد بن الحباب به. ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث زيد بن الحباب به، وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندى أن المتن فى رفعه نكارة، والله أعلم.

وقوله تعالى: وَلشَّفْعِ وَلْوَتْرِ قد تقدم فى هذا الحديث: أن الوتر يوم عرفة؛ لكونه التاسع، وأن الشفع يوم النحر؛ لكونه العاشر، وقاله ابن عباس وعكرمة والضحاك أيضاً (قول ثان) وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنى عقبة بن خالد عن واصل بن السائب قال: سألت عطاء عن قوله تعالى: وَلشَّفْعِ وَلْوَتْرِ قلت: صلاتنا وترنا هذا؟ قال: لا، ولكن الشفع يوم عرفة، والوتر ليلة الأضحى (قول ثالث) قال ابن أبى حاتم: حدثنا محمد بن عامر بن إبراهيم الأصبهانى، حدثنى أبى عن النعمان، يعنى: ابن عبد السلام، عن أبى سعيد بن عوف، حدثنى بمكة قال: سمعت عبد الله بن الزبير يخطب الناس، فقام إليه رجل فقال: يا أمير المؤمنين! أخبرنى عن الشفع والوتر، فقال: الشفع قول الله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ والوتر قوله تعالى: وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ. وقال ابن جريج: أخبرنى محمد بن المرتفع: أنه سمع ابن الزبير يقول: الشفع أوسط أيام التشريق، والوتر آخر أيام التشريق ...

القرطبى فى تفسيره:

قوله تعالى: وَلْفَجْرِ أقسم بالفجر. وَلَيالٍ عَشْرٍ* وَلشَّفْعِ وَلْوَتْرِ* وَللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ أقسام خمسة.

واختُلِف فى «الفجر»، فقال قوم: الفجر هنا: انفجار الظلمة عن النهار من كل يوم؛ قاله علىّ وابن الزُّبير وابن عباس رضى الله عنهم. وعن ابن عباس أيضاً أنه النهار كله، وعَبَّر عنه بالفجر لأنه أوّله. وقال ابن مُحَيْصِن عن عطية عن ابن عباس: يعنى فجر يوم المحرم. ومثله قال قتادة. قال: هو فجر أوّل يوم من المحرم، منه تنفجر السنة. وعنه أيضاً: صلاة الصبح.

وروى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: «والفجر»: يريد صبيحة يوم النحر؛ لأن الله تعالى جل ثناؤه جعل لكل يوم ليلة قبله، إلا يوم النحر لم يجعل له ليلة قبله ولا ليلة بعده؛ لأن يوم عرفة له ليلتان: ليلة قبله وليلة بعده، فمن أدرك الموقف ليلة بعد عرفة، فقد أدرك الحج إلى طلوع الفجر، فجر يوم النحر. وهذا قول مجاهد.

وقال عكرمة: «والفجر» قال: انشقاق الفجر من يوم جَمْع. وعن محمد بن كعب القُرَظىّ: «والفجرِ» آخر أيام العشر، إذا دفَعْتَ من جَمْع. وقال الضحاك: فجر ذى الحجة، لأن الله تعالى قرن الأيام به فقال: وَلَيالٍ عَشْرٍ أى ليال عشر من ذى الحجة. وكذا قال مجاهد والسدّىّ والكلبىّ فى قوله: وَلَيالٍ عَشْرٍ هو عشر ذى الحِجة، وقال ابن عباس. وقال مسروق هى العشر التى ذكرها الله فى قصة موسى (ع) وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ (۱)

وهى أفضل أيام السنة.

۱- الأعراف: ۱۴۲.

ص: ۸۳

وروى أبو الزبير عن جابر: أن رسول‌الله (ص) قال: «وَلْفَجْرِ* وَلَيالٍ عَشْرٍ- قال: عشر الأضحى، فهى ليال عشر على هذا القول؛ لأن ليلة يوم النحر داخلة فيه، إذ قد خصها الله بأن جعلها موقفاً لمن لم يدرك الوقوف يوم عرفة. وإنما نكرت ولم تعرّف لفضيلتها على غيرها، فلو عُرِّفت لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير، فنكرت من بين ما أقسم به، للفضيلة التى ليست لغيرها. والله أعلم.

وعن ابن عباس أيضاً: هى العشر الأواخر من رمضان؛ وقاله الضحاك. وقال ابن عباس أيضاً ويمان والطبرىّ: هى العشر الأول من المحرّم، التى عاشِرها يوم عاشوراء. وعن ابن عباس «وَلَيالِ عَشْرٍ» (بالإضافة) يريد: وليالى أيام عشر.

وأما الزمخشرى فى تفسير الكشاف فقد صرح بأنه أراد بالليالى العشر: عشر ذى الحجة.

فإن قلت: فما بالها منكرة من بين ما أقسم به؟ قلت: لأنها ليال مخصوصة من بين جنس الليالى العشر بعض منها. أو مخصوصة بفضيلة ليست لغيرها. فإن قلت: فهلا عرفت بلام العهد، لأنها ليال معلومة معهودة؟ قلت: لو فعل ذلك لم تستقل بمعنى الفضيلة الذى فى التنكير؛ ولأن الأحسن أن تكون اللامات متجانسة، ليكون الكلام أبعد من الألغاز والتعمية، وبالشفع والوتر: إما الأشياء كلها شفعها ووترها، وإما شفع هذه الليالى ووترها. ويجوز أن يكون شفعها يوم النحر، ووترها يوم عرفة، لأنه تاسع أيامها وذاك عاشرها، وقد روى عن النبى (ص) أنه فسرهما بذلك. وقد أكثروا فى الشفع والوتر حتى كادوا يستوعبون أجناس ما يقعان فيه، وذلك قليل الطائل، جدير بالتلهى عنه ..

والسيد الطباطبائى لا يستبعد أن يكون المراد بالفجر هو فجر يوم النحر وهو عاشر ذى الحجة فيما يصف الوجوه الأخرى أنها ردية كما يعبر، أما فيما يتعلق بالآية: وَ لَيالٍ عَشْرٍ فهو يميل إلى أنها الليالى العشر من أول ذى الحجة، وأن وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ يوم التروية ويوم عرفة.

وهذا هو نص كلامه:

ولعل ظاهر قوله:

وَ الْفَجْرِ أن المراد به مطلق الفجر ولا يبعد أيضاً أن يراد به فجر يوم النحر وهو عاشر ذى الحجة.

وقيل: المراد فجر ذى الحجة، وقيل: فجر المحرم أول السنة وقيل: فجر يوم الجمعة، وقيل فجر ليلة جمع، وقيل: المراد به صلاة الفجر، وقيل: النهار كله وقيل: فجر العيون من الصخور وغيرها وهى وجوه ردية.

وقوله: وَ لَيالٍ عَشْرٍ لعل المراد بها الليالى العشر من أول ذى الحجة إلى عاشرها والتنكير للتفخيم.

وقيل: المراد بها الليالى العشر من آخر شهر رمضان، وقيل: الليالى العشر من أوله، وقيل الليالى العشر من أول المحرم، وقيل: المراد عبادة ليال عشر على تقدير أن يراد بالفجر صلاة الفجر.

وقوله وَ الشَّفْعِ وَ الْوَتْرِ يقبل الانطباق على يوم التروية ويوم عرفة، وهو الأنسب على تقدير أن يراد بالفجر وليال عشر فجر ذى الحجة والعشر الأول من لياليها. (۱)

كما أن على بن إبراهيم القمى يذهب فى تفسيره إلى أن وَ لَيالٍ عَشْرٍ هى عشر ذى الحجة، وكذا زيد بن على (عليهما السلام) (۱۲۰ ه-) فى تفسير غريب القرآن.

وَ لَيالٍ عَشْرٍ .. حقاً إنها آيات جميلة، لا يعلم أسرارها إلا الله سبحانه وتعالى، سواء أكان مرادها العشرالأواخر من شهر رمضان المبارك أم مرادها العشرالأوائل من شهر ذى الحجة المبارك المؤيد بالروايات وبما ذهب إليه عدد من كبار المفسرين، فهى أيام لها وقع عظيم على النفوس المؤمنة وهى أوقات طيبة، تشكل موسماً يكفى فى بركاته وفضائله وعطاءاته أنه أيام معلومات اختارها الله تعالى؛ لتطل السماء من خلالها على خلائق اجتمعت تلبيةً لنداء خالد أطلقه خليل الرحمن إبراهيم منذ أربعة آلاف عام تزيد أو تنقص قليلًا: وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ

۱- انظر تفسير الميزان سورة الفجر.

ص: ۸۴

* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ ...(۱) لتطل رحمة ربك على وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة، تنتظرمغفرة ربها و رحمته وثوابه ..!

۱- الحج: ۲۸- ۲۹.

ص: ۸۵

ص: ۸۶

شخصيات من الحرمين الشريفين (۲۴) أبى بن كعب

«لِيُهْنِكَ العِلْمُ أبا المنذر» حديث شريف

أبى بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد بن معاوية بن عمرو بن مالك بن النجار- وهو تيم الله- بن ثعلبة بن عمرو بن الخزرج، من بنى النجار، من الخزرج، فهو النجارى الخزرجى المدنى، وهو الصحابى الأنصارى، وهو البدرى العقبى.

أمه صهيلة بنت الأسود بن حرام بن عمرو بن مالك بن النجار، تجتمع هى وأبوه فى عمرو بن مالك بن النجار، وهى عمة أبى طلحة زيد بن سهل بن الأسود بن حرام الأنصارى، زوج أم سليم.

وكان لأبى بن كعب من الولد: الطفيل ومحمد، وأمهما أم الطفيل بنت الطفيل بن عمرو بن المنذر بن سبيع بن عبد نهم من دوس، وأم عمرو بنت أبى ..

كنيته: أبو المنذر، وأبو الطفيل. ويدل عليها أن رسول الله (ص) كان حين يريد أن يقول له شيئاً، يناديه: يا أبا المنذر ... وكان أبى حين يخاطب عمر بن الخطاب يقول له: يا ابن الخطاب؛ فيقول له عمر: يا أبا الطفيل ..

صفته: كان ربعة نحيفاً أو رجلًا دحداحاً، وقالوا: ليس بالقصير ولا بالطويل، أبيض الرأس واللحية، لا يغير شيبه. (۱)

لقد كان من المتفوقين فى مدرسة الصحبة المباركة، إيماناً وعلماً وجهاداً .. وكيف لا يكون كذلك وقد حظى بمنزلة عالية ومرتبة فاضلة؛ أن يذكر فى الملأ الأعلى ذلك كونه مرجعاً أميناً فى القرآن الكريم؛ حتى خص بامتيازات جليلة منها أن تقرأ عليه سورة البينة، والآمر بهذا هو رب العالمين، والمأمور بالقراءة هو رسول الله (ص)، نعم لقد خص صاحب هذه الترجمة بأنه أول من يقرأ عليه رسول الله (ص) بأمر من قبله تعالى سورة البينة، وكان أول من ذكر اسمه فى الملإ الأعلى، فكان أقرأ هذه الأمة للقرآن، وكان أحد الأربعة الذين أمر النبى (ص) أن يؤخذ منهم القرآن، وكان من أبرز المفسرين للقرآن من الصحابة، وكان صاحب منهج أو مدرسة فى التفسير .. وكان سيد الأنصار كما أحب رسول الله (ص) أن ينادوا أبياً به، فعن عمرو بن العاص- كما فى مختصر دمشق- قال: كنت جالساً عند رسول الله (ص) فى يوم عيد، فقال: «ادع لى سيد الأنصار» فدعوا أبى بن كعب ..

إسلامه

أعلن إسلامه، وتوثقت أركان إيمانه، وصار رجلًا معروفاً فى مدرسة القرآن الكريم ومدرسة الصحبة النبوية الشريفة، وخلد ذكره على مر الأجيال كمجاهد وصاحب منهج قرآنى، وراوية للسنة النبوية الشريفة .. توفر على كل هذه المناقب، بعد أن نشأ أبو المنذر رضوان الله تعالى عليه فى ديار يثرب غاضباً على حياة قومه، معترضاً على دينها، متأملًا فى الكون من حوله، وعلى الرغم من وجود اليهود فى المدينة آنذاك، إلا أن ما وقع فى يده من وريقاتها لم يشف غليله، ولم يرو عطشه، ولم تهد حيرته، ولم تشبع نهمه،

وكان أبى ۲ يتأمل فى الكون من حوله ليلًا ونهاراً، وفى إحدى الليالى خرج ۲ يطوف بديار المدينة، فسمع حواراً فى دار سعد بن الربيع، فسمع بأذنه كلاماً عن الإسلام و نبى الإسلام ۹، وعلم أن مصعب بن عمير أتى سفيراً، وكأول سفير للإسلام؛ ليعلم الناس الإسلام أحكاماً وآداباً ومفاهيم، فما أن سمع الحوار حتى طرق الباب على سعد، وأعلن إسلامه؛ ليحظى ۲ بالسفر إلى مكة؛ ثم ليشهد بيعة العقبة مع السبعين من الأنصار كما فى مختصر دمشق.

۱- انظر فى هذا مختصر تاريخ دمشق ۱۹۷: ۴- ۱۹۸. والاستيعاب، والإصابة، والحاكم فى المستدرك.

ص: ٨٧

وهـذا يعنى أن المقصود العقبـة الثانية، ولكنى وللأسف لم أجد له اسـماً فى السـيرة النبوية لابن هشام، وهو يذكر أسـماء أهل البيعتين الأولى والثانية من الأوس والخزرج.

وكان أبى بن كعب من الأنصار الذين نصـروا رسول الله، واسـتقبلوه فى يثرب، وقد شـهد كل الغزوات مع النبى (ص). وبقية المشاهد، وجمع القرآن فى حياة الرسول (ص) وكان رأساً فى العلم وبلغ فى المسـلمين الأوائل منزلة رفيعة .. حتى قال عنه رسول الله (ص): أبى سيد الأنصار .. ونسب إلى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب أنه قال عنه مادحاً: أبى سيد المسلمين.

وهكذا توالت عليه هذه المناقب، وعظم حب المسـلمين له، واشتد ودهم له، ولاذوا به فى معرفة ما يشكل عليهم من علم ومعرفة، حتى جـاء فى الخبر عن قيس بن عبـاد أنه قال: كنت آتى المدينـة فألقى أصـحاب النبى (ص)، وكان أحبهم إلىّ أبى بن كعب ... وقال: ثم قعد يحدث، فما رأيت الرجال مدت أعناقها إلى رجل مثلما مدت أعناقها متوجهة إلى أبى بن كعب ...

المؤاخاة

مشـروع المؤاخاة بين المسـلمين، الذى أسسه رسول الله (ص) فى المدينة، كان من أروع المشاريع، وأعظمها نفعاً على كل المستويات الإيمانية والاجتماعية والسياسـية .. وكان الأساس المتين والصلب لبناء قاعدة إيمانية تمهيداً لبناء مجتمع آمن متكافل، فدولة قائمة على الحب والمودة والتضامن الفاعل .. حتى غـدا مجتمع المدينـة ودولته فى عهـد رسول الله (ص) مثالًا لنموذج فـذ نادر، يحلم به الشـرفاء والأحرار ..

قـال السـهيلى: آخى رسول الله ٩ بين أصـحابه حين نزلوا بالمدينـة؛ ليـذهب عنهم وحشة الغربة، ويؤنسـهم من مفارقة الأهل والعشـيرة، ويشدّ أزر بعضـهم ببعض، فلما عز الإسـلام، واجتمع الشـمل، وذهبت الوحشة، أنزل الله سـبحانه: أُولُوا الأَرْحامِ بَعْضُهُمْ أَوْلى بِبَعْضٍ فِى كِتابِ اللهِ أعنى فى الميراث. ثم جعل المؤمنين كلهم إخوة، فقال: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ يعنى فى التوادد، وشمول الدعوة.

فقـد راح رسول الله (ص) يؤاخى بين المهاجرين والأنصار .. وآخى بين سـعد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأبى بن كعب، وهو أخو بنى النجار أخوين. (١)

أبى مجاهداً:

مـا أن هـاجر النبى (ص) إلى المدينـة حتى كان أبىّ ملازماً لرسول الله (ص)، فاشترك فى بناء المسـجد، ثم فى معركـة بـدرٍ الكبرى، فكان واحداً من أهلها، ولم يتخلف عن مشاهد رسول الله (ص) قط، بل حضرها كلها ..

ابَىّ قرآنياً

كـان المسـلمون ينظرون إلى أُبى بـن كعـب نظرتهـم إلى ذلـك الرجـل القرآنى الرشـيد المسـتقيم السـيرة، الطيب العنصـر، العظيم فى الإسلام، وجاء فى الخبر أن رسول الله (ص)، قال فى يوم عيد: أدعو لى سيد الأنصار؛ فدعو أُبى بن كعب.

وإنه كذلك فقد نال أبى ٢ شـرفاً ربما لم ينله غيره من أصحاب رسول الله (ص)، ومن ذلك- كما ذكرنا- أمر الله لنبيه (ص) أن يقرأ عليه سورة البينـة، فقـد ذكر كـل من البخـارى ومسـلم فى صـحيحيهما: أن رسول الله (ص) قـال لأُبى: إن الله عز وجـل أمرنى أن أقرأ عليك: لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا (٢)

قال: وسمانى لك؟ قال نعم. فبكى ..

١- السيرة النبوية ٥٠٥: ٢- ٥٠٦، والهامش.

٢- سورة البينة: ١.

ص: ۸۸

وكـان فى حفظـه القرآن وترتيلـه وفهم آيـاته من المتفـوقين، قـال له رسـول‌الله (ص): «يـا أبى بن كعب، إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن».

وأبى يعلم أن رسـول الله (ص) انمـا يتلقى أوامره من الـوحى، هنالـك سـأل الرسول الكريم فى نشوة غـامرة: «يـا رسول الله! بـأبى أنت وأمى، وهل ذكرت لك باسمى؟».

فأجاب الرسول (ص): نعم، باسمك ونسبك فى الملإ الأعلى ..

وكـان حرياً ۲ أن يـؤمر الرسـول (ص) بعرض القرآن عليـه، وفى هــذا يقـول أبى: قـال رسـول الله (ص): إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن.

فقال أبى: بالله آمنت وعلى يديك أسلمت ومنك تعلمت.

قال: فرد الرسول (ص) القول.

فقال: يا رسول الله وذكرت هناك؟

قال: نعم بإسمك ونسبك فى الملإ الأعلى.

قال: اقرأ إذًا يا رسول الله. (۱)

ولما سئل ۲: فرحت بذلك؟

قال: وما يمنعنى وهو تعالى يقول:

قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَ بِرَحْمَتِهِ فَبِذلِكَ فَلْيَفْرَحُوا (۲)

ولقد كان فقه أبى بالقرآن يظهر على لسانه، ومن ذلك أن رسول‌الله ۹ سأله يوماً عن أى آية فى القرآن أعظم؟

فقال أبى: اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ (۳)

فضرب النبى (ص) على صدره، وقال: ليهنك العلم أبا المنْذر. (۴)

ولم يكن بالمستغرب كـذلك أن يأمر النبى ۹ بأخـذ القرآن عنه فإنه جـدير بهـذه المنزلـة، ولم لا؟ وهو من أمر النبى ۹ أن يقرأ عليه القرآن وفى الحديث: «خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبى بن كعب». (۵)

وكيف لا يكون الأمر كـذلك؟ وهو أقرأ هـذه الأمـة بالقرآن بنص حديث رسول الله (ص) حيث نسب إليه (ص) أنه قال: ... وأقرؤهم أبى بن كعب. كما رواه الترمذى، فقد كان هذا الصحابى الجليل أقرأ الناس إلى جانب كونه طيب الصوت حسن الأداء.

أبىّ كاتباً

كان أبى بن كعب فى مقدمة الذين يكتبون الوحى ويكتبون الرسائل،

كان هناك عدد من الصـحابة ممن وفقوا لأن يكونوا ممن يكتبون لرسول‌الله (ص) ما ينزل إليه من السـماء عن طريق الوحى، ويكتبون رسائله إلى من يريد، وما يمليه من أجوبة عن رسائل ترد إليه، وما يبرمه من عهود ومواثيق .. وكان من هؤلاء أبى بن كعب، بل هو فى مقدمة الذين يكتبون الوحى ويكتبون الرسائل.

تقول الروايـة: وكان أبى بن كعب يكتب فى الجاهليـة قبل الإسـلام. وكانت الكتابـة فى العرب قليلـة، وكان يكتب فى الإسـلام الوحى لرسول الله (ص).

قال ابن أبى خيثمة: هو أول من كتب الوحى بين يدى رسول الله (ص) كان سيداً جليل القدر، ورأساً فى العلم والعمل.

وقيل أول من كتب لرسول الله (ص) أبى بن كعب، وكان إذا غاب أبى كتب له زيد بن ثابت. (۶)

قال الواقدى: وهو أول من كتب للنبى (ص) وأول من كتب فى آخر الكتاب: وكتب فلان بن فلان ..

۱- رواه الترمذى.

۲- سورة يونس: ۵۸. رواه أحمد.

۳- سورة البقرة: ۲۵۵.

۴- رواه مسلم.

۵- رواه البخارى.

۶- الطبرى ۲۱۸: ۲.

ص: ۸۹

وفى أسماء من كتب للنبى (ص) على بن أبى طالب، وعثمان بن عفان، كانا يكتبان الوحى، فإن غابا كتبه أبى بن كعب وزيد بن ثابت. (۱)

أبىّ جامعاً للقرآن

وكان فى حفظه القرآن وترتيله وفهم آياته من المتفوقين، قال له رسول‌الله (ص): يا أبى بن كعب، إنى أمرت أن أعرض عليك القرآن ... وأبى يعلم أن رسول الله (ص) إنما يتلقى أوامره من الوحى؛ هنالك سأل الرسول الكريم فى نشوة غامرة: يا رسول‌الله! بأبى أنت وأمى، وهل ذكرت لك باسمى؟ ... فأجاب الرسول (ص) «نعم، باسمك ونسبك فى الملأ الأعلى» ... كما قال الرسول (ص): «أقرأ أمتى أبَىّ ..».

قام أبى بن كعب بجمع القرآن الكريم فى حياة النبى (ص) وعرض على النبى (ص) وحفظ منه علماً مباركاً.

قال أنس بن مالك: جمع القرآن على عهد رسول الله (ص) أربعة كلهم من الأنصار: أبى بن مالك، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد أحد عمومتى.

وروى الطبرانى وابن عساكر عن الشعبى، قال: جمع القرآن على عهد رسول الله (ص) ستة من الأنصار: أبى بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عبيد، وأبو زيد ...

قال محمّد بن سيرين: إن عثمان بن عفان جمع اثنى عشر رجلًا من قريش والأنصار، فيهم أُبى بن كعب وزيد بن ثابت فى جمع القرآن.

وعده ابن النديم فى فهرسته من الذين جمعوا القرآن على عهد النبى (ص) فقال ما صورته: الجمّاع للقرآن على عهد النبى (ص)، وعدّ جماعة ثم قال: أبى بن كعب وساق نسبه ..

أبىّ قارئاً

منّ الله تعالى عليه بحفظه للقرآن الكريم، وبصوت طيب، ومنهج فى القراءة متميز وقد اشتهر به، وأعجب به من حوله، حتى عد من أعظم قرّاء القرآن، وفى الطبقة الأولى من صحابة النبى الأكرم (ص)، وقد وفق لأن يكون كما قال عنه رسول الله (ص): «أقرأ أمتى أبَىّ».

عن أنس بن مالك أن رسول الله (ص)، قال لأُبى بن كعب: إن الله أمرنى أن أقرأ عليك القرآن، قال: الله سمّانى لك؟ قال: نعم سماك لى، قال: فجعل أُبى يبكى. وفى رواية: فذرفت عيناه.

وفى رواية قال أُبى فى نشوة غامرة: يا رسول الله! بأبى أنت وأمى، آلله سمَّانى لك؟ فقال الرسول: «نعم»، فجعل أبى ۲ يبكى من شدة الفرح. (۲)

عن أنس قال: قال رسول الله (ص): أقرأ أمتى أبى.

وجاءت الرواية عن أبى عبد الله الصادق (ع): نحن نقرأ بقراءة أُبى بن كعب.

وفى خصوص المتعة ... قال القرطبى: قال الجمهور المراد نكاح المتعة، الذى كان فى صدر الإسلام، وقرأ ابن عباس، وأبى، وابن جبير: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن». وقال ابن كثير فى تفسيره: وكان ابن عباس وأبى بن كعب، وسعيد بن جبير، والسدى، يقرأون: «فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة». (۳)

۱- تاريخ الطبرى ۵۳۳: ۳.

۲- رواه مسلم.

۳- تفسير القرطبى و ابن كثير: الآيۀ.

ص: ۹۰

أبيّ مفسراً:

يعد هذا الصحابى من جملة من اشتهر من الصحابة بالتفسير. وقد عده السيوطى من جملة العشرة الذين اشتهروا بالتفسير من الصحابة من الطبقة الأولى من المفسرين، وهو أول من ألف فى فضائل القرآن، قال ابن النديم فى الفهرست: (الكتب المؤلفة فى فضائل القرآن) وعدّها أحد عشر كتاباً لأحد عشر مؤلفاً وهم ... (۷) أبى بن كعب الأنصارى ...

ثم يقول: وليس فى العشرة الباقية أحد إلا وزمانه متأخر عن أبى، فعلم من ذلك أن أبياً أول من ألف فى فضائل القرآن .. وعده ابن النديم فى فهرسته من الذين جمعوا القرآن على عهد النبى (ص) فقال ما صورته: الجمّاع للقرآن على عهد النبى (ص)، وعد جماعة ثم قال: أبى بن كعب وساق نسبه .. (۱)

وقد وردت عنه نسخة كبيرة فى التفسير رواها أبو جعفر الرازى بسنده عنه. (۲)

ويرجع ذلك- كما يبدو- إلى أسباب منها:

أ- ما حظى به من دعاء النبى (ص) الخاص حين قال له: ليهنك العلم أبا المنذر. (۳)

ب- لكونه قريباً من مصدر الرسالة والوحى، فهو من كتّاب الوحى، مما جعله عالماً بعلوم القرآن والتفسير ومنها: أسباب النزول، والناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد والعام والخاص، وأجواء الآيات .. وكيف لا يكون كذلك؟ وهو القائل للخليفة الثانى: «يا أمير المؤمنين إنى تلقيتُ القرآن ممن تلقّاه من جبريل وهو رطب.»

ج- وعلى القول بأنه كان قبل إسلامه حبرًا من أحبار اليهود العارفين بأسرار الكتب السماوية، مما جعله على مبلغ كبير من العلم ومعرفة آيات الكتاب المجيد.

وهنا لا بد لى من وقفة تحت عنوان:

هل كان أبيّ حبراً؟

إن كونه مطلعاً على الكتب القديمة، وما ورد فيها، و تركت عنده ثقافة واسعة، وحباً للقرآن الكريم، خصوصاً وقد وجد فيه فرقاً كبيراً، وامتيازات كبيرة، ومناقب عالية تفوق كثيراً عما وجده فيما سبقه من كتب، هذا شىء. وكونه حبراً من أحبار اليهود، وبالتالى كان يهودياً شىء آخر. وإن كان هذا لا ضير فيه، ولا يقدح بإيمان الرجل، إلا أننى لم أجد فيما تيسر لى من مصادر من يذكر هذا الأمر، سوى صاحب كتاب الأعلام خير الدين الزركلى (۱۹۷۶ م) حيث قال: «كان قبل الإسلام حبراً من أحبار اليهود، مطلعاً على الكتب القديمة، يكتب ويقرأ على قلة العارفين بالكتابة فى عصره، ولما أسلم كان من كتاب الوحى». ورده الدكتور محمد حسين الذهبى (۱۳۹۸ ه) صاحب كتاب: التفسير والمفسرون، والقيسى فى تاريخ التفسير .. ويبدو أن ما ذكروه كان إما وهماً واشتباهاً، أو أنه وقع خطأً نتيجة التقارب بين الاسمين: «كعب الأحبار وأبى بن كعب».

منهجه فى التفسير

كان له منهج متميز وله خصائصه، فقد عرف بتمسكه بما ورد عن رسول الله (ص) واستفاد منه فى تفسيره للآيات القرآنية الكريمة، ولهذا جاء أكثر تفسيره بهذه الطريقة .. وأن رواياته جاءت موصولة السند برسول الله (ص)، ويدلل اهتمامه الكبير بهذه الروايات فى تفسيره على منهجه الأهم وأسلوبه الأمثل فى تفسير القرآن الكريم. وإن لم يجد من المأثور ما يفسر به، ينتقل إلى أساليب أخرى، كتفسير القرآن بالقرآن واجتهاده ..

۱- انظر الاتقان للسيوطى وأعيان الشيعة لمحسن الأمين ۳۶۱: ۱. و ۲۰۶: ۶. تفسير القرطبى وابن كثير: الآية.

۲- التفسير والمفسرون للذهبى ۹۲: ۱.

۳- رواه مسلم وغيره.

ص: ۹۱

هذا، وكان لتلاميذه مع أصحاب زيد بن أسلم مشاركة فى إنشاء مدرسة التفسير فى المدينة المنورة، والتى كان من أقطابها ثلاثة من أئمة أهل البيت، وهم: الإمام على بن الحسين، وولده الباقر، وحفيده الصادق (عليهم السلام)، وقد امتازت هذه المدرسة بفضل وجود الأئمة الثلاثة (عليهم السلام) بالعمق والموضوعية، فيما أثر عنها من روايات تفسيرية نجدها فى أمهات التفسير.» (۱)

نماذج من تفسيره

تفسير القرآن بالقرآن

كان أبى يعتمد روايات عن رسول الله (ص) لتفسير آية من القرآن الكريم

ففى تفسير التبيان للشيخ الطوسى (۴۶۰ ه) ولدى تفسير «الظلم» من قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (۲)

وبعد أن يذكرالشيخ الطوسى أن الظلم المذكور فى الآية هو الشرك عند أكثر المفسرين: ابن عباس وسعيد بن المسيب وقتادة ومجاهد وحماد بن زيد وأبىّ بن كعب وسلمان (رحمة الله عليه). يقول:

قال أبىّ: ألم تسمع قوله:

إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (۳)

وهو ما جاء فيما روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال: لما نزلت هذه الآية شق على الناس، وقالوا: يا رسول الله! وأيّنا لا يظلم نفسه، فقال: إنه ليس الذى تعنون، ألم تسمعوا إلى ما قال العبد الصالح:

يا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ.

آيات ذات موضوع واحد

ولقد وجد فى تفسير أبى بن كعب محاولة لجمع الآيات ذات الموضوع الواحد، ومن أمثلته ما جاء عنه فى تفسير الآية الكريمة: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ لْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ

قال: «جمعهم يومئذ جميعاً ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم استنطقهم، وأخذ عليهم الميثاق، ثم قال: وفيهم الأنبياء (عليهم السلام) يومئذ مثل السرج، وخص الأنبياء بميثاق آخر، قال الله:

وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ لنَّبِيِّيْنَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيثَاقاً غَلِيظاً (۴)

وهو الذى يقول تعالى ذكره: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ للهِ لَّتِى فَطَرَ لنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ للهِ ذَلِكَ لدِّينُ لْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ لنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (۵) وفى ذلك قال: هَذَا نَذِيرٌ مِّنَ لنُّذُرِ لأُوْلَى (۶) يقول: أخذنا ميثاقه مع النذر الأولى،

ومن ذلك قوله: (وَمَا وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ) (۷) ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُمْ بِلْبَيِّنتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ لْمُعْتَدِينَ (۸) قال: كان فى علمه يوم أقروا به من يصدق ومن يكذب» (۹)

التفسير بالمأثور

۱- انظر: التفسير والمفسرون للذهبى ۹۲: ۱.

۲- سورة الأنعام: ۸۲.

۳- سورة لقمان: ۳۱.

۴- سورة الأحزاب: ۷.

۵- سورة الروم: ۳۰.

۶- سورة النجم: ۵۶.

۷- سورة الأعراف: ۱۰۲.

۸- سورة يونس: ۷۴.

۹- جامع البيان للطبرى ۱۵: ۹.

ص: ٩٢

كثيراً مما روى عن أبى بن كعب هو من التفسير بالمأثور، فقد راح يفسّر الآيات بما روى عن رسول الله (ص) ومن أمثلة هذا النوع من التفسير، ما رواه فى تفسير قوله تعالى: ... لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى لتَّقْوَى ... (١)

عن رسول الله (ص) أنه سئل عن المسجد الذى أسس على التقوى. فقال: «مسجدى هذا» (٢)

التفسير بالاجتهاد

هناك روايات تفسيرية عن أبى بن كعب وموقوفة عليه، وهى قليلة جداً، ولأنها لم ترفع إلى رسول الله (ص) يمكن عدها من اجتهاده، ومن أمثلتها ما جاء فى قوله تعالى: إِنَّا عَرَضْنَا لأَمَانَةَ عَلَى لسَّماواتِ وَلأَرْضِ وَلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا لإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولًا (٣)

فقد روى الطبرى بسنده عن أبى بن كعب أنه قال: «من الأمانة أن المرأة ائتمنت على فرجها». (۴)

معرفة أبىّ بالقراءات:

لطالما أثبت حجية قراءته وصحتها بالقرآن الكريم، فقد ورد عنه أنه قرأ قوله تعالى: وَلسَّابِقُونَ لأَوَّلُونَ مِنَ لْمُهَاجِرِينَ وَلأَنْصَارِ وَلَّذِينَ تَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِىَ للَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ (۵)

وقد كان عمر بن الخطاب يقرأ: وَلسَّابِقُونَ لأَوَّلُونَ مِنَ لْمُهَاجِرِينَ وَلأَنْصَارِ وَلَّذِينَ تَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ بضم الأنصار وحذف حرف الواو من (الذين) حتى أنه أنكر على رجل قرأها بقراءة أبى، ولما حضر أبى بن كعب، وسأله عمر، استدل أبى بعدة آيات على صحة قراءته قائلًا:

«وتصديق ذلك فى أول الآية التى فى أول الجمعة، وأوسط الحشر، وآخر الأنفال، أما أول الجمعة: وآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ، وأوسط الحشر: وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنَ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَنَا اغْفِرْ لَنَا ولإِخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإِيمَانِ، وأما آخر الأنفال: والَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهاجَرُوا وجَاهَدُوا مَعَكُمْ فأُولَئِكَ مِنْكُمْ (۶)

فقال عمر: إذن نتابع أبياً. (٧)

معرفة أبىّ بأسباب النزول

كان كثير الاهتمام بأسباب النزول، ومن اهتمامه كان لا يتأخر إذا ما فاته شىء منها، ولا يتوقف عن السؤال عنها أبداً، حتى أنه سأل أنس بن مالك (٩٣ ه) وكان خادم رسول الله (ص) عن سبب نزول الآية: وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ... إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ عِندَ للَّهِ عَظِيماً (٨)

فقد روى الطبرى بسنده، عن أنس بن مالك أنه قال: «سألنى أبىّ بن كعب عن الحجاب، فقلت: أنا أعلم الناس به، نزلت فى شأن زينب، أولم النبى (ص) عليها بتمر وسويق، فنزلت: يأَيُّهَا لَّذِينَ آمَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ لنَّبِىِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَدْخُلُواْ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَنْتَشِرُواْ وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى لنَّبِىَّ فَيَسْتَحْيِى مِنكُمْ وَللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ لْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ (٩)

ولأبىّ بن كعب أيضاً

فى قوله تعالى: وَ مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلى عَذابِ النَّارِ (١٠)

قال أبى: هو قول الرب تعالى ذكره.

١- سورة التوبة: ١٠٨.

۲- جامع البيان للطبرى ۲۸: ۱۱.

۳- سورة الأحزاب: ۷۲.

۴- جامع البيان للطبرى ۵: ۲۲.

۵- سورة التوبة: ۱۰۰.

۶- سورة الأنفال: ۷۵.

۷- جامع البيان للطبرى ۸: ۱۱.

۸- سورة الأحزاب: ۵۳.

۹- المصدر نفسه؛ وانظر: جامع البيان ۳۷: ۲۲.

۱۰- سورة البقرة: ۱۲۶.

ص: ۹۳

وفى قوله تعالى: كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً (۱)

قال أبى: كانوا أمة واحدة حيث عرضوا على آدم ففطرهم يومئذ على الإسلام، وأقروا له بالعبودية، وكانوا أمة واحدة مسلمين كلهم، ثم اختلفوا من بعد آدم، فكان أبى يقرأ: كانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ إلى فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وإن الله إنما بعث الرسل وأنزل الكتب عند الاختلاف.

وفى قوله تعالى: قُلْ ما يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّى لَوْ لا دُعاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزاماً (۲)

قال أبى: هو القتل يوم بدر. (۳)

أبىّ عالماً

كان فى حفظه القرآن وترتيله وفهم آياته من المتفوقين؛ لهذا تجده وقد سجل أبىّ بن كعب حضوراً متميزاً فى التفسير والقراءة، وفى الفقه حتى عدّ أبرز فقهاء الصحابة وقرّائهم .. وكان صاحب همة عالية فى خدمة الناس، ولا يبخل عليهم بعلمه .. فمع أنه كثير العبادة، لكنه طالما فرغ نفسه لتعليم الآخرين. فعن أبى العالية: كان أُبى بن كعب صاحب عبادة، فلما احتاج إليه الناس، ترك العبادة، وجلس للقوم.

سأله النبى (ص) يوماً: يا أبا المنذر، أى آية من كتاب الله أعظم؟

فأجاب قائلًا: الله ورسوله أعلم.

وأعاد النبى (ص) سؤاله: يا أبا المنذر، أى آية من كتاب الله أعظم؟

وأجاب أبى: اللهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ.

فضرب الرسول (ص) صدره بيده، ودعا له بخير، وقال له والغبطة تتألق على محياه: لِيُهْنِكَ العلم أبا منذر. (أى هنيئًا لك العلم).

وعن أبى بن كعب أن رسول الله (ص) صلّى بالناس، فترك آية فقال: أيُّكم أخذ علىّ شيئاً من قراءتى؟

فقال أبىٌّ: أنا يا رسول الله، تركتَ آية كذا وكذا.

فقال النبى (ص): قد علمتُ إنْ كان أحدٌ أخذها علىّ فإنّكَ أنت هو.

وقال أبى بن كعب لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين! إنى تلقيتُ القرآن ممن تلقّاه من جبريل وهو رطب ..

وكان عمر يسميه سيد المسلمين. ويقول: اقرأ يا أبى.

وأخرج الأئمة أحاديثه فى صحاحهم وعدّه مسروق فى الستة من أصحاب الفتيا وممن روى عنه من الصحابة عمر، وكان يسأله عن النوازل ويتحاكم إليه فى المعضلات. ولما مات فى خلافة عمر بن الخطاب- على رواية- قال عمر: اليوم مات سيد المسلمين.

وكان- رضى الله عنه- واحدًا من الستة أصحاب الفُتْيا- كما روى- الذين أذن لهم رسول الله بالحكم فى حوائج الناس، وفض المنازعات التى تحدث بينهم، وردِّ المظالم إلى أهلها، وكان منهم الإمام على بن أبى طالب، وعبد الله بن مسعود، وأبى بن كعب، وزيد بن حارثة ... ومما قاله (ص) فيه: وأقرؤهم لكتاب الله أبى بن كعب .. (۴)

قصة الخضر وموسى:

۱- سورة البقرة: ۲۱۳.

۲- سورة الفرقان: ۷۷.

۳- انظر جامع البيان للطبرى فى تفسيره للآيات المذكورة.

۴- انظر الترمذى وابن ماجه.

ص: ۹۴

ومن معرفته العاليـة فى كتاب الله تعالى، والروايـة عن رسول الله (ص) وفى التاريخ، من ذلك قصة الخضـر وموسـى: فقد روى أبىّ بن كعب فى ذلك عنه (ص) ما حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا يحيى بن آدم، قال: حدثنا سـفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سـعيد، قال: قلت لابن عباس: إن نوفاً يزعم أن الخضـر ليس بصاحب موسـى، فقال: كـذبَ عدو الله، حدثنا أبىّ بن كعب عن رسول الله (ص) قال: إن موسـى قام فى بنى إسـرائيل خطيباً فقيل: أىّ الناس أعلم. فقال: أنا، فعتب الله عليه حين لم يردّ العلم إليه، فقال: بل عبدٌ لى عند مجمع البحرين، فقال: يا ربّ! كيف به؟ قال: تأخـذ حوتاً فتجعله فى مكْتل فحيث تفقـده فهو هناك. قال: فأخذ حوتاً فجعله فى مكتل، ثم قال لفتاه: إذا فقـدتَ هـذا الحوت فأخبرنى. فانطلقا يمشـيان على ساحل البحر حتى أتيا صـخرة، فرقّد موسـى فاضـطرب الحوت فى المكتل، فخرج فوقع فى البحر، فأمسك الله عنه جَرْية الماء فصار مثل الطاق، فصار للحوت سـرَباً، وكان لهما عجباً. ثم انطلقا، فلما كان حين الغـذاء قال موسـى لفتاه: آتِنَا غَـدَاءَنَا لَقَـدْ لَقِينَا مِنْ سَـفَرِنَا هذَا نَصَـباً قال: ولم يجد موسـى النصَب حتى جاوز حيث أمَره الله، قال: فقال: أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فإنى نَسِيتُ الحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ

وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى البَحْرِ عَجَباً قال: فقال: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَـصاً. قال: يقّصان آثارهما. قال: فأتيا الصـخرة فإذا رجل نائم مسجَّى بثوبه، فسلّم عليه موسى فقال: وأنَّى بأرضنا السلام! قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال: يا موسى، إنى على علْم مـن علـم الله، علَّمنيـه الله لاـ تعلمه، وأنت على علم من علم الله علّمكه الله لاـ أعلمه، قـال: فـإنى أتبعـك على أن تعلمنى ممَّا عُلمْتَ رُشْـداً. قـال فَإِنِ اتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْأَلْنِى عَنْ شَـىْءٍ حَتَّى أُحْـدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً. فانطلقا يمشـيان على الساحل، فإذا بملاح فى سـفينة، فعرف الخضـر، فحمله بغير نَـوْل، فجاء عصـفور فوقع على حرفهـا فنقر- أو فنقـد- فى المـاء، فقـال الخضـر لموسـى: مـا ينقص علمى وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر- أو نقد- هذا العصـفور من البحر. قال أبو جعفر: أنا أشكُّ، وهو فى كتابى هذا "نقر "قال: فبينما هم فى السـفينة لم يُفجأ موسـى إلا وهو يتـد وتداً أو ينزع تخْتاً منها، فقال له يا موسـى: حمَلنا بغير نَوْل وتخرقها لتُغْرقَ أهْلها! لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إمْراً* قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً* قال لَا تُؤاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ

قال: فكانت الأولى من موسـى نسياناً، قال: ثم خرجا فانطلقا يمشيان، فأبصرا غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ برأسه فقتله، فقال له موسى: أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَـيْئاً نُكْراً قال أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْـتَطِيعَ مَعِىَ صَبْراً قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَىْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّى عُذراً.

فانطلقا حتى أتيا أهلَ قريـة اسـتطعما أهلها، فلم يجـدا أحـداً يطعمهم ولا يسـقيهم، فوجـدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ فأقامه بيده- قال: مسحه بيده- فقال له موسى: لم يُضيفونا ولم ينزلونا، لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً قَالَ هذا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ قال: فقال رسول الله (ص): «لوددت أنه كان صبَر حتى يقصّ علينا قصصهم».

وعن العباس بن الوليـد، قال: أخبرنى أبى قال: حـدثنا الأوزاعى، قال: حدثنى الزهرىّ، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسـعود، عن ابن عبـاس: أنه تمـارى هو والحُرّ بن قيس بن حصن الفزارىّ فى صاحب موسـى، فقال ابن عباس: هو الخضـر، فمر بهما أبىّ بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إنى تماريت أنا وصاحبى هذا فى صاحب موسـى (ع) الذى سأل السبيلَ إلى لقائه، فهل سمعت رسول الله يذكر شأنه؟ قال: نعم إنى سـمعت رسول الله (ص) يقول: «بينا موسى (ع) فى ملأٍ من بنى إسرائيل، إذ جاءه رجل فقال: تعلم مكان أحد أعلم منك؟ قال موسى: لا، فأوحى إلى موسى: بَلى عبدنا الخضر، فسأل موسى السبيلَ إلى لقائه، فجعل الله الحوت آيةً، وقال له: إذا افتقدت الحوت فـارجع فإنـك سـتلقاه، فكـان موسـى يتبع أثر الحوت، فى البحر فقـال فتى موسـى لموسـى: أ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ الْحُوتَ وقال موسى: ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً، فوجدا الخضر، فكان من شأنهما ما قصّ الله فى كتابه». (۱)

۱- تاريخ الطبرى ۲۲۱: ۱- ۲۲۲. فى قصة الخضر وخبره وخبر موسى وفتاه يوشع:. وانظر: فتح البارى ۲۴: ۱۰.

ص: ۹۵

أبیّ فی کتب الرجال

سجل أبی بن کعب مکاناً متمیزاً فی کتب الرجال، کما هو فی کتب التاریخ والتراجم ..

ففی؛

رجال الطوسی

(أبی) بن کعب بن قیس بن عبید بن زید بن معاویة بن عمرو بن مالک بن النجار، یکنی أبا المنذر، شهد العقبة مع السبعین، وکان یکتب الوحی، آخی رسول الله بینه وبین سعید بن زید بن عمرو بن نفیل، شهد بدراً والعقبة الثانیة وبایع لرسول الله (ص).

معجم رجال الحدیث

قال الشیخ: «أبی بن کعب بن قیس بن عبید بن زید بن معاویة بن عمرو بن مالک بن النجار، من أصحاب رسول الله (ص)، یکنی أبا المنذر، شهد العقبة مع السبعین، وکان یکتب الوحی، آخی رسول الله (ص) بینه وبین سعید بن زید بن عمرو بن نفیل، شهد بدراً والعقبة الثانیة، وبایع لرسول الله (ص).

وذکره البرقی وقال: «عربی مدنی من بنی الخزرج».

وعده فی آخر رجاله من الإثنی عشر الذین أنکروا علی أبی بکر.

وذکره- کذلک- الصدوق فی الخصال فی أبواب الإثنی عشر. (۱)

وفی سیر أعلام النبلاء للحافظ شمس الدین الذهبی (۷۴۸ ه) وأیضاً فی أسد الغابة وفی الإصابة والاستیعاب ومستدرک الحاکم کما فی غیرها:

أبی بن کعب بن قیس بن زید بن معاویة بن عمر بن مالک بن النجار، سید القراء، أبو المنذر الأنصاری شهد العقبة الثانیة وبدراً، جمع القرآن فی حیاة النبی (ص) وعرض علی النبی (ص) وکان رأساً فی العلم والعمل. وکان أحد فقهاء الصحابة وأقرأهم لکتاب الله عز وجل ...

وقال عنه الرسول (ص): (اقرأ أمتی أبی) (۲)

وقال الألبانی: صحیح (۳)

قال الواقدی: هو أول من کتب للنبی (ص)، وأول من کتب فی آخر الکتاب وکتب فلان بن فلان، توفی فی سنة ۲۲ ه- بالمدینة، وقیل: فی خلافة عثمان سنة ۳۰ ه-. (۴)

ولاؤه لأهل البیت:

مما کتب عنه یظهر أنه کان محباً لأهل بیت النبوة والرسالة، ومن أوائل الصحابة الذین تابعوا مدرسة أهل البیت (علیهم السلام) وناصروهم بالحجة والدلیل، وصدحوا بحقهم أمام الآخرین.

ففی تعلیقة البهبهانی علی منهج المقال: فی المجالس ما یظهر منه جلالته وإخلاصه لأهل البیت (علیهم السلام). والظاهر أن مراده بالمجالس مجالس المؤمنین ففیها ما تعریبه: فی الکامل البهائی أن أبی بن کعب قال: مررت عشیة یوم السقیفة بحلقة الأنصار، فسألونی من أین أتیت؟ قلت: من عند أهل بیت رسول الله (ص). فقالوا: علی أی حال ترکتهم؟ قلت: ما یکون حال قوم

۱- معجم رجال الحدیث للسید الخوئی ۳۷۵: ۱.

۲- الترمذی وابن ماجه.

۳- انظر مشكاة المصابيح ۶۰۶۵.

۴- انظر سير أعلام النبلاء ۳۸۹: ۱- ۴۰۲. وفى أسد الغابة ۶۱: ۱- ۶۲. وفى الإصابة ۲۶: ۱- ۲۷. والاستيعاب، والمستدرك للحاكم وغيرها.

ص: ۹۶

لم يزل بيتهم محط قدم جبرائيل ومنزل رسول الله (ص) إلى اليوم، وقد زال ذلك عنهم اليوم، وخرج حكمهم من أيديهم، ثم بكى أبيّ وبكى الحاضرون.

وفى الدرجات الرفيعة للسيد على خان الشيرازى: .. وروى عن أبى، وذكر مثله، وفى زيارته لأهل البيت فى ذلك الوقت، واجتماعه معهم، وعدم اجتماعه مع الناس، وتوجعه لهم، أكبر دليل على إخلاصه فى حبهم. وذكره فى كتابه الدرجات الرفيعة فى طبقات الشيعة، وقال: من فضلاء الصحابة، شهد العقبة ... إلى آخر عبارة الشيخ الطوسى فى رجاله. ثم قال: كان يسمى سيد القراء.

والسيد المرتضى عده من الشيعة، وكذا المحقق السيد محسن الأعرجى فى العدة.

وفى احتجاج الطبرسى عن أبان بن تغلب أنه قال لأبى عبد الله جعفر بن محمد الصادق (ع): جعلت فداك، هل كان أحد فى أصحاب رسول الله (ص) أنكر على الخليفة الأول فعله وجاوسه مجلس رسول‌الله (ص)؟

قال: نعم، كان الذى أنكر عليه اثنا عشر رجلًا من المهاجرين ... ومن الأنصار ... وأبى بن كعب .. فلما صعد المنبر تشاوروا بينهم، فقال بعضهم: والله لنأتينه ولننزلنه عن منبر رسول الله (ص). وقال آخرون منهم: والله لئن فعلتم ذلك فقد أعنتم على أنفسكم، قال الله عز وجل: وَ لا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ

فذهبوا إلى أمير المؤمنين (ع) واستشاروه، فقال لهم فى كلام طويل: وأيم الله، لو فعلتم ذلك لما كنتم لهم إلا حرباً، ولكنكم كالملح فى الزاد، وكالكحل فى العين، إلى أن قال: فانطلقوا بأجمعكم إلى الرجل، فعرفوه ما سمعتم من قول نبيكم؛ ليكون ذلك أوكد للحجة، وأبلغ للعذر، فساروا حتى أحدقوا بالمنبر يوم الجمعة،

فلما صعد المنبر، قال المهاجرون للأنصار: تقدموا وتكلموا، فقال الأنصار: بل تقدموا وتكلموا أنتم، فإن الله قدمكم فى الكتاب، فأول من تكلم خالد بن سعيد بن العاص، ثم باقى المهاجرين من الأنصار. وروى أنهم كانوا غيّباً عن وفاة رسول الله (ص) ... ثم قام أبى بن كعب فقال: يا فلان! لا تجحد حقاً جعله الله لغيرك، ولا تكن أول من عصى رسول الله (ص) فى وصيه، وصدف عن أمره، وأردد الحق إلى أهله تسلم، ولا تتماد فى غيك فتندم، وبادر الإنابة يخف وزرك، ولا تخص نفسك بهذا الأمر الذى لم يجعله الله لك، فتلقى وبال عملك، فعن قليل تفارق ما أنت فيه، وتصير إلى ربك، فيسألك عما جنيت، وما ربك بظلام للعبيد.

وروى له فى الاحتجاج أيضاً خطبة طويلة يحتج بها على القوم، ويذكر فضائل أمير المؤمنين (ع) وأنه أحق بالخلافة ... (۱)

من روى عنه

بعد أن رَوى أبى بن كعب أحاديث عن رسول الله (ص)، راح يروى عنه الجماعة من الصحابة والتابعين؛ ومن الذين رووا عنه:

أبو أيوب الأنصارى، وابن عباس، وجندب بن عبد الله البجلى، وعبد الله بن الحارث بن نوفل، وعبد الرحمن بن أبى ليلى، وعبد الرحمن بن أبزى، وسعيد بن المسيب، وعمر بن الخطاب، ومسروق بن الأجدع، وزر بن حبيش الأسدى، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وسهل بن سعد، وعبادة بن الصامت، و أبو موسى، وسليمان بن صرد الخزاعى، وعطاء بن يسار، والمغيرة بن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وأبو الأسود الدؤلى، وأبو هريرة، وسهل بن سعد، كما روى عنه أولاده: الطفيل بن أُبى بن كعب، ومحمد، وعبد الله ..

من مروياته:

۱- انظر ما كتبه السيد محسن الأمين فى أعيان الشيعة، الجزء الأول: وعده فى طبقات المفسرين من الشيعة، وفى الجزء السادس: ۲۰۱- ۲۱۰.

ص: ۹۷

له العديد من الروايات، يروى بعضها بنفسه، وبعضها الآخر يشترك معه آخرون، ومنها:

عن عثمان وابن مسعود وأبى: أن رسول الله (ص) كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمهم القرآن والعمل جميعاً.

وعن أبى نفسه قال: قال لى رسول الله (ص): إنى أمرت أن أقرأ عليك القرآن.

قال: قلت: يا رسول الله (ص)، وسميت لك؟ قال: نعم.

وعنه: كان رسول الله (ص) إذا ذهب ربع الليل قام فقال: أيها الناس! أذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه.

وعنه: قال لى رسول الله ۹: ألا أعلمك مما علمنى جبريل ۷؟ قال: قلت: نعم يا رسول‌الله! قال: قل اللهم اغفر لى خطاياى، وعمدى، وهزلى، وجدى، ولا تحرمنى بركة ما أعطيتنى، ولا تفتّنى فيما حرمتنى.

وعنه، قال: قال رسول الله (ص): بشر هذه الأمة بالسناء والنصر والتمكين، ومن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا فلم يكن له فى الآخرة من نصيب. (۱)

زهده وورعه وتقواه

عرف هذا الصحابى العالم الجليل بزهده وورعه وتقواه، فقد ورد عن جُندب بن عبد الله البجلى قال: أتيت المدينة ابتغاء العلم، فدخلت مسجد رسول الله (ص) فإذا الناس فيه حَلَقٌ يتحدّثون، فجعلت أمضى الحَلَقَ حتى أتيتُ حلقةً فيها رجل شاحبٌ عليه ثوبان كأنّما قدم من سفر.

فسمعته يقول: «هلك أصحاب العُقدة ورب الكعبة، ولا آسى عليهم» ... أحسبه قال: مراراً ... فجلست إليه فتحدّث بما قُضىَ له ثم قام، فسألت عنه بعدما قام قلت: من هذا؟.

قالوا: هذا سيد المسلمين أبى بن كعب ..

فتبعته حتى أتى منزله، فإذا هو رثُّ المنزل رثُّ الهيئة، فإذا هو رجل زاهد منقطعٌ يشبه أمره بعضه بعضاً ... هذا فى زهده.

قال أبى بن كعب: يا رسول الله (ص) إنى أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك فى صلاتى؟

قال: ما شئت، وإن زدت فهو خيرٌ ... قال: الرُّبع؟ ..... قال: ما شئت، وإن زدت فهو خيرٌ .. قال: أجعلُ النصف؟.

قال: ما شئت، وإن زدت فهو خيرٌ ...

قال: الثلثين؟

قال: ما شئت، وإن زدت فهو خيرٌ.

قال: اجعل لك صلاتى كلّها؟

قال: إذاً تُكفى همَّك ويُغفَر ذنبُك.

وبعد انتقال الرسول (ص) إلى الرفيق الأعلى، ظل أبىّ على عهده فى عبادته وقوة دينه، وكان دوماً يذكر المسلمين بأيام الرسول (ص) ويقول: لقد كنا مع الرسول (ص) ووجوهنا واحدة، فلما فارقنا اختلفت وجوهنا يميناً وشمالًا. وعن الدنيا يتحدث ويقول: إن طعام ابن آدم، قد ضرب للدنيا مثلًا، فإن ملحه وقزحه فانظر إلى ماذا يصير؟

۱- انظر مختصر تاريخ دمشق: ۱۹۷: ۴- ۲۰۵. وحلية الأولياء ۲۵۰: ۱- ۲۵۶.

ص: ٩٨

وحين اتسعت الدولة الإسلامية ورأى المسلمين يجاملون ولاتهم، أرسل كلماته المنذرة: هلكوا ورب الكعبة، هلكوا وأهلكوا، أما إنى لا آسى عليهم، ولكن آسى على من يهلكون من المسلمين .. وكان أكثر ما يخشاه هو أن يأتى على المسلمين يوم يصير بأس أبنائهم بينهم شديد.

وكان أبى بن كعب من ورعه وتقواه يبكى إذا ذكر الله تعالى، ويهتز كيانه حين يرتل آيات القرآن أو يسمعها، وكان إذا تلا أو سمع قوله تعالى: قُلْ هُوَ الْقادِرُ عَلى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (١)، يغشاه الهم والأسى.

وقد روى أن رجلًا من المسلمين، قال: يا رسول الله! أرأيت هذه الأمراض التى تصيبنا وما نلاقيها؟ قال: (كفارات)، فقال أبى ابن كعب: يا رسول الله! وإن قَلَّتْ؟ قال: (وإن شوكة فما فوقها)،

فدعا أبى أن لا يفارقه الوَعْك حتى يموت، وأن لا يشغله عن حج، ولا عمرة ولا جهاد، ولا صلاة مكتوبة فى جماعة، فقال أبو سعيد الخدرى ٢: فما مس إنسان جسده إلا وجد حرَّه حتى مات. (٢)

وقد كان أبى ٢ مستجاب الدعوة، فيحكى ابن عباس أن عمر بن الخطاب ٢ قال لجمع من الصحابة: اخرجوا بنا إلى أرض قومنا. فكان ابن عباس مع أبى بن كعب فى مؤخرة الناس، فهاجت سحابة، فدعا أبى قائلًا: اللهم اصرف عنا أذاها. فلحق ابن عباس وأبى الناس، فوجدوا أن رحالهم ابتلت: فقال عمر: ما أصابكم؟ (أى: كيف لم تبل رحالكما؟) فقال ابن عباس: إن أبيًا قال: اللهم اصرف عنا أذاها. فقال عمر: فهلا دعوتم لنا معكم.

وقعة الجابية

شهد أبى بن كعب مع عمر بن الخطاب وقعة الجابية، وقد خطب عمر بالجابية فقال: أيها الناس من كان يريد أن يسأل عن القرآن فليأتِ أبىَّ بن كعب ...

وأبى هو الذى كتب كتاب الصلح لأهل بيت المقدس، حيث جاء عن أبى الحويرث، قال: كان يهود من بيت المقدس، وكانوا عشرين رأسهم يوسف بن نون، فأخذ لهم كتاب أمان، وصالح عمر بالجابية، وكتب كتاباً، ووضع عليهم الجزية، وكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم، أنتم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم ما لم تحدثوا أو تؤوا محدثاً، فمن أحدث منهم أو آوى محدثاً، فقد برئت منه ذمة الله، وإنى برىء من معرة الجيش؛ شهد معاذ بن جبل، وأبو عبيدة بن جراح، وكتب أبىّ بن كعب». (٣)

أقواله ووصاياه

وكان لا يخاف فى الله لومة لائم، وكان من الذين لا يطلبون من الدنيا عرضاً، فليس لها نصيب فى قلوبهم، فعندما اتسعت بلاد المسلمين ورأى الناس يجاملون ولاتهم فى غير حق قال:

هلكوا وربِّ الكعبة، هلكوا وأهلكوا، أما إنى لا آسى (أحزن عليهم) ولكن آسى على من يهلكون من المسلمين.

وقال: ما ترك أحد منكم لله شيئاً إلا آتاه الله ما هو خير له منه من حيث لا يحتسب، ولا تهاون به وأخذه من حيث لا يعلم إلا آتاه ما هو أشد عليه من حيث لا يحتسب. وقال له رجل- ذات يوم-: أوصنى فقال له أُبيُّ: اتخذ كتاب الله إماماً، وارض به قاضياً وحكماً، فإنه الذى استخلف فيكم رسولكم، شفيع، مطاع، وشاهد لايتهم، فيه ذكركم وذكر من قبلكم، وحكم ما بينكم، وخبركم وخبر ما بعدكم.

١- سورة الأنعام: ٦٥.

٢- رواه أحمد وابن حبان.

۳- مختصر تاريخ دمشق ۱۹۷: ۴.

ص: ٩٩

قال رجل لأبى بن كعب: أوصنى يا أبا المنذر، قال: لا تعترض فيما لا يعنيك، واعتزل عدوك، واحترس من صديقك، ولا تغبطن حياً إلا بما تغبطه به ميتاً، ولا تطلب حاجة إلى من لا يبالى ألا يقضيها لك.

وجاء رجل إلى أبىّ فقال: يا أبا المنذر! آية فى كتاب الله قد غمتنى. قال: أى آية؟ قال: مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ قال: ذاك العبد المؤمن ما أصابته من نكبة مصيبة فيصبر، فيلقى الله تعالى، فلا ذنب له.

وعنه أنه قال: المؤمن بين أربع؛ إن ابتلى صبر، وإن أعطى شكر، وإن قال صدق، وإن حكم عدل. فهو يتقلب فى خمسة من النور، وهو الذى يقول الله: نُورٌ عَلى نُور (١) كلامه نور، وعلمه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، ومصيره إلى نور يوم القيامة.

والكافر يتقلب فى خمسة من الظلم؛ فكلامه ظلمة، وعمله ظلمة، ومدخله ظلمة، ومخرجه فى ظلمة، ومصيره إلى الظلمات يوم القيامة. (٢)

رافقته الحمى!

عاش أبو المنذر رضوان الله تعالى عليه حياته مريضاً بالحمى، وقد لازمته، لكنها لم تثنه عما يريد، فقد واصل حياته- بعزم وهمة عالية قل نظيرها مجاهداً فى ميادين النزاع دفاعاً عن الدين الذى آمن به بصدق وإخلاص .. و متعلماً وعالماً ومعلماً فى مدرسة القرآن الكريم والصحبة النبوية المباركة ..

كيف لا يكون كذلك، وقد أبكاه ما سمعه من رسول الله (ص) حين قال (ص) له: أمرت أن أقرئك القرآن.

فقال أبى له: أو ذكرت هناك؟

قال: نعم.

فبكى أبى، فلا أدرى أشوق أم خوف ..

وقال أبى: انطلقت إلى رسول الله (ص) فضرب بيده صدرى.

ثم قال: أعيذك بالله من الشك والتكذيب.

قال: ففضت عرقاً، وكأنى أنظر إلى ربى فرقاً!

كل هذا وغيره جعل أبياً متعالياً على مرضه وآلامه وأوجاعه، وأعظم ثباتاً فى كدحه وجهاده، وجعله أكثرعزماً فى خدمته للقرآن الكريم، الذى تميزت به حياته المباركة ..

سأل أبىّ الرسول ٩ جزاء الحمَّى؟

قال: تجرى الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق.

فقال أبى: اللهم إنى أسألك حمّى لا تمنعنى خروجاً فى سبيلك، ولا خروجاً إلى بيتك ولا مسجد نبيك، فلم يمس أبى إلا وبه حمّى.

وعن عبد الله بن أبى نُصير قال: عُدْنا أبى بن كعب فى مرضه، فسمع المنادى بالأذان فقال: (الإقامة هذه أو الأذان؟) ... قلنا: (الإقامة) ... فقال: (ما تنتظرون؟ ألا تنهضون إلى الصلاة؟) ... فقلنا: (ما بنا إلا مكانك) ... قال: (فلا تفعلوا قوموا، إن رسول الله (ص) صلى بنا صلاة الفجر، فلمّا سلّم أقبل على القوم بوجهه فقال: (أشاهدٌ فلان؟ أشاهدٌ فلان؟).

حتى دعا بثلاثة كلهم فى منازلهم لم يحضروا الصلاة فقال: إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حَبْواً،

١- سورة النور: ٣٥.

٢- انظر حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى ٢٥٢: ١- ٢٥٣.

ص: ۱۰۰

واعلم أنّ صلاتك مع رجلٍ أفضل من صلاتك وحدك، وإن صلاتك مع رجلين أفضل من صلاتك مع رجل، وما أكثرتم فهو أحب إلى الله، وإن الصفّ المقدم على مثل صف الملائكة، ولو يعلمون فضيلته لابتدروه، ألا وإن صلاة الجماعة تفضل على صلاة الرجل وحدَه أربعاً وعشرين أو خمساً وعشرين.

قال الرسول (ص): «ما مِنْ شيءٍ يصيب المؤمن فى جسده إلا كفَّر الله عنه به من الذنوب ..». فقال أبى بن كعب: اللهم إنّى أسألك أن لا تزال الحُمّى مُضارِعةً لجسدِ أبى بن كعب حتى يلقاك، لا يمنعه من صيام ولا صلاة ولا حجّ ولا عُمرة ولا جهاد فى سبيلك. فارتكبته الحمى فلما تفارقه حتى مات، وكان فى ذلك يشهد الصلوات ويصوم ويحج ويعتمر ويغزو ...

وفاته رضوان الله تعالى عليه

اختلف فى سنة وفاته فقيل: فى السنة التاسعة عشرة للهجرة النبوية الشريفة، وقيل: فى سنة عشرين منها، وقيل: بعد ثلاث وعشرين سنة من الهجرة، وقيل: فى سنة ثلاثين، وقيل: فى سنة اثنتين وثلاثين، وقيل: قبل مقتل الخليفة الثالث عثمان. وقيل: فى زمن الخليفة عمر، وقيل: فى زمن عثمان، ولعل الثانى هو الأصحّ، أى فى سنة ثلاثين، وقد ارتضاه كل من الواقدى وابن سعد، وهو أثبت الأقاويل كما عبرا عنه،

ومن الدلائل عليه: خبر محمّد بن سيرين:

قال محمّد بن سيرين: إن عثمان بن عفان: جمع إثنى عشر رجلًا من قريش والأنصار، فيهم أُبى بن كعب وزيد بن ثابت فى جمع القرآن.

وقبله ابن الأثير صاحب أسد الغابة فى معرفة الصحابة حيث قال: وقيل: سنة ثلاثين فى خلافة عثمان. قال: وهو الصحيح؛ لأن زر بن حبيش لقيه فى خلافة عثمان.

ولما مات قال ابن ضمرة: رأيت أهل المدينة يموجون فى سككهم، فقلت: ما شأن هؤلاء؟

فقال بعضهم: ما أنت بأهل البلد؟

قلت: لا.

قال: فإنه قد مات اليوم سيد المسلمين، أبى بن كعب.

ويقول آخر وهو عُتبّ السعدىّ: قدمت المدينة فى يوم ريحٍ وغُبْرةٍ، وإذا الناس يموج بعضهم فى بعض.

فقلت: ما لى أرى الناس يموج بعضهم فى بعض؟

فقالوا: أما أنت من أهل هذا البلد؟

قلت: لا.

قالوا: مات اليوم سيد المسلمين، أبىّ بن كعب.

حقاً لقد كنت من أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه!

فسلام عليك- أبا المنذر- فى الخالدين مع الأبرار والصالحين!

ص: ۱۰۱

ص: ۱۰۲

ص: ۱۰۳

أيام التشريق فى القرآن الكريم

وَاذْكُرُواْ اللهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون (۱).

أوشك موسم الحج أن ينقضى، وقربت مناسكه من نهايتها، وما هو إلا وقت يسير حتى يعود الحاج إلى أهله وبلده، وهنا يأتيه النداء الأخير ليكمل به عمله الذى بدأه، وشعائره التى تلبس بها، ومناسكه التى حرص على أدائها، وبالتالى يتم حجه الذى قدّم فى سبيله ما كان غالياً عنده من جهد ومال وبُعد عن الأحبة والأهل والأولاد، وعطل لأدائه نشاطه من تجارة وكد وكسب ..

يأتيهم نداء السماء المبارك

وَاذْكُرُواْ اللهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ

شاءت السماء أن لا يغادر الحاج ساحة الحج حتى يذكر الله تعالى كما يحب سبحانه وتعالى وكما يريد، وفى الوقت الذى يشاء أن يذكر فيه فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ.

أيام معدودات لا غير، أيام حبيبة إليه تعالى، لها شأن عظيم عنده، فيها جزاء خاص لديه .. تريدها السماء للحاج؛ ليتزود فيها بما يعصمه من سيئات الدنيا وعذاب الآخرة، وليأخذ من عطاء مائدتها ما يهيئه لجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ..

إنها أيام الذكر؛ ذكر الله تعالى، إنها أيام التشريق، إنها أيام منى، وقد جاءت تتميماً لأيام سبقتها أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ذات بركات كبيرة للحجيج لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ (۲). وجاءت أيضاً بعد يوم عظيم؛ عرفة (الحج عرفة) وجاءت أخيراً وقد اقترنت بيوم النحر بيوم الأضحى، فغدت أيام الحج: يوم عرفة والنحر والتشريق .. ما أجلّها من أيام! وما أعظمها من أيام! وما أجملها من أيام! ... أيام ترغب السماء أن يكثر عباد الله الصالحون من ذكر الله تعالى فيها، فهى مفضلة وصالحة للذكر، وهى معدة للعبادة، وهى مهيئة للعطاء ... وهى تذكرهم بيوم الحشر، وتشدهم إلى يوم الحساب، إنه يوم مهيب ومخيف .. ذاك هو يوم الحشر الأكبر الذى لا ينجو فيه إلا المتقون ..

وبما أن الحاج على وشك الانتهاء من أعمال الحج، وتَرْك تلك الأماكن المباركة، والعودة إلى صخب الحياة وزخرفها، أعقب ذلك سبحانه ببيان أن لزوم المؤمن لتقوى الله ينبغى أن يكون على كل حال، وفى كل زمان، فليست تقوى الله خاصة بزمان محدد، ولا بمكان معين، وإنما هى مطلوبة فى الحِلِّ والترحال، والعبادة والحياة، والشدة والرخاء، كما ثبت فى الحديث: «اتق الله حيثما كنت»، فى أى مكان كنت، وعلى أى حال صرت، لا كما يفعل بعض المسلمين اليوم، عند خروجهم من عبادة، كانتهاء رمضان، حيث يعودون إلى ما كانوا عليه من أعمال لا ترضى الله تعالى ورسوله (ص)؛ ولهذا جاءت: وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون.

أمر القرآن الكريم بالتقوى فى خاتمة الكلام، وراح يذكرنا بالحشر والبعث؛ لأن التقوى لا تتم، والمعصية لا تجتنب، بل والحياة لا تستقيم، إلا مع ذكر يوم الجزاء، قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الْحِسابِ ..) (۳).

۱- البقرة: ۲۰۳.

۲

۲- الحج: ۲۸.

۳- ص: ۲۶.

ص: ۱۰۴

وفى اختيار لفظ الحشر فى قوله تعالى: أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون، مع ما فى نسك الحج من حشر الناس وجمعهم لطف ظاهر، وإشعار بأن الناسك ينبغى- وهو يعيش هذا الجمع المهيب والإفاضة- أن يذكر يوماً يحشر فيه الناس جميعاً .. وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۱).

هذا وأن من أروع ما فى الحج وكله رائع، ومن أجمل ما فى الحج وكله جميل، ومن أنفع ما فى الحج وكله نافع .. هو تلك الدروس الكبيرة المستفادة من مظاهره ومناسكه، التى أهمها وأجلها: توحيد الله تعالى، بدءاً بالإحرام نية وأحكاماً وآداباً مروراً بالمناسك الأخرى التالية له، فمثلًا الحاج حينما يفرغ من الطواف وأدعيته التوحيدية، تراه يصلى ركعتى الطواف، فيقرأ فى الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة الكافرون وفى الركعة الثانية يقرأ سورة الإخلاص، وفى هاتين السورتين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية، ففى السورة الأولى البراءة من دين المشركين وإفراد الله بالعبادة. وفى السورة الثانية إفراد الله بصفات الكمال وتنزيهه عن صفات النقص، وبذلك يعرف العبد ربه، ويخلص له العبادة ويتبرأ من عبادة ما سواه. وهكذا فى السعى بين الصفا والمروة ...

ومن ذلك يتعلم المسلم أنه لايحل الطواف و السعى فى أى مكان من الأرض إلا فى المكان المخصص لهما حول البيت المبارك وبين الصفا والمروة، وهكذا بقية المناسك والمواقف؛ لأنها من شعائر الله تعالى، فالسعى مثلًا بين هذين المكانين إنما هو بأمر الله تعالى، فكل سعى فى مكان غيرهما فليس عبادة لله، لأنه سعى بغير أمره تعالى، وليس فى زمنه المعين، وبعيداً عن مكانه المحدد .. ويتجلى بينهما ذكر الله تعالى ومظاهر التوحيد، وكذا موقفه فى عرفة «الحج عرفة» وهكذا المزدلفة، تتبين فى كل هذه المحطات مظاهر توحيد الله تعالى فى الحج، ثم تتضح فى منى وما فيها من مناسك عديدة عبر ما شرعه الله تعالى فى يوم العيد وأيام التشريق. قال تعالى:

وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ (۲).

وذكر الله فى هذه الأيام يتجلى فى الشعائر العظيمة التى تؤدى فى أيام منى، من رمى الجمار، وذبح الهدى، وأداء الصلوات فرضاً كانت أو استحباباً فى هذا المشعر المبارك والأيام المباركة، كل هذه الأعمال ذكر لله عز وجل. فرمى الجمار ذكر لله، ولهذا يقول المسلم عند رمى كل حصاة: (الله أكبر)، وذبح الهدى ذكر لله عز وجل كما قال تعالى: وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَام (۳)، وهكذا كل ما يعمله الحاج هو ذكر لله تعالى، ومصداق للآية المباركة.

ومن فوائد هذه الآية أنها تعد الأخيرة فى بيان مناسك الحجّ. وقد أبطلت سنناً جاهلية، حيث كانوا يتفاخرون فى موسم العيد بآبائهم وأجدادهم وأمجادهم التى يزعمون، فسنّت بدل ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى، فجاءت وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ.

وبقرينة الآيات السابقة لهذه الآية، جاء هذا الأمر بذكر الله تعالى ناظراً إلى الأيّام الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر التى تسمّى بلسان الروايات (أيّام التشريق). وكأن صدى هذه المناسك يتردد فى جنبات منى، فيؤدى إلى إشراقة الروح المؤمنة، وهى تؤدى بل تعيش مناسك الحج، وخصوصاً فى أيامها الأخيرة حيث قمة المناسك وختامها.

وقت النزول

هذا وأن الوقت الذى نزلت فيه هذه الآيات هو فى حجة الوداع، آخر حجة حجها رسول‌الله (ص)، وفيها تم تشريع حج التمتع.

الآية لغة وإعراباً وقراءة

۱- الكهف: ۴۷.

۲- البقرة: ۲۰۳.

۳- الحج: ۲۸.

ص: ۱۰۵

الإعراب والقراءة

واذكروا الله: واو عاطفة وفعل أمر مبنى على حذف النون والواو فاعل، واسم الجلالة مفعول به.

فى أيام: جار ومجرور، ومعدودات صفة لأيام.

فمن: الفاء استئنافية، ومن: شرطية مبتدأ.

تعجّل: فعل ماض فى محل جزم فعل الشرط.

فى يومين: الجار والمجرور متعلقان بتعجل.

فلا إثم: الفاء رابطة ولا نافية للجنس وإثم اسمها المبنى على الفتح.

عليه: جار ومجرور متعلقان بمحذوف خبر لا، والجملة المقترنة بالفاء فى محل جزم جواب الشرط، وفعل الشرط وجوابه خبر من.

وكذا وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ

لمن اتقى: اللام حرف جر، ومن اسم موصول فى محل جر باللام، والجار والمجرور متعلقان بمحذوف خبر لمبتدأ محذوف، أى ذلك التخيير. ويقول أبو البقاء: وفى لمن اتقى: خبر مبتدأ محذوف تقديره: جواز التعجيل والتأخير لمن اتقى.

واتقوا الله: الواو عاطفة، واتقوا فعل أمر مبنى على حذف النون، والواو فاعل، ولفظ الجلالة مفعول به.

واعلموا: عطف على اتقوا.

أنكم: أن واسمها، وإليه: الجار والمجرور متعلقان بتحشرون.

تحشرون: فعل مضارع وفاعل، والجملة الفعلية خبر أن، وأن وما بعدها فى تأويل مصدر سدت مسد مفعولى اعلموا.

أبو البقاء فى فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ يقول: الجمهور على إثبات الهمزة، وقرئ «فلثم» ووجهها أنه لما خلط لا بالاسم حذف الهمزة لشبهها بالألف، ثم حذف ألف لا لسكونها وسكون الثاء بعدها.

وعن معدودات: قال الكوفيون: الألف والتاء لأقل العدد، وقال البصريُّون: هما للقليل والكثير. وفى مجمع البيان للشيخ الطبرسى: المعدودات تستعمل كثيراً فى اللغة للشىء القليل، وكل عدد قل أو كثر فهو معدود، ولكن معدودات أدل على القلة؛ لأن كل قليل يجمع بالألف والتاء.

وأنقل هنا ما قاله صاحب الدر المصون، وهو يرد على ما ذكره أبو البقاء العكبرى عن هذه الصفة «معدودات» يقول السمين الحلبى:

قوله تعالى: مَّعْدُودَاتٍ: صفة لأيام، وقد تقدَّم أن صفةَ ما لا يعقل يَطَّرِد جَمْعُها بالألفِ والتاءِ.

وقد طَوَّل أبو البقاء هنا بسؤال وجواب، أما السؤالُ فقال: إنْ قيل ":الأيام "واحدُها "يوم "و "المعدودات "واحدتُها "معدودةٌ، "واليومُ لا يُوَصَفُ بمعدودة، لأنَّ الصفةَ هنا مؤنثة والموصوفُ مذكَّر، وإنما الوجهُ أن يقالَ ":أيامٌ معدودةٌ "فَتَصِفُ الجمع بالمؤنثِ،

فالجوابُ إنه أَجْرى "معدودات "على لفظ أيام، وقابَلَ الجمعَ بالجمع مجازاً، والأصلُ معدودة، كما قال:

لَن تَمَسَّنَا لنَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَّعْدُودَةً (۱).

ولو قيل: إن الأيام تَشْتمل على الساعات، والساعةُ مؤنثة فجاء الجمعُ على معنى ساعات الأيام، وفيه تنبيهٌ على الأمر بالذكر فى كلِّ ساعاتِ هذه الأيامِ أو فى معظمِها، لكانَ جواباً سديداً.

۱- البقرة: ۸۰.

ص: ۱۰۶

ونظيرُ ذلكَ الشهر والصيف والشتاء فإنها يُجاب بها عن كم، [وكم] إنما يجابُ عنها بالعدد، وألفاظُ هذه الأشياءِ ليسَتْ عدداً وإنما هى أسماءُ المعدودات فكانت جواباً من هذا الوجهِ."

يقول صاحب الدر المصون عن هذا: وفى هذا السؤالِ والجوابِ تطويلٌ من غيرِ فائدةٍ، وقولُه ":مفرد معدودات معدودة بالتأنيث" ممنوعٌ، بل مفردُهَا "معدود "بالتذكير، ولَا يضُرُّ جمعُه بالألفِ والتاء، إذ الجمع بالألفِ والتاءِ لَايسْتدعى تأنيثَ المفرد، ألا ترى إلى قولِهم: حَمَّامات وسِجِلَّات وسُرادِقات.

وذكر الشيخ الطوسى: وسميت معدودات لأنها قلائل، كما قال: وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ (۱) أى قليلة. والجمع بالألف والتاء يصلح للقليل والكثير، والقليل أغلب عليه. وقال الزجاج: الألف والتاء يصلح للكثير قال الله تعالى: وَ هُمْ فِى الْغُرُفاتِ آمِنُونَ (۲) وقال: إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۳) وإنما احتمل هذا الجمع القليل والكثير، لأن جمع السلامة على طريقة واحدة لا يتميز فيه قليل من كثير، وكان القليل أغلب عليه، لشبهه بالتثنية.

(معلومات (معدودات

وردت معدودات فى الآيات التالية:

الآية: ۱۸۴ وهى آية الصيام، ۲۰۳ وهى محل مقالتنا، وكلاهما من سورة البقرة. ولم يرد موضوع الحج ضمن عنوان «معدودات» إلا فى هذه الآية.

والآية ۲۴ من سورة آل عمران.

فيما وردت معلومات فى الآيات التالية:

الآية: ۱۹۷ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ من سورة البقرة.

الآية: ۲۸ .. وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ .. من سورة الحج. فمعلومات لم ترد إلا فى آيتين تخصان فريضة الحج.

مع روايات الفريقين:

وقبل أن نتعرض إلى أقوال المفسرين فى مقاطع هذه الآية، نذكر الروايات من الفريقين حول الآية ومرادها:

۱- روايات أهل البيت:

فى الكافى عن الصادق (ع) فى قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ، قال: «وهى أيام التشريق، وكانوا إذا أقاموا بمنى بعد النحر تفاخروا فقال الرجل منهم: كان أبى يفعل كذا وكذا، فقال الله جلَّ شأنه: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرا، قال: والتكبير: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام.»

وفيه عنه (ع) قال: «والتكبير فى أيام التشريق من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الفجر من اليوم الثالث، وفى الأمصار يكبر عقيب عشر صلوات». وفى الفقيه فى قوله تعالى: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ، سئل الصادق (ع) فى هذه الآية فقال: «ليس هو على أن ذلك واسع إن شاء صنع ذا، لكنه يرجع مغفوراً له لا ذنب له».

وروى عن أبى عبدالله (ع) فى قوله تعالى: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ أى من مات فى هذين اليومين، فقد كفر عنه كل ذنب. ومن تأخر أى أنسئ أجله، فلا إثم عليه بعدها إذا اتقى الكبائر».

۱- يوسف: ۲۰.

۲- سبأ: ۳۷.

۳- الحجر: ۴۵.

ص: ۱۰۷

محمد بن مسلم قال: سألت أبا عبد الله (ع) عن قول الله عز وجل: وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِی أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: «التكبير فی أيام التشريق: صلاة الظهر من يوم النحر إلى صلاة الفجر من يوم الثالث، وفی الأمصار عشر صلوات» (۱).

عن حماد بن عيسى قال: سمعت أباعبدالله (ع) يقول: «قال على (ع) فی قول الله وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِی أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: أيام التشريق».

وعن رفاعة عن أبی عبدالله (ع) قال: سألته عن الأيام المعدودات، قال: «هی أيام التشريق».

عن محمد بن مسلم قال: سألت أباعبدالله عن قول الله: وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِی أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: «التكبير فی أيام التشريق فی دبر الصلاة».

عن معاوية بن عمار عن أبی عبدالله (ع) فی قول الله: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِی يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ، قال: «يرجع مغفوراً له، لا ذنب له».

عن أبی أيوب الخزاز، قال: قلت لأبی عبد الله (ع): إنا نريد أن نتعجل، فقال: «لا تنفروا فی اليوم الثانی حتى تزول الشمس. فأما اليوم الثالث، فإذا انتصف فانفروا فإن الله يقول: فَمَنْ تَعَجَّلَ فِی يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ فلو سكت لم يبق أحد إلا يعجل، ولكنه قال عز وجل: وَ مَنْ تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ (۲).

وفی الفقيه عن الصادق (ع) فی قوله تعالى: لِمَنِ اتَّقى الآية، قال: «يتقى الصيد حتى ينفر أهل منى».

وعن الباقر (ع): «لمن اتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرم الله فی إحرامه».

وعنه أيضاً: «لمن اتقى الله عزَّ وجلَّ».

وعن الصادق (ع): «لمن اتقى الكبائر».

۲ روايات أهل السنة:

أخرج عبد بن حميد وابن أبی الدنيا وابن أبی حاتم عن على بن أبی طالب قال: الأيام المعدودات ثلاثة أيام: يوم الأضحى، ويومان بعده، إذبح فی أيها شئت، وأفضلها أولها.

وأخرج الفريابی وابن أبی الدنيا وابن المنذر عن ابن عمر فی قوله: وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِی أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: ثلاثة أيام، أيام التشريق. وفی لفظ: هی الثلاثة الأيام بعد يوم النحر.

وأخرج الفريابی وعبد بن حميد والمروزی فی العيدين وابن جرير وابن المنذر وابن أبی حاتم وابن مردويه والبيهقی فی الشعب والضياء فی المختارة من طرق عن ابن عباس قال: الأيام المعلومات أيام العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق.

وأخرج الطبرانی عن عبدالله بن الزبير وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِی أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: هن أيام التشريق يذكر الله فيهن بتسبيح وتهليل وتكبير وتحميد.

وأخرج ابن أبی الدنيا والمحاملی فی أماليه والبيهقی عن مجاهد قال: الأيام المعلومات العشر، والأيام المعدودات أيام التشريق.

وأخرج ابن أبی حاتم عن ابن عباس قال: الأيام المعدودات أربعة أيام: يوم النحر، وثلاثة أيام بعده.

وأخرج المروزی عن يحيى بن كثير فی قوله: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِی أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: هو التكبير فی أيام التشريق دبر الصلوات.

۱- التهذيب ۲۹۲: ۱، والكافی ۵۱۶: ۳.

۲- تفسير العياشی ۱: تحت الأرقام ۲۷۶- ۲۸۲.

ص: ۱۰۸

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عمر، أنه كان يكبر تلك الأيام بمنى ويقول: التكبير واجب، ويتأوّل هذه الآية: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ.

وأخرج المروزى وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن عمرو بن دينار قال: رأيت ابن عباس يكبر يوم النحر ويتلو: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ.

وأخرج ابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ قال: التكبير أيام التشريق، يقول فى دبر كل صلاة: الله أكبر الله أكبر الله أكبر.

وأخرج ابن المنذر عن ابن عمر، أنه كان يكبر ثلاثاً ثلاثاً وراء الصلوات بمنى: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير.

وأخرج المروزى عن الزهرى قال: كان رسول الله (ص) يكبر أيام التشريق كلها.

وأخرج سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال: سمعت ابن عباس يكبر يوم الصدر ويأمر من حوله أن يكبر، فلا أدرى تأوّل قوله تعالى: وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُوداتٍ أو قوله: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ الآية.

وأخرج الحاكم وصححه عن عائشة قالت: أفاض رسول الله ۹ من آخر يومه حين صلى الظهر، ثم رجع فمكث بمنى ليالى التشريق يرمى الجمرة إذا زالت الشمس، كل جمرة بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة، ويقف عند الأولى وعند الثانية، فيطيل القيام ويتضرع، ثم يرمى الثالثة ولا يقف عندها. (۱)

مع المفسرين:

للمفسرين أقوال فى الآية وجاء مفادها تبعاً لما ذكرته الروايات، ونجد تلك الأقوال عبر المقاطع الأربعة للآية الكريمة:

المقطع الأول: وَاذْكُرُواْ اللَّهَ.

المقطع الثانى: فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ.

المقطع الثالث: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى.

المقطع الرابع: وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون.

المقطع الأول: وَاذْكُرُوا الله

فعن الذكر ومواضعه والأقوال المختلفة فيه:

يقول الشيخ الطبرسى (۵۴۸ ه):

والذكر المأمور به هو أن تقول عقيب خمس عشرة صلوات: الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا والله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام، وأول التكبير عندنا عقيب الظهر من يوم النحر وآخره عقيب صلاة الفجر من اليوم الرابع من النحر هذا لمن كان بمنى، ومن كان بغير منى من الأمصار يكبر عقيب عشر صلوات أولها صلاة الظهر من يوم النحر أيضاً. هذا هو المروى عن الصادق (ع)، وفى ذلك اختلاف بين الفقهاء ووافقنا فى ابتداء التكبير من صلاة الظهر من يوم النحر ابن عباس وابن عمر. (۲)

و يقول الشيخ البلاغى عن (وَاذْكُرُواْ اللَّهَ):

۱- انظر الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ۹۱۱ هجرية.

۲- مجمع البيان فى تفسير القرآن: الآية.

ص: ۱۰۹

وذكر الله فى التكبير كما فى صحيحتى محمد ومنصور المشار إليهما. وصورته المتفق عليها بين المسلمين كما ذكره فى التبيان: الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر. لا إله إلا الله والله أكبر الله أكبر ولله الحمد. وزاد أصحابنا تبعاً للروايات عن أئمتهم أهل البيت وجمعاً بينها: الله أكبر على ما هدانا والحمد لله على ما أولانا ورزقنا من بهيمة الأنعام. وهو مستحب على المشهور لصحيحة على بن جعفر عن أخيه الكاظم قال: سألته عن التكبير فى أيام التشريق أواجب أو لا؟ قال (ع): «مستحب وإن نسى فلا شىء عليه»، فالأمر فى الآية للاستحباب. ووقته بعد كل فريضة من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من اليوم الثالث عشر فيكون خمسة عشر تكبيراً، ولمن ينفر بالنفر الأول بعد الزوال فيكون عشر مرات. واختلف كلام الفقهاء من الجمهور فى عدده ولكن مالكاً والشافعى فى أحد أقواله وافقا أصحابنا. (۱)

يقول الرازى (۶۰۶ ه):

المسألة الثانية: المراد بالذكر فى هذه الأيام: الذكر عند الجمرات، فإنه يكبر مع كل حصاة والذكر إدبار الصلوات والناس أجمعوا على ذلك، إلا أنهم اختلفوا فى مواضع:

الموضع الأول: أجمعت الأمة على أن التكبيرات المقيدة بإدبار الصلوات مختصة بعيد الأضحى، ثم فى ابتدائها وانتهائها خلاف.

القول الأول: أنها تبتدأ من الظهر يوم النحر إلى ما بعد الصبح من آخر أيام التشريق فتكون التكبيرات على هذا القول فى خمس عشرة صلاة، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال مالك والشافعى رضى الله عنهما فى أحد أقواله، والحجة فيه أن الأمر بهذه التكبيرات إنما ورد فى حق الحاج، قال تعالى: فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ ثم قال: وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وهذا إنما يحصل فى حق الحاج، فدل على أن الأمر بهذه التكبيرات إنما ورد فى حق الحاج وسائر الناس تبع لهم فى ذلك، ثم إن صلاة الظهر هى أول صلاة يكبر الحاج فيها بمنى، فإنهم يلبون قبل ذلك، وآخر صلاة يصلونها بمنى هى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، فوجب أن تكون هذه التكبيرات فى حق غير الحاج مقيد بهذا الزمان.

القول الثانى: للشافعى رضى الله عنه أنه يبتدأ به من صلاة المغرب ليلة النحر، إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وعلى هذا القول تكون التكبيرات بعد ثمانى عشرة صلاة.

والقول الثالث: للشافعى رضى الله عنه أن يبتدأ بها من صلاة الفجر يوم عرفة، وينقطع بعد صلاة العصر من يوم النحر، فتكون التكبيرات بعد ثمان صلوات، وهو قول علقمة والأسود والنخعى وأبى حنيفة.

والقول الرابع: أنه يبتدأ بها من صلاة الفجر يوم عرفة، وينقطع بعد صلاة العصر من يوم النحر من آخر أيام التشريق، فتكون التكبيرات بعد ثلاث وعشرين صلاة، وهو قول أكابر الصحابة، كعلى وعمر وابن مسعود وابن عباس، ومن الفقهاء قول الثورى وأبى يوسف ومحمد وأحمد وإسحاق والمزنى وابن شريح، وعليه عمل الناس بالبلدان، ويدل عليه وجوه:

الأول: ما روى جابر أن النبى (ص) صلى الصبح يوم عرفة، ثم أقبل علينا فقال: الله أكبر، ومد التكبير إلى العصر من آخر أيام التشريق.

والثانى: أن الذى قاله أبو حنيفة أخذ بالأقل، وهذا القول أخذ بالأكثر، والتكثير فى التكبير أولى لقوله تعالى: اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً (۲).

الثالث: أن هذا هو الأحوط، لأنه لو زاد فى التكبيرات فهو خير من أن ينقص منها.

والرابع: أن هذه التكبيرات تنسب إلى أيام التشريق، فوجب أن يؤتى بها إلى آخر أيام التشريق.

۱- آلاء الرحمن فى تفسير القرآن: الآية.

۲- الأحزاب: ۴۱.

ص: ۱۱۰

فإن قيل: هذه التكبيرات مضافة إلى الأيام المعدودات وهى أيام التشريق، فوجب أن لا تكون مشروعة يوم عرفة.

قلنا والقول للرازى-: فهذا يقتضى أن لا يكبر يوم النحر وهو باطل بالإجماع، وأيضاً لما كان الأغلب فى هذه المدة أيام التشريق؛ صح أن يضاف التكبير إليها.

الموضع الثانى: قال الشافعى رضى الله عنه: المستحب فى التكبيرات أن تكون ثلاثاً نسقاً أى متتابعاً، وهو قول مالك، وقال أبوحنيفة وأحمد: يكبر مرتين، حجة الشافعى ما روى عبد الله بن محمد بن أبى بكر بن عمرو بن حزم، قال: رأيت الأئمة يكبرون فى أيام التشريق بعد الصلاة ثلاثاً، ولأنه زيادة فى التكبير، فكان أولى لقوله تعالى: اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً

ثم قال الشافعى رضى الله عنه: ويقول بعد الثلاث: «لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد» ثم قال: وما زاد من ذكر الله فهو حسن، وقال فى التلبية: وأحب أن لا يزيد على تلبية رسول الله (ص)، والفرق أن من سنة التلبية التكرار فتكرارها أولى من ضم الزيادة إليها، وههنا يكبر مرة واحدة فتكون الزيادة أولى من السكوت، وأما التكبير على الجمار فقد روى أن النبى عليه الصلاة والسلام كان يكبر مع كل حصاة، فينبغى أن يفعل ذلك (۱).

وأما ابن عطية (۵۴۶ ه)، فيقول ذاكراً أقوال آخرين:

وجعل الله الأيام المعدودات أيام ذكر الله، وقد قال النبى (ص): «هى أيام أكل وشرب وذكر الله». ومن جملة الذكر التكبير فى إثر الصلوات، واختلف فى طرفى مدة التكبير: فقال عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وابن عباس: يكبر من صلاة الصبح من يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال ابن مسعود وأبو حنيفة: يكبر من غداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر.

وقال يحيى بن سعيد: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر من آخر يوم التشريق.

وقال مالك: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال الشافعى. وقال ابن شهاب: يكبر من الظهر يوم النحر إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال سعيد بن جبير: يكبر من الظهر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال الحسن بن أبى الحسن: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر يوم النفر الأول.

وقال أبو وائل: يكبر من صلاة الظهر يوم عرفة إلى صلاة الظهر يوم النحر.

ومشهور مذهب مالك أنه يكبر إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات، وفى المذهب رواية أنه يقال بعد التكبيرات الثلاث: لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد. (۲)

ويقول الآلوسى (۱۲۷۰ ه):

(وَاذْكُرُواْ اللَّهَ) أى كبروه إدبار الصلوات وعند ذبح القرابين ورمى الجمار وغيرها. (۳)

المقطع الثانى: أيام معدودات

هناك اهتمام أكيد من الدين الإسلامى الحنيف ببعض الأيام، وأفردها عن غيرها بخصائص معينة، تميزها عن غيرها من الأيام، فالأيام المعلومات هى العشر الأولى من شهر ذى الحجة، وفيها يوم التروية ويوم عرفة واليوم الأول من عيد الأضحى ويسمى يوم النحر.

۱- التفسير الكبير للرازى: الآية.

۲- المحرر المعانى: الآية.

۳- روح المعانى: الآية.

ص: ۱۱۱

ومن هـذه الأيام التى لها أحكام خاصـة بها، أيام التشـريق، وتسـمى أيام منى، وهى فى الآيـة: أَيَّامٍ مَّعْـدُودَاتٍ. فالـذى حددته الروايات وجـاءت على ضوئه أقوال المفسـرين فى المراد من أَيَّامٍ مَّعْـدُودَاتٍ هى: الأيام الثلاثـة التى تلى يوم العيـد، وتسـمى أيام التشـريق وهى اليوم الحادى عشـر، واليوم الثانى عشـر، واليوم الثالث عشـر. فاليوم العاشـر وهو أول أيام عيد الأضـحى لا يعد من أيام التشـريق المرادة بالآية الكريمة: أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ. ومع هذا فقد وقع اختلاف بينهم حول عددها هل هى ثلاثة أيام، أو هى يومان؟

ونبدأ ببيان معنى التشريق، فقد قال فى لسان العرب:

تشريق اللحم. تقطيعه وتقديده وبسطه، ومنه سميت أيام التشريق.

وقيل: سميت بذلك؛ لأنهم كانوا يقولون فى الجاهلية أشرق ثبير كيما نغير؛ الإغارة: الدفع.

وقال ابن الأعرابى: سميت بذلك لأن الهدى والضحايا لا تنحر حتى تشرق أى تطلع.

وقال أبو عبيد: فيه قولان: يقال: سميت بذلك لأنهم كانوا يشرقون فيها لحوم الأضاحى، وقيل: بل سميت بذلك لأنها كلها أيام تشريق لصلاة يوم النحر، يقول: فصارت هذه الأيام تبعاً ليوم النحر.

قال: وهذا أعجب القولين إلىَّ. قال: وكان أبو حنيفة يذهب بالتشريق إلى التكبير، ولم يذهب إليه غيره.

وقيل: المُشـرّق: مصـلى العيد بمكة. وقيل: مصلى العيد ولم يقيد بمكة ولا غيرها. والتشريق: صلاة العيد وإنما أخذ من شروق الشمس؛ لأن ذلك وقتها وفى الحديث: «لا ذبح إلا بعد التشريق» أى بعد الصلاة.

الحافظ ابن حجر: وسميت أيام التشريق؛ لأن لحوم الأضاحى تشرق فيها أى تنشر عند الشمس، وقيل: التشريق التكبير دبر كل صلاة.

وقيل: لشروق القمر فيها طول الليل، وهو واحد من أربعة أقوال ذكرها صاحب كنز العرفان فى فقه القرآن للسيورى. (۱)

عدد أيام التشريق وأسماؤها

ذاك فى معنى التشريق، وأما عن عددها، فإن أيام التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر؛ لأن لحم الأضاحى يشرق فيها للشمس.

وقال النووى: وأيام التشريق هى الثلاثة التى بعد النحر. ويقال لها: أيام منى؛ لأن الحجاج يقيمون فيها بمنى.

وفى عـددها كما قلنا وقع اختلاف، فقـد قال الحافظ ابن حجر: وقـد اختلف فى كونها يومين أو ثلاثـة. وهى ثلاثـة أيام بعد يوم النحر، وهذا قول ابن عمر وأكثر العلماء، وأفضـلها أولها وهو يوم القر؛ لأن أهل منى يستقرون فيه، ولا يجوز فيه النفر، وهى الأيام المعدودات وأيام منى.

القر والنفر

القر، لغـةً: من قر بفتـح القاف وتشديـد الراء وفتحها، قر بالمكان قراً، وقراراً، بفتح القاف، وقروراً بضم القاف والراء: أقام، تقول: قررت فى هذا المكان طويلًا، وقر: سكن واطمأن.

النفر، لغـةً: من نفر، نفراً ونفوراً: هجر وطنه وضـرب فى الأـرض، وفى التنزيـل العزيز: فَلَوْ لاـ نَفَرَ مِنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طائِفَـةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الـدِّينِ. وَ مـا كـانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَـافَّةً. ونفر من المكان: تركه إلى غيره، يقال: نفر الحاج من منى: دفعوا إلى مكـة، ونفر الناس إلى العدو: أسرعوا فى الخروج لقتاله، وفى التنزيل العزيز: انْفِرُوا خِفافاً وَ ثِقالًا. (۲)

۱- كنز العرفان ۳۱۹: ۱.

۲- انظر المعجم الوسيط: نفر. قر.

ص: ۱۱۲

هـذا وأن اليوم (الأـول) منهـا يقال له: يوم القر- بفتـح القاف- لأن الحجاج يقرون فيه بمنى. و (الثانى) يوم النفر الأول؛ لأنه يجوز النفر فيه لمن تعجـل. و (الثالث) يوم النفر الثانى. وسـميت أيام التشـريق؛ لأن الحجاج يشـرقون فيها لحوم الأضاحى والهـدايا. أى: يشترونها، ويقددونها وأيام التشريق هى الأيام المعدودات ..

وقد ذكر ابن كثير فى سيرته كلاماً شبيهاً بهذا، حيث قال: أول أيام التشـريق يسمى يوم القر؛ لأنهم يقرون فيه، ويقال له: يوم الرؤوس؛ لأنهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحى، وهو أول أيام التشـريق، وثانى أيام التشريق يقال له: يوم النفر الأول لجواز النفر فيه، وقيل: هو اليوم الذى يقال له: يوم الرؤوس، واليوم الثالث من أيام التشريق يقال له: يوم النفر الآخر.

وهذه الأيام هى أيام التشريق وهى الحادى عشر ويسمى يوم القر، والثانى عشر ويسمى يوم الصدر، والثالث ويسمى يوم النفر، وسميت أيام التشريق ...

وقد ورد عن أيام التشـريق هذه: عن عقبة بن عامر عن النبى (ص) قال: «يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشـريق عيدنا أهل الإسـلام، وهى أيام أكل وشرب.» (۱)

وفى مفاتيح الغيب يقول الرازى (۶۰۶ ه):

المسألـة الأـولى: إن الله تعـالى ذكر فى مناسك الحـج الأيام المعـدودات، والأيام المعلومات فقال هنا: وَاذْكُرُواْ اللَهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ وقال فى سورة الحـج: لِيَشْـهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِى أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ (۲) فمذهب الشافعى رضـى الله عنه أن المعلومات هى العشـر الأـول مـن ذى الحجـة آخرهـا يـوم النحر، وأمـا المعـدودات فثلاثـة أيـام بعـد يـوم النحر، وهى أيـام التشـريق، واحتـج على أن المعـدودات هى أيـام التشـريق بـأنه تعـالى ذكر الأيام المعـدودات، والأيام لفظ جمع فيكون أقلها ثلاثـة، ثم قال بعـده: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وهـذا يقتضـى أن يكون المراد فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ من هذه الأيام المعدودات، وأجمعت الأمة على أن هذا الحكم إنما ثبت فى أيام منى وهى أيام التشريق، فعلمنا أن الأيام المعدودات هى أيام التشريق،

والقفال أكد هذا بما روى فى «تفسيره» عن عبد الرحمن بن نعمان الديلمى، أن رسول الله (ص) أمر منادياً فنادى: «الحج عرفة من جاء ليلـة جمع قبل طلوع الفجر فقـد أدرك الحـج، وأيام منى ثلاثـة أيام فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه» وهـذا يدل على أن الأيام المعدودات هى أيام التشريق.

قال الواحـدى رحمـة الله عليه: أيام التشـريق هى ثلاثـة أيام بعد يوم النحر أولها: يوم النفر، وهو اليوم الحادى عشـر من ذى الحجة ينفر الناس فيه بمنى والثانى: يوم النفر الأول لأن بعض الناس ينفرون فى هـذا اليوم من منى والثالث: يوم النفر الثانى، وهذه الأيام الثلاثة مع يوم النحر كلها أيام النحر، وأيام رمى الجمار فى هذه الأيام الأربعة مع يوم عرفة أيام التكبير إدبار الصلوات ...

يقول الشـيخ الطبرسـى صاحب مجمع البيان: وَاذْكُرُواْ اللَهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ هـذا أمر من الله للمكلفين أن يـذكروه فى أيام معـدودات وهى أيام التشـريق ثلاثة أيام بعد النحر، والأيام المعلومات عشـر ذى الحجة عن ابن عباس والحسن وأكثر أهل العلم، وهو المروى عن أئمتنا. وذكر الفراء أن المعلومات أيام التشريق والمعدودات العشر.

والشـيخ البلاغى فى تفسـيره للأيام فى الآيـة: وَاذْكُرُواْ اللَهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ يقول: الأيام المذكورة فى الآية هى أيام التشـريق كما فى صحيحى الكافى عن محمد بن مسـلم ومنصور بن حازم وصـحيحة التهذيب عن حماد بن عيسى عن الصادق (ع) كصحيحتى الوسائل عن قرب الإسناد عن حماد عنه (ع) ونحوهما روايات العياشى وروايـة الدر المنثور عن ابن عباس وابن الزبير.

۱- رواه أصحاب السنن. انظر التاج الجامع للأصول ۲: كتاب الصوم: ۸۵.

۲- الحج: ۲۸.

ص: ۱۱۳

ويقول العلامة الطباطبائى فى تفسيره الميزان: الأيام المعدودات هى أيام التشريق وهى اليوم الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة، والدليل على أن هذه الأيام بعد العشرة من ذى الحجة ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أعمال الحج وعن دليله فيقول: والدليل على كونها ثلاثة أيام قوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ ... فإن التعجل فى يومين إنما يكون إذا كانت الأيام ثلاثة: يوم ينفر فيه، ويومان يتعجل فيهما فهى ثلاثة، وقد فسرت فى الروايات بذلك أيضاً.

ثم راح السيد العلامة يذكر ما يؤيد قوله من الروايات، ومتن الرواية فيه المراد من الذكر أيضاً، ونحن ننقلها كما هى فى هذا المقطع: ففى الكافى عن الصادق (ع) فى قوله تعالى: وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ الآية، قال: وهى أيام التشريق، وكانوا إذا أقاموا بمنى بعد النحر تفاخروا فقال الرجل منهم: كان أبى يفعل كذا وكذا، فقال الله جلَّ شأنه: فَإِذا قَضَيْتُمْ مَناسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آباءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرا، قال: والتكبير: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر ولله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، الله أكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام.

وفيه عنه (ع) قال: والتكبير فى أيام التشريق من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الفجر من اليوم الثالث، وفى الأمصار يكبر عقيب عشر صلوات.

ابن عطية (۵۴۶ ه) يقول: وأمر الله تعالى عباده بذكره فى الأيام المعدودات، وهى الثلاثة التى بعد يوم النحر، وهى أيام التشريق، وليس يوم النحر من المعدودات، ودل على ذلك إجماع الناس على أنه لا ينفر أحد يوم القر، وهو ثانى يوم النحر، فإن يوم النحر من المعلومات، ولو كان يوم النحر فى المعدودات لساغ أن ينفر من ينفر من شاء متعجلًا يوم القر، لأنه قد أخذ يومين من المعدودات، وحكى مكى والمهدوى عن ابن عباس أنه قال: «المعدودات هى أيام العشر»، وهذا إما أن يكون من تصحيف النسخة، وإما أن يريد العشر الذى بعد يوم النحر، وفى ذلك بُعد، والأيام المعلومات هى يوم النحر ويومان بعده؛ لإجماعهم على أنه لا ينحر أحد فى اليوم الثالث، والذكر فى المعلومات إنما هو على ما رزق الله من بهيمة الأنعام. وقال ابن زيد: «المعلومات عشر ذى الحجة وأيام التشريق»، وفى هذا القول بُعد. (۱)

إذن الأيام المعدودات هى: أيام التشريق، قال ابن رجب: وأما الأيام المعدودات فالجمهور على أنها أيام التشريق، وروى عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما، واستدل ابن عمر بقوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وإنما يكون التعجيل فى أيام التشريق. قال الإمام أحمد: ما أحسن ما قال ابن عمر. والأيام المعلومات هى: أيام عشر ذى الحجة.

هذا وأن الفيروز آبادى (۸۱۷ ه) فى تفسيرالقرآن، يذهب إلى أنها خمسة أيام، فيقول:

وَذْكُرُواْ للَّهَ بالتكبير والتهليل والتمجيد فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ معلومات أيام التشريق وهى خمسة أيام يوم عرفة ويوم النحر وثلاثة أيام بعدهما .. انتهى قول الفيروزآبادى.

وأخيراً يمكن القول بعد استقراء ما ذكرناه وما لم نذكره خوف الإطالة: إن الذى يمنع جعل يوم النحر، وهو اليوم العاشر من ذى الحجة كما يبدو والله العالم من فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ أى من أيام منى، هو ليس له ما يؤيده لا فى القرآن ولا فى السنة؛ لأن يوم النحر كانت بدايته الوقوف بالمشعر الحرام "المزدلفة "ثم تبدأ الإفاضة من المشعر الحرام إلى منى، وهو عندئذ يوم الإفاضة، وبعده جاءت الآية: وَاذْكُرُواْ اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ هذا أولًا.

وثانياً: الذى يمنع هو ما ورد عن النبى (ص "):أيامُ منى ثلاثة فمن تعجَّل فى يومين فلا إثْم عليه."

۱- تفسير المحرر الوجيز: الآية.

ص: ۱۱۴

فإذا جعلنا يوم النحر الذى هو العاشر من ذى الحجة واحداً من الثلاثة الواردة فى الحديث، فيجوز حينئذ النفر فى اليوم الحادى عشر من ذى الحجة وهو اليوم الثانى للعيد، وهو يوافق اليوم الأول من أيام منى الثلاثة الواردة فى الحديث، وهو أمر لا خلاف فى عدم جوازه.

هـذا إضافةً إلى الأخبار والأقوال التى تحـدّد أن أَيَّامٍ مَّعْلوماتٍ هى الأيام العشـرالأولى من ذى الحجـة، و أَيَّامٍ مَّعْـدُودَاتٍ هى أيام منى والتى تسميها الروايات أيام التشريق، والتى هى اليوم الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة.

المقطع الثالث: (فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى):

المراد بالتعجل هنا: انصـرا ف الحاج من منى فى اليوم الثانى من أيام التشـريق وهو اليوم الثانى عشـر من ذى الحجـة، وذلك بعـد رميه جمار ذلك اليوم.

وتعجـل لغـةً: عجـل: عجلًا، وعجلـةً: أسـرع، وفى التنزيـل العزيز: عَجِلْتُ إِلَيْـكَ رَبِّ لِتَرْضـى (۱) والعجلة: السـرعة، الإسـراع فى شـىء والمبادرة .. ومنه تعجل: وتعجل فلاناً: حثه. وتعجل الشـىء: أخذه بسـرعة .. وتعجل: يجوز أن يكون بمعنى اسـتعجل، وهو يأتى بمعنى تفعل واستفعل .. كتكبر واستكبر .. وتيقن واستيقن، وتقضى واستقضى، وتعجل واستعجل .. وتعجل يأتى لازماً ومتعدياً، تقول: تعجلت فى الشـىء وتعجلته، واسـتعجلت فى الشـىء واسـتعجلت زيداً، وبمعنى الفعل المجرّد فيكون بمعنى: عجل، كقولهم: تلبث بمعنى لبث، وتعجب وعجب، وتبرّ أو برىء، وهو أحد المعانى التى جاء لها تفعل. (۲)

وجاء فى مجمع البيان للشيخ الطبرسى: المعنى فى ذلك الرخصة فى جواز النفر فى اليوم الثانى من أيام التشريق، والأفضل أن يقيم إلى النفر الأخير وهـو الثـالث من التشـريق، وإذا نفر فى الأول نفر بعـد الزوال إلى غروب الشـمس فـإن غربت فليس له أن ينفر إلى اليـوم الثالث.

وقوله: فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فيه قولان- أحـدهما:- أن معنـاه لا إثم عليه لأن سيئاته صـارت مكفرة بمـا كان من حجّه المبرور، وهو قول ابن مسـعود- والثـانى:- أن معناه لا إثم عليه فى التعجيل والتأخير وإنما نفى الإثم لئلا يتوهم متوهمٌ أن فى التعجيل إثماً، وإنما قال عليه فى التأخير على جهة المزاوجة كما يقال: إن أعلنت الصدقة فحسن وإن أسررتَ فحسن وإن كان الإسرار أحسن وأفضل عن الحسن، وقوله: لِمَنِ اتَّقى فيه قولان- أحدهما:- أن الحج يقع مبروراً مُكَفِرّاً للسيئات إذا اتقى ما نهى الله عنه والآخر: ما رواه أصحابنا أن قوله: لِمَنِ اتَّقى، متعلق بالتعجيل فى اليومين، وتقديره فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه لمن اتقى الصيد إلى انقضاء النفر الأخير وما بقى من إحرامه، ومن لم يتقها فلا يجوز النفر فى الأول، وهو المروى عن ابن عباس واختاره الفراء.

وقد روى أيضاً عن أبى عبد الله فى قوله: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ أى من مات فى هذين اليومين فقد كُفِّرَ عنه كل ذنب ومن تأخر أى من أجله فلا إثم عليه إذا اتقى الكبائر.

وقوله: وَاتَّقُوا الله أى اجتنبوا معاصى الله اعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ أى تحققوا أنكم بعد موتكم تجمعون إلى الموضع الذى يحكم الله فيه بينكم ويجازيكم على أعمالكم.

وعن هذا المقطع يقول البلاغى:

فَمَن تَعَجَّلَ فِى ضمن يَوْمَيْنِ من تعجل الدين أى تعجل مقامه بمنى فى ضمن يومين بتعجل غايته فنفر النفر الأول. ولو كان بمنى استعجل وعجل، أو للمطاوعة كما فى الكشاف، لدلت الآية على جواز النفر فى اليوم الأول منها أيضاً، وهو

۱- سورة طه: ۸۴.

۲- انظر الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى: الآية. ولسان العرب، والمعجم الوسيط

ص: ۱۱۵

باطل بإجماع المسلمين. ولأجل جعل التعجل فى ضمن يومين اشترط أصحابنا وفقهاء أهل السنة، إلا أبا حنيفة وأصحابه، كونه قبل الغروب من اليوم الثانى، فلو أمسى حرم عليه النفر الأول.

فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لهذه الجملة ظاهر لا حاجة إلى بيانه؛ لأن فى رواية الكافى عن إسماعيل بن نجيح رد عليه؛ ولأن الأحاديث عن الفريقين جاءت على خلافه وهو أن المراد غفرت ذنوبه. منها صحيحة الحلبى فى قوله تعالى: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُوماتٌ وصحيحة عبد الأعلى ورواية ابن عيينة ورواية ابن نجيح ورواية العياشى عن معاوية ابن عمار وعن ابن عباس فى إحدى الروايتين، فيكون حاصل المراد من الآية الكريمة: فمن أتم حجه بالتعجل أو التأخر غفرت ذنوبه، فإنه لا أثر لخصوص عنوانى التعجل والتأخر فى غفران الذنوب.

ومن هذا الوجه وكون التعجل إتماماً للحج يعرف جوازه وأنه لِمَنِ اتَّقى النساء والصيد كما هو المشهور بين الإمامية، باعتبار الاختصاص بالأمرين المذكورين والمجمع عليه باعتبار الدخول فى كل ما يحرم على المحرم كما عن ابن سعيد، أو ما يوجب عليه الكفارة كما عن ابن إدريس وأبى المجد كما ورد فى خصوص النساء والصيد صحيحة حماد بن عثمان وروايته الأخرى كما فى التهذيب وصحيحة جميل ومعتبرة ابن المستنير عن الصادق (ع) وبه جاءت إحدى روايات الدر المنثور عن ابن عباس، والمراد اتقاء المحرم وما يحرم عليه فى حجه مما يكون بين النساء والرجال سواء كان رجلًا أو امرأة.

وهناك روايات أخرى من الفريقين لم يأخذ بمضمونها الإمامية. وعلى ذلك إجماعهم، مضافاً إلى أن قوله تعالى: لِمَن اتَّقى لا يستقيم تفسيره بالتقوى المطلقة بعمومها؛ لأن حصولها إلى حين النفر لا يتفق إلا للمعصوم، فلا يبقى موقعاً للامتنان بغفران الذنوب إذا كان ذلك قيداً له، وكذا لا يبقى مورد للتخفيف على سائر الناس كما يعرف من روايات الفريقين بأجمعها إذا كان قيداً لجواز النفر كما لا يستقيم تفسيره بمطلق حصول التقوى ومصداقها فى الماضى، إذ لا فائدة على ذلك فى هذا القيد، فإن كل من له حج قد حصل منه مصداق للتقوى، فلا بد من أن يراد بذلك تقوى خاصة وهو ما بينته الروايات المتقدمة، وبالنظر إلى هذا الذى ذكرناه يسقط كثير من الأحاديث. (۱)

ويقول الرازى عن هذا المقطع:

أما قوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ففيه سؤالات:

السؤال الأول: لم قال فمن تعجل ولم يقل فمن عجل؟.

الجواب: قال صاحب «الكشاف»: تعجل واستعجل يجيئان مطاوعين بمعنى عجل، يقال: تعجل فى الأمر واستعجل، ومتعديين يقال: تعجل الذهاب واستعجله.

السؤال الثانى: قوله: وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ فيه إشكال، وذلك لأنه إذا كان قد استوفى كل ما يلزمه فى تمام الحج، فما معنى قوله: فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ فإن هذا اللفظ إنما يقال فى حق المقصّر ولا يقال فى حق من أتى بتمام العمل.

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه تعالى لما أذن فى التعجل على سبيل الرخصة احتمل أن يخطر ببال قوم أن من لم يجر على موجب هذه الرخصة فإنه يأثم، ألا ترى أن أبا حنيفة رضى الله عنه يقول: القصر عزيمة، والإتمام غير جائز، فلما كان هذا الإحتمال قائماً، لا جرم أزال الله تعالى هذه الشبهة وبين أنه لا إثم فى الأمرين، فإن شاء استعجل وجرى على موجب الرخصة، وإن شاء لم يستعجل ولم يجر على موجب الرخصة، ولا إثم عليه فى الأمرين جميعاً.

۱- آلاء الرحمن فى تفسير القرآن: الآية.

ص: ۱۱۶

وثانيها: قال بعض المفسرين: إن منهم من كان يتعجل، ومنهم من كان يتأخر، ثم كل واحد من الفريقين يعيب على الآخر فعله، كان المتأخر يرى أن التعجل مخالفة لسنّة الحج، وكان المتعجل يرى أن التأخر مخالفة لسنّة الحج، فبين الله تعالى أنه لا عيب فى واحد من القسمين ولا إثم، فإن شاء تعجل وإن شاء لم يتعجل.

وثالثها: أن المعنى فى إزالة الإثم عن المتأخر إنما هو لمن زاد على مقام الثلاث، فكأنه قيل: إن أيام منى التى ينبغى المقام بها هى ثلاث، فمن نقص عنها فتعجل فى اليوم الثانى منها فلا إثم عليه، ومن زاد عليها فتأخر عن الثالث إلى الرابع فلم ينفر مع عامة الناس فلا شىء عليه.

ورابعها: أن هذا الكلام إنما ذكر مبالغة فى بيان أن الحج سبب لزوال الذنوب وتكفير الآثام، وهذا مثل أن الإنسان إذا تناول الترياق، فالطبيب يقول له: الآن إن تناولت السم فلا ضرر، وإن لم تتناول فلا ضرر، مقصوده من هذا بيان أن الترياق دواء كامل فى دفع المضار، لا بيان أن تناول السم وعدم تناوله يجريان مجرى واحد، فكذا ههنا المقصود من هذا الكلام بيان المبالغة فى كون الحج مكفراً لكل الذنوب، لا بيان أن التعجل وتركه سيان، ومما يدل على كون الحج سبباً قوياً فى تكفير الذنوب قوله عليه الصلاة والسلام: «من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

وخامسها: أن كثيراً من العلماء قالوا: الجوار مكروه، لأنه إذا جاور الحرم والبيت سقط وقعه عن عينه، وإذا كان غائباً إزداد شوقه إليه، وإذا كان كذلك احتمل أن يخطر ببال أحدنا على هذا المعنى أن من تعجل فى يومين فحاله أفضل ممن لم يتعجل، وأيضاً من تعجل فى يومين فقد انصرف إلى مكة لطواف الزيارة وترك المقام بمنى، ومن لم يتعجل فقد اختار المقام بمنى وترك الإستعجال فى الطواف فهذا السبب يبقى فى الخاطر تردد فى أن المتعجل أفضل أم المتأخر؟ فبين الله تعالى أنه لا إثم ولا حرج فى واحد منهما.

وسادسها: قال الواحدى رحمه الله تعالى: إنما قال: وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لتكون اللفظة الأولى موافقة للثانية، كقوله: وَ جَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها (۱)وقوله: فَمَنِ اعْتَدى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدى عَلَيْكُمْ (۲) ونحن نعلم أن جزاء السيئة والعدوان ليس بسيئة ولا بعدوان، فإذا حمل على موافقة اللفظ ما لا يصح فى المعنى، فلأن يحمل على موافقة اللفظ ما يصح فى المعنى أولى، لأن المبرور المأجور يصح فى المعنى نفى الإثم عنه.

السؤال الثالث: هل فى الآية دلالة على وجوب الإقامة بمنى بعد الإفاضة من المزدلفة؟.

الجواب: نعم، كما كان فى قوله: فَإِذا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفاتٍ (۳) دليل على وقوفهم بها.

ثم يواصل الرازى كلامه قائلًا: واعلم أن الفقهاء قالوا: إنما يجوز التعجل فى اليومين لمن تعجل قبل غروب الشمس من اليومين، فأما إذا غابت الشمس من اليوم الثانى قبل النفر فليس له أن ينفر إلا فى اليوم الثالث؛ لأن الشمس إذا غابت فقد ذهب اليوم، وإنما جعل له التعجل فى اليومين لا فى الثالث، هذا مذهب الشافعى، وقول كثير من فقهاء التابعين، وقال أبو حنيفة رضى الله عنه: يجوز له أن ينفر ما لم يطلع الفجر لأنه لم يدخل وقت الرمى بعد.

وفى قوله تعالى: لِمَن اتَّقى يقول الرازى: ففيه وجوه:

أحدها: أن الحاج يرجع مغفوراً له بشرط أن يتقى الله فيما بقى من عمره ولم يرتكب ما يستوجب به العذاب، ومعناه التحذير من الاتكال على ما سلف من أعمال الحج، فبيّن تعالى أن عليهم مع ذلك ملازمة التقوى ومجانبة الاغترار بالحج السابق.

وثانيها: أن هذه المغفرة إنما تحصل لمن كان متقياً قبل حجه، كما قال تعالى: إِنَّما يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (۴)، وحقيقته أن المصرّ على الذنب لاينفعه حجه وإن كان قد أدى الفرض فى الظاهر.

۱- الشورى: ۴۰.

۲- البقرة: ۱۹۴.

۳- البقرة: ۱۹۸.

۴- المائدة: ۲۷.

ص: ۱۱۷

وثالثها: أن هذه المغفرة إنما تحصل لمن كان متقياً عن جميع المحظورات حال اشتغاله بالحج، كما روى فى الخبر من قوله عليه الصلاة والسلام: «من حج فلم يرفث ولم يفسق ...».

واعلم أن الوجه الأول من هذه الوجوه التى ذكرناها إشارة إلى اعتباره فى الحال. والتحقيق أنه لا بد من الكل وقال بعض المفسرين المراد بقوله: لِمَن اتَّقى ما يلزمه التوقى فى الحج عنه من قتل الصيد وغيره، لأنه إذا لم يجتنب ذلك صار مأثوماً، وربما صار عمله محبطاً، وهذا ضعيف من وجهين:

الأول: أنه تقييد للفظ المطلق بغير دليل.

الثانى: أن هذا لا يصح إلا إذا حمل على ما قبل هذه الأيام، لأنه فى يوم النحر إذا رمى وطاف وحلق، فقد تحلّل قبل رمى الجمار، فلا يلزمه اتقاء الصيد إلا فى الحرم، لكن ذاك ليس للإحرام، لكن اللفظ مشعر بأن هذا الاتقاء معتبر فى هذه الأيام، فسقط هذا الوجه.

ويقول الفيروز آبادى (۸۱۷ه):

فَمَن تَعَجَّلَ برجوعه إلى أهله فِى يَوْمَيْنِ بعد يوم النحر فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ بتعجيله وَمَن تَأَخَّرَ إلى اليوم الثالث فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ بتأخيره ويقال فلا عتب عليه بتأخيره يخرج مغفوراً له لِمَنِ تَّقَى يقول: التعجيل لمن اتقى الصيد إلى اليوم الثالث وَتَّقُواْ للَّه واخشوا الله فى أخذ الصيد إلى اليوم الثالث وَعْلَمُواْ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ بعد الموت. (۱)

هذا ويقول محمد بن أبى بكر الرازى فى مسائله:

كيف قال: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ ومعلوم أن المتعجل التارك بعض الرمى إذا لم يكن عليه إثم لا يكون على المتأخر الآتى بالرمى كاملًا؟

يقول الرازى فى إجابته عن هذا السؤال الذى طرحه:

كان أهل الجاهلية فريقين: منهم من جعل المتعجل آثماً، ومنهم من جعل المتأخر آثماً، فأخبر الله تعالى بنفى الإثم عنهما جميعاً، أو معناه لا إثم على المتأخر فى تركه الأخذ بالرخصة مع أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، أو معناه أن انتفاء الإثم عنهما موقوف على التقوى لا على مجرد الرخصة فى الرمى، ثم قيل: المراد به تقوى المعاصى فى الحج، وقيل: تقوى المعاصى بعد الحج فى بقية العمر بالوفاء بما عاهد الله تعالى عليه بعرفة وغيرها من مواقف الحج من التوبة والإنابة ...

ابن عطية: وقوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ، قال ابن عباس والحسن وعكرمة ومجاهد: المعنى من نفر فى اليوم الثانى من الأيام المعدودات فلا حرج عليه، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج عليه، فمعنى الآية: كل ذلك مباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً وتأكيداً إذ كان من العرب من يذم المتعجل وبالعكس، فنزلت الآية رافعة للجناح فى كل ذلك، ومن العلماء من رأى أن التعجل إنما أبيح لمن بَعُدَ قطره لا للمكى والقريب، إلا أن يكون له عذر، قاله مالك وغيره، ومنهم من رأى أن الناس كلهم مباح لهم ذلك، قاله عطاء وغيره.

وقال على بن أبى طالب وابن مسعود وإبراهيم: معنى الآية من تعجل فقد غفر له ومن تأخر فقد غفر له، واحتجوا بقوله (ع): «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من خطاياه كيوم ولدته أمه»، فقوله تعالى: فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ نفى عام وتبرئة مطلقة، وقال مجاهد أيضاً: معنى الآية من تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام القابل، وأسند فى هذا القول أثر.

وقال أبو العالية: المعنى فى الآية لا إثم عليه لمن اتقى بقية عمره، والحاج مغفور له البتة.

۱- تفسير القرآن، الآية.

ص: ۱۱۸

وقال أبو صالح وغيره: معنى الآية لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنبه فى الحج، وقال أيضاً: لمن اتقى فى حجه فأتى به تاماً حتى كان مبروراً، واللام فى قوله: لِمَنِ اتَّقى متعلقة إما بالغفران على بعض التأويلات، أو بارتفاع الإثم فى الحج على بعضها، وقيل: بالذكر الذى دل عليه قوله: وَاذْكُرُوا، أى الذكر لمن اتقى، ويسقط رمى الجمرة الثالثة عمن تعجل.

وقال ابن أبى زمنين: يرميها فى يوم النفر الأول حين يريد التعجل.

قال ابن المواز: يرمى المتعجل فى يومين بإحدى وعشرين حصاة، كل جمرة بسبع حصيات، فيصير جميع رميه بتسع وأربعين حصاة.

قال القاضى أبو محمد عبد الحق رضى‌الله عنه: لأنه قد رمى جمرة العقبة بسبع يوم النحر.

قال ابن المواز: ويسقط رمى اليوم الثالث.

وقرأ سالم بن عبد الله: فَلا إِثْمَ عَلَيه بوصل الألف، ثم أمر تعالى بالتقوى وذكر بالحشر والوقوف بين يديه.

النفر:

إذن، يستفاد من الآية المباركة أن هناك نفرين اتفقا فى المكان وهو من منى، واختلفا فى اليوم:

النفر الأول؛ لقوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ: وهو النفر من منى.

وقته: فى اليوم الثانى من أيام التشريق، أى أن الحاج يخرج من منى بعد الزوال وقبل غروب شمس اليوم الثانى عشر من ذى الحجة.

النفر الثانى؛ لقوله تعالى: وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ: وهو النفر من منى.

وقته: فى اليوم الثالث من أيام التشريق، أى أن الحاج يخرج من منى بعد الزوال وقبل غروب شمس اليوم الثالث عشر من ذى الحجة.

يقول الدكتور الزحيلى: وإذا رمى فى اليوم الثانى من أيام التشريق بعد الزوال، فأراد أن ينفر من منى إلى مكة، وهو المراد من النفر الأول، فله ذلك؛ لقوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ أى بترك الرمى فى اليوم الثالث، والأفضل ألا يتعجل، بل يتأخر إلى آخر أيام التشريق، وهو اليوم الثالث منها، فيستوفى الرمى فى الأيام كلها، ثم ينفر، وهو معنى النفر الثانى فى قوله تعالى: وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ.

ثم نقل هذين القولين لابن عباس وابن مسعود:

قال ابن عباس فى هذه الآية: فمن تعجل فى يومين غفر له، ومن تأخر غفر له.

وكذا قال ابن مسعود فى قوله تعالى: فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ: رجع مغفوراً له، وذلك مشروط بالتقوى؛ لقوله تعالى: لِمَن اتَّقى.

التعجيل

وعن وقت التعجيل يقول الدكتور وهبة الزحيلى:

ووقت التعجيل عند الجمهور فى ثانى أيام التشريق، وهو النفر الأول، يكون قبل غروب الشمس للآية السابقة، وحديث عبد الرحمن بن يعمر عند أبى داود وابن ماجه: «أيام منى ثلاثة، فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه»

ص: ۱۱۹

واليوم: اسم للنهار، فمن أدركه الليل، فما تعجل فى يومين، فإن غربت الشمس وهو بها لم يخرج حتى يرمى من غد بعد الزوال.

وقال أبو حنيفة: للحاج أن ينفر ما لم يطلع الفجر من اليوم الرابع من أيام العيد، فإذا طلع الفجر، لم يكن له أن ينفر لدخول وقت الرمى. (۱)

*** المقطع الرابع: وَاتَّقُواْ اللَه وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون

الحشر: جمع القوم من كل ناحية، والمحشر مجتمعهم، يقال منه: حشر يحشر حشراً .. وقال الراغب: الحشر: ضم المفترق وسوقه، وهو بمعنى الجمع .. وحشرهم حشراً: جمعهم وساقهم، ويقال: حشر الله الخلق حشراً: بعثهم من مضاجعهم وساقهم. ومنه اجتماع الخلق يوم القيامة ..

يقول الرازى:

أما فى قوله تعالى فيقول: وَاتَّقُوا الله فهو أمر فى المستقبل، وهو مخالف لقوله: لِمَنِ اتَّقى الذى أريد به الماضى فليس ذلك بتكرار، وقد علمت أن التقوى عبارة عن فعل الواجبات وترك المحرمات.

ويقول الرازى: وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون فهو تأكيد للأمر بالتقوى، وبعث على التشديد فيه، لأن من تصور أنه لا بد من حشر ومحاسبة ومساءلة، وأن بعد الموت لا دار إلا الجنة أو النار، صار ذلك من أقوى الدواعى له إلى التقوى، وأما الحشر فهو اسم يقع على ابتداء خروجهم من الأجداث إلى انتهاء الموقف، لأنه لا يتم كونهم هناك إلا بجميع هذه الأمور، والمراد بقوله: إليه أنه حيث لا مالك سواه ولا ملجأ إلا إياه، ولا يستطيع أحد دفعاً عن نفسه، كما قال تعالى: يَوْمَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَ الأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلهِ (۲)

وعن هذا المقطع يقول البلاغى: وَاتَّقُواْ اللَه وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون مقتضى سوق الآية هو أنه لا تتكلوا على غفران ما مضى من ذنوبكم بسبب الحج، بل اتقوا الله فيما بقى من أعماركم وتحققوا، وليكن على علمكم وذكركم دائماً أنكم إلى الله لا محالة تحشرون فيحاسبكم على أعمالكم ويجازيكم؛ فاستعدوا لذلك بالتقوى وتزودوا منها فإنها خير زاد. (۳)

الأحكام

وقد ذكر الفقهاء أحكاماً يؤديها المكلف فى هذه الأيام، ومنها:

ما ذكره السيورى:

۱- الذكر فى هذه الأيام وهو التكبير عقيب خمس عشرة صلاة لمن كان بمنى، وعقيب عشر لمن كان بغيرها، وصورته:

«الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، والله أكبرالله أكبر ولله الحمد. الله أكبر على ما هدانا، والحمد لله على ما أولانا، والله أكبر على مارزقنا من بهيمة الأنعام».

۲- وجوب الكون بمنى تلك الليالى، ويستحب النهار، وهو لازم عن الأمر بالذكر فيها، وعن قوله تعالى: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ فيستلزم ثبوت الإثم للمستعجل (لمن تعجل) قبل ذلك.

۳- أن وجوب الكون فى الثلاثة تخييرى بينها وبين اليومين الأولين خاصة، لكن اليوم الثانى عشر له حكمان أحدهما: أنه لا يجوز النفر فيه، إلا بعد الزوال. والثانى: أنه متى غربت الشمس وهو بمنى تحتم عليه المبيت بها الليلة الثالثة؛ لأن

۱- الفقه الإسلامى ۱۹۵: ۳- ۱۹۶.

۲- الانفطار: ۱۹، وانظر: التفسير الكبير، الآية.

۳- آلاء الرحمن فى تفسير القرآن: الآية.

ص: ۱۲۰

التعجيل محله النهار، فإذا مضى ولم يتعجل فلو تعجل فى الليلة الثالثة لزم كون تعجيله ليس فى اليومين، فيكون آثماً وهو المطلوب.

۴- أن ذلك التخيير ليس مطلقاً بالنسبة إلى كل حاج، بل هو لمن اتقى. واختلف فيه على قولين، قيل: معناه اتقى الصيد والنساء فى إحرامه. وقيل: اتقى ساير المحرمات فى الإحرام، والأول هو المروى، والفتوى عليه.

۵- أن غير المتقى يتحتم عليه الكون فى الليالى الثلاث، ويكون نفره يوم الثالث عشر، ولا يجوز قبله.

۶- أن من بات الليلة الثالثة عشرة، لا ينفر حتى تطلع الشمس ويرمى الجمار، وكذا فى النفر الأول لا ينفر إلا بعد رمى الجمار، ووقته بعد طلوع الشمس أيضاً، وبه قال الشافعى، وقال أبو حنيفة: ينفر قبل طلوع الفجر. قيل: كان فى الجاهلية منهم من تأثم بالتعجيل، ومنهم من تأثم بالتأخير. فجاء القرآن برفع الإثم عنهما معاً. (۱)

والرواية الأولى هنا تدل على القول الأول هى: عن حماد عن أبى‌جعفر (ع) عن قوله: (لِمَنِ اتَّقى) الصيد، فإن ابتلى بشىء من الصيد ففداه، فليس له أن ينفر فى يومين. (۲)

الرواية الثانية وهى تدل على القول الثانى: عن سلام بن المستنير عن أبى جعفر (ع) فى قوله: فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى. منهم الصيد واتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرم الله عليه فى إحرامه. (۳)

وختاماً، لا بد من القول: إنه بهذه الآية انتهى الكلام عن أحكام الحج، التى يرشد تعالى المؤمنين إذا فرغوا من مناسكهم بأن رموا جمرة العقبة ونحروا وطافوا طواف الإفاضة واستقروا بمنى، أن يكثروا من ذكر الله تعالى عند رمى الجمرات، وعند الخروج من الصلوات ذكراً مبالغاً فى الكثرة منه على النحو الذى كانوا فى الجاهلية يذكرون فيه مفاخر آبائهم وأحساب أجدادهم وأمجادهم بل أكثر وأعظم .. ثم تأتى هذه الآية أيضاً؛ لتحمل رحمة الله بعباده، ومن باب التوسعة عليهم؛ فإن شاء الحاج أقام فى منى أيام الرمى الثلاثة، وهى الحادى عشر والثانى عشر والثالث عشر من ذى الحجة، وإن شاء تعجل بعد أن يرمى فى اليوم الأول والثانى، ثم يخرج من منى قبل مغيب شمس يوم الثانى عشر، وأيام منى ثلاثة، فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وكان قوله تعالى: لِمَنِ اتَّقى قيداً جميلًا، وكذا المقطع الأخير: وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُون. لأن الإنسان إذا علم أنه سيحشر إلى الله عزّ وجلّ، وأنه سيجازيه فإنه سوف يتقى الله سبحانه، ويقوم بما أوجبه عليه، ويترك ما نهاه عنه؛ وبهذا تعرف الحكمة من كون الله عزّ وجلّ يقرن كثيراً من الآيات بالإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر وإثبات البعث ...

ليستعد الإنسان لذلك بذكر الله سبحانه وتعالى وبشكره والحرص على طاعته ..

۱- انظر فى هذا كنز العرفان للسيورى ۳۱۹: ۱- ۳۲۰.

۲- تفسير العياشى ۱: تحت الرقم: ۲۸۶.

۳- المصدر نفسه، تحت الرقم: ۲۸۰.

ص: ۱۲۱

ص: ۱۲۲

عمر الأطرف بن الإمام علی بن أبی طالب (ع) و روایاته فی الحدیث و الآثار

توطئة

أنتجت عقود الإسلام الأولی أحداثاً جساماً، ترکت بصماتها الواضحة علی مسار الأحداث المتلاحقة والمتسارعة فی العقود التی تتابعت علی الأمة، بعد التحاق نبیها محمد (ص) بالرفیق الأعلی.

تحُرِّک هذه الأحداث وتؤثر فی مجریاتها مجموعة من الشخصیات التی عاصرتها وکانت صاحبة القرار فیها، وربما یبرز حدث ما من تلک الحوادث، فیصعّد شخصیة إلی مسرح الأحداث لم تکن من الشهرة بمکان سوی الحدث الذی اقترنت به، فتکون مادة یسلّط المؤرخون فیها الضوء علی دور هذه الشخصیة ومساهماتها، وتترک شخصیات أخر انتهجت الهدوء والإنزواء مسلکاً فی حیاتها، أو لم یقیض لها القدر دوراً حتی تؤثر فی مجریات حوادث عصرها ما دامت تمتلک المؤهلات لذلک من النسب الرفیع والعلم والوجاهة، وربما کانت شهرة الشخصیات التی زامنتها قد جعلت من الرواة والمؤرخین یغفلونها أو یقصروا من حیث تسلیط الأضواء علیها.

کانت شخصیة عمر بن الإمام علی بن أبی طالب (ع)، من بین الشخصیات التی لم یوف المؤرخون القدامی- ولا حتی المحدثون من الباحثین- حقها من الدراسة والتحلیل، لما تبدو للقارىء لسیرتها لأول وهلة إنها شخصیة لاتستحق إفراد دراسة مستقلة لها؛ لأن دورها لیس بمؤثر فی أحداث عصرها، فضلًا عن قلة الأحادیث والروایات المنسوبة لها والمسندة إلیها، وذلک قیاساً بأقرانه من رجالات عصره ممن هم فی طبقته ونسبه، وکما صوّرت ذلک النصوص والأخبار التی تناقلتها المصادر عنه، والتی توحی للمطلع علیها أنها قد لاتکوّن بمجموعها صورة واضحة عن خلجات هذه الشخصیة والظروف التی ساعدت علی تنشأتها- وهذا ما أردنا إثبات عکسه- أو أن هذه الشخصیة قد تباینت مواقفها من الأحداث التی عاصرتها لدرجة عدم الإسهاب فی ذکر أخبارها، أو أن ما آثرته من حیاة الدعة والسکینة طیلة حیاتها، قد أخرجتها بذلک عن دائرة الضوء لتکون أشبه بالمتفرجة علی مسار الأحداث دون اتخاذ مواقف صارمة وحازمة منها، أو حتی تشکیل حلقات موسعة للدرس والحدیث فی المسجد، یجعلها مقصداً لطالبی العلم.

کل ذلک، دفعنی إلی تقلیب صفحات المصادر والمظان، لکی أجمع ما تناقله الرواة من أخبار عن شخصیة عمر الأطرف، وأدرس الأسباب التی حالت وراء المسلک الذی اختطه فی حیاته تلک، والعلاقة التی کانت تربطه بأفراد البیت العلوی من إخوته وأولادهم، ومن ثم الوقوف علی ما رواه من أحادیث وروایات حفظها عن أبیه الإمام علی (ع)، وما أسهم به من دور إزاء الحوادث التی عاصرها بدءاً من صغره حین کان فی کنف والده (ع)، وحتی وفاته بعد أن تجاوز الخمسة والسبعین عاماً علی أقل تقدیر؛ ممن حدد عمره من المؤرخین بهذه المدة، حتی أضحی آخر من توفی من أولاد الإمام علی (ع).

ومن ثم فمن المستبعد أن تکون مثل شخصیة عمر الأطرف بن الإمام علی (ع) ذات العمر الطویل هذا- قیاساً بباقی إخوته- من الشخصیات الهامشیة فی التاریخ الإسلامی، وذلک من حیث صلته الوطیدة بالشخصیات الفاعلة فی أحداث العقود الستة التی أعقبت وفاة الرسول الأکرم (ص)، من أبیه الإمام علی (ع) خلیفة المسلمین وزعیمهم، إلی أخوته الذین ذاع صیتهم (الحسن والحسین (علیهما السلام) ومحمد بن الحنفیة)، فضلًا عن اغترافه للعلم من الینابیع الفکریة الرئیسة للإسلام بکونه من أولاد علی (ع)، ذلک الشخص الذی تمثل الإسلام فکرة وسلوکاً، وفوق کل ذلک کونه أحد أولاده الخمسة الذین استمر عقبه منهم، وما ترکه من ذریة وأحفاد أسهموا فی إشاعة وروایة الأحادیث والأخبار التی رواها جدهم عمر عن أبیه علی (ع) من جهة، إلی روایتهم عن أئمة أهل البیت (علیهم السلام) وتبنیهم للخط الفکری والعقائدی الذی سلکوه من جهة أخری، ثم ما لعبته

ص: ۱۲۳

المصاهرات المتبادلة فيما بين ذرية آل عمر الأطرف وبين ذرية آل أبى طالب، والتى ساعدتنا فى إيضاح بعض الملابسات التى وقعت فى ثنايا النصوص لبعض الحوادث.

أخذت شهرة إخوة عمر (الحسن والحسين (عليهما السلام) ومحمد بن الحنفية) وباقى أهل بيته، الحيز الكبير من جهود الباحثين العلمية فانصبت عليها أقلامهم ودراساتهم المتنوعة فى جميع مجالات اختصاصهم، دون أن ينبرى باحث للتصدى بدراسته، إذ لم أجد بين الأكاديميين وغيرهم من الكتاب- وعلى حد علمى المتواضع- من حاول الكتابة عنه بصورة مستقلة بورقة علمية أو كتاب، وهذا مما هو مستغرب! إذ كان يذكر فى ثنايا كتب الأخبار والأحاديث فى تعداد أولاد الإمام على (ع)، أو ما روى هو أولاده وأحفاده من أحاديث وروايات عن أهل البيت (عليهم السلام) ومدى قبول العلماء لتلك الأحاديث والروايات- المنسوبة- فى ميزان الجرح.

وبذلك تحفزت على الخوض فى البحث والدراسة عن هذه الشخصية، بعد أن تجمع لدىّ عدد جيد من الأحاديث والروايات من طريق عمر الأطرف بن الإمام على (ع)، والتى نقلتها المصادر المتقدمة عنه، إذ لو بوّبت ونسقت تلك النصوص، فلربما تعطى إضاءة حول طبيعة تلك الشخصية المسكوت عنها وخلجاتها، وإجابة عن المواقف التى انتهجتها من أحداث عصرها، ثم التركيز على الانفرادات التى تسجل له من بين تلك الأحاديث والروايات التى لم يشترك مع باقى إخوته فى نقلها عن أبيهم (ع)، وتصنيف تلك الأحاديث والروايات فى المواضيع التى تحدثت عنها، والجوانب المبرزة منها، ومدى قبول العلماء لها، فكان هذا البحث.

المبحث الأول: حياته ودوره فى أحداث عصره

لم تحدد المصادر التى ترجمت له سنةً لولادته، ولكنها أشارت إلى أنه ولد أيام خلافة عمر بن الخطاب (۱۳- ۲۳ ه-)، وذلك برواية تشير إلى أن الإمام علياً قد بشر بولادته وهو عند عمر، فنحله الأخير إسمه ووهب له أحد غلمانه (۱)، ولكن هذه الرواية تتعارض مع مثيلة لها يكون الواهب لهذا الغلام هو عمر بن عبد العزيز لأحد العلويين من ذرية عمر الأطرف (۲)، فضلًا عن أن مسألة تحديد سنة ولادة عمر الأطرف ينتابها الشك فى مدى صحتها، وذلك للتعارض فى الروايات حول مقدار عمره.

ألقابه: لقب عمر بالأطرف، وذلك فى حقبة لاحقة من حياته، تمييزاً له عن عمر بن على بن الحسين الذى لقب بالأشرف، إذ أطلقت هذه التسمية عليه من قبل العلويين بعد ولادة الأخير (۳)، وفى رأى آخر: إن هذه التسمية كانت لشرفية عمر بن على من طرف واحد من خلال والده الإمام على (ع)، لأن والدته أمة، عكس سميّه عمر بن الإمام زين العابدين على بن الحسين (ع) الذى نال الشرف من طرفيه (الأب والأم) (۴).

أمه: كانت أم عمر الأطرف، من سبايا خالد بن الوليد حينما أغار على بنى تغلب فى منطقة (عين تمر) (۵)، وذلك أيام خلافة أبى بكر الأخيرة (۶)، إذ نقل قدامة (۳۲۸ ه-) فى رواية مهمة- لم توردها كتب الفتوح آنفة الذكر- يستعرض فيها تفاصيل هذه الغارة وكيفية أسر الصهباء، إذ يقول: «وأتى صندوداء* وبها قوم من كندة وأياد والعجم فقاتلوه فظفر بهم وخلف بها سعد بن عمرو بن حزام الأنصارى فولده اليوم بها، وبلغه أن جمعاً لبنى تغلب بالمضيح** والحصيد*** مرتدين وعليهم ربيعة بن بجير فأتاهم فقاتلهم فهزمهم وسبى وغنم وبعث بالسبى إلى أبى بكر فكانت منهم أم حبيب الصهباء بنت حبيب بن بجير، وهى أم عمر بن على بن أبى طالب» (۷).

۱- البلاذرى، أنساب الأشراف ۴۱۳: ۲، ابن شبة، تاريخ المدينة ۷۵۵: ۲، ابن عساكر، تاريخ دمشق ۳۰۴: ۴۵.

۲- الأصفهانى، الأغانى ۳۰۱: ۹.

۳- ينظر، ابن عنبة، عمدة الطالب: ۳۰۵.

۴- ينظر، المصدر نفسه: ۳۰۵.

۵- ابن سعد، الطبقات ۱۱۷: ۵، تاريخ الطبرى ۳۸۳: ۳.

۶- ينظر، الدنيورى، الأخبار الطوال ۱۱۲، البلاذرى فتوح البلدان ۱۳۱: ۱.

* صندوداء: قال ياقوت: سميت باسم امرأة وهى صندوداء ابنة لخم بن عدى بن الحارث ابن مرة بن أدد، سار إليها خالد بن الوليد من العراق يريد الشام وبها قوم من كندة وإياد والعجم فقاتله أهلها فظفر بهم، وتقع على مشارف بادية العراق. معجم البلدان ۴۲۵: ۳.

** المضيح: جبل بناحية الكوفة، معجم ما استعجم، ۲۷۹: ۱.

*** الحصيد بالفتح ثم الكسر وياء ساكنة ودال مهملة، موضع فى أطراف العراق من جهة الجزيرة، وهو واد بين الكوفة والشام. معجم البلدان ۴۲۵: ۳.

۷- ابن قدامة، الخراج وصنعة الكتابة: ۲۸۶.

ص: ۱۲۴

والصهباء هى: أم ولد، وتسمى بأم حبيب، وهى بنت ربيعة بن بجير بن العبد بن علقمة بن الحارث بن عتبة بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل (۱)، وتتوسع أحد المصادر بذكر نسب هذه المرأة لتوصله إلى عدنان لتذكر اسمها على النحو الآتى: «الصهباء، وهى: أم حبيب بنت ربيعة بن بجير بن العبد بن علقمة بن الحارث بن عتبة بن سعد بن زهير بن جشم بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب بن وائل بن قاسط بن هنب بن أقصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان» (۲).

ولدت هذه المرأة للإمام على (ع) ولدين توأمين هما: (عمر ورقية) (۳)، ولكن المصادر بعد ذلك تسكت عن ذكر أخبارها وعلاقتها بنساء البيت العلوى، وأحسب أن كونها أم ولد قد كان وراء هذا السكوت، فضلًا عن أنها لم يكن لها دور أو موقف فى أحداث عصرها حتى تذكره الرواة، بإستثناء ماورد فى إحدى وصايا الإمام على (ع) لأهل بيته، التى نقلها الإمام الكاظم (ع) والمصادر المتقدمة، إلى أنه قد أشار إلى زوجاته من الإماء، إذقال الإمام على (ع) فى وصيته تلك: «أما بعد فإن ولائدى اللائى أطوف عليهن السبعة عشر، منهن أمهات أولاد معهن أولادهن، ومنهن حبالى، ومنهن من لا ولد لهن، فقضيت إن حدث بى حدث فى هذا الغزو فإن من كانت منهن ليست بحبلى وليس لها ولد فهى عتيقة لوجه الله، ليس لأحد عليها سبيل، ومن كانت منهن حبلى أو لها ولد فإنها تحبس على ولدها وهى من حظه، فإن مات ولدها وهى حية فإنها عتيقة لوجه الله، هذا ما قضيت فى ولائدى التسع عشرة والله المستعان» (۴)، وما ورد من تسمية ولدها عمر ابنته- التى تزوجها الحسن المثنى بن الحسن بن أبى طالب- بإسم أمه لخير شاهد على المكانة التى كان يكنها لأمه (۵).

نشأته: نشأ عمر فى مقتبل عمره فى كنف والده، وكان آخر من بقى من ذريته وأولاده (۶)، وهذا مما جعله حدث السن فى الحوداث التى تلاحقت على الإمام على (ع)، وهذا مما لم يظهر له دوراً أو موقفاً بارزاً فيها، ولكن نستطيع أن نستنتج من الأحاديث التى نقلها عن أبيه، والقرارات التى اتخذها فى بعض المواقف إزاء حوادث عصره، أنه كان ملاصقاً لأبيه، إذ روى أحاديث جمة عنه كما سنلاحظ من دراستنا لها وتجميعنا إياها، وهذا مما يظهر أنه قد رحل معه إلى الكوفة أيام خلافته، حتى أن الإمام الباقر (ع) فى رواية نقلها الشيخ الطوسى (۴۶۰ ه-) يشير إلى حضور جميع ولد الإمام على (ع) حينما احتضر (۷)، فضلًا عن ورود رواية أخرى نقلها القاضى النعمان المغربى (۳۶۳ ه-) تشير إلى بكاء رقية- شقيقة عمر التوأم- أباها وهو متشحط بدمه من ضربة عبد الرحمن بن ملجم (۸)، وفى مصادر أخرى تذهب إلى تحديد عدد أولاد الإمام (ع) الإثنى عشر الذين حضروا عند أبيهم ليسمعوا وصيته الأخيرة لهم، حتى ارتفع فيها صوت الإمام على (ع)، حينما وبخ أحد أبنائه (عبيد الله) لاعتراضه على خصوصية الحسن والحسين فى وصية أبيهم من بين إخوته (۹).

وهذا مما يؤكد لنا حقيقة ملازمته هو وأخته وربما أمه لأبيه طيلة أيامه، وهو مما يجعله على تماس مباشر مع الحوادث التى تلاحقت على أبيه ومشاهدته لها، فضلًا عن سماعه للأحاديث والكلمات التى قالها فى خضم تلك الحوادث.

مواقفه من أحداث عصره: لم يؤثر عن عمر الأطرف موقف بارز فى الحوادث الكبرى التى عصفت بالمجتمع الإسلامى فى خلافة أبيه الإمام على (ع) (۳۵- ۴۰ ه-)، إذ لم تحدثنا المصادر عن مشاركته فى الحروب الثلاث (الجمل وصفين والنهروان) التى حدثت فى أيام الإمام على (ع)، بالرغم من الإشارات المتكررة حول مساهمة إخوته الحسن والحسين (عليهما السلام) و محمد بن الحنفية الفاعلة فى تلك الحروب (۱۰)، ولاسيما الأخير الذى يكبره قليلًا، إذ كان هو الآخر إبن أمة من سبايا بنى حنيفة أيام الردة، إذ وردت إشارات متفرقة عن حضوره لكل من الجمل وصفين، ولكن دون أن يكون له دور أو موقف فيها، إذ ذكر الشيخ المفيد (۴۱۳ ه-) فى رواية نقلها الواقدى عن حفيد عمر الأطرف (عبد الله)، حيث قال: «حدثنى عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب (ع) عن أبيه قال: لما سمع أبى أصوات الناس يوم الجمل وقد ارتفعت، فقال لابنه محمد: ما يقولون؟ قال يقولون:

۱- ابن سعد، الطبقات الکبری ۵۳۲: ۳.

۲- العبیدلی، تهذیب الأنساب: ۳۳.

۳- تاریخ الطبری ۱۶۲: ۳، العمری النسابة، المجدی فی أنساب الطالبیین: ۱۹۷، ابن ماکولا، الإکمال ۱۹۴: ۱، شرح نهج البلاغة ۲۴۲: ۹- ۲۴۳.

۴- عبد الرزاق الصنعانی، المصنف ۲۸۸: ۷، ابن شبة، تاریخ المدینة ۲۲۸: ۱، الکلینی، الکافی ۵۰: ۷.

۵- ابن سعد، الطبقات الکبری، القسم المتمم ۲۶۰: ۱.

۶- الفخر الرازی، الشجرة المبارکة: ۲۰۳، المزی، تهذیب الکمال ۴۶۸: ۲۱- ۴۶۹.

۷- الشیخ الطوسی، الأمالی: ۵۹۵.

۸- القاضی النعمان، شرح الأخبار ۳۳۳: ۲- ۳۳۴.

۹- ینظر، المسعودی، إثبات الوصیة: ۱۶۴- ۱۶۵، الراوندی، الخرائج والجرائح ۱۸۳: ۱.

۱۰- ینظر، نصر بن مزاحم المنقری، وقعة صفین: ۲۱۶، ۲۲۱، ۲۴۹، ۳۷۱، ۴۶۳، ۵۳۰.

ص: ۱۲۵

یالثارات عثمان! قال: فشدّ علیه وأصحابه یهشون فی وجهه یقولون: الشمس ارتفعت! الشمس ارتفعت! وهو یقول: الصبر أبلغ فی الحجة» (۱).

أما فی صفین فلم تصرح المصادر بإسمه فیمن حضرها من أولاد الإمام علی (ع)، إذ وردت روایة واحدة نقلها نصر بن مزاحم المنقری (۲۱۲ ه-) عن خروج الإمام علی (ع) وبنیه الی میسرة الجیش فی صفین وهم یحامون عنه (۲).

هل کان سن عمر الصغیرة وخبرته القلیلة بالقتال لم یکونا لیسمحا له بالمشارکة فی تلک الحروب؟ أم أن أباه لم یعطِ له الإذن بذلک؟ أوربما لم یکن متحمساً للمشارکة فیها؟- وهذا دیدنه فی معظم الحروب والوقائع التی عاصرها فی أیامه- والظاهر أن کل الإحتمالات واردة ومرجحة، إذ إن الذی یستقرأ نصوص الوصایا التی أوصی بها الإمام علی (ع) لأولاده وإلی أهل بیته- التی أحلنا إلی بعض منها آنفاً- تستوقفه عبارة (الأصاغر من ولده) التی وردت فی ثنایا روایة الإمام الباقر (ع) عن حادثة وصیة الإمام علی (ع) لمن حضر من ولده (ع) فی أثناء احتضاره (۳)، إذ تبین هذه الروایة أنه لم یکن من الاکتمال الجسمانی أن یشترک فی مثل هذه الحروب التی زج فیها الإمام علی أولاده، وحتی الذین اشترکوا فی تلک الحروب من أولاد الإمام (الحسن والحسین (علیهما السلام) ومحمد بن الحنفیة)، قد کان یحاذر أن یدخلهم فی مبارزة أو قتال فعلی خشیة أن ینقطع نسل محمد (۴)، حتی إنه خاف علی إبنه محمد بن الحنفیة حینما برز فی صفین لعبید الله بن عمر بن الخطاب، إشفاقاً علیه، خشیة أن یقتله الأخیر (۵).

ذریته تزوج عمر الأطرف فی تلک الأثناء من أسماء بنت عقیل بن أبی طالب، والتی کانت ذریته منها (۶)، وتزوج مسلم بن عقیل أخت عمر (رقیة) الشقیقة التوأم (۷).

وولد عمر بن علی الأطرف ستة منهم ثلاث نساء هن: أم حبیب وأم موسی وأم یونس، والرجال: محمد وعلی وأبو إبراهیم إسماعیل، وکان إستمرار عقبه من ولده محمد، إذ لم یعقب البقیة (۸)، وعرف أعقابه بالعمریین ولقبوا بالعُمری (۹).

علاقته بإخوته: رافق عمر الأطرف إخوته الحسن والحسین (علیهما السلام) حینما رجعوا إلی المدینة بعد الصلح الذی أبرموه مع معاویة، وظل هناک یتنقل بین صدقات أبیه وعیونه، لتسکت المصادر عن ذکر إشارة لأخباره طیلة السنوات التسع التی أعقبت الصلح، لترد إشارة فی بعض المصادر إلی أنه قد حضر جنازة أخیه الإمام الحسن (ع) حینما توفی عام ۵۰ ه-، لیروی تأبین أخیه محمد بن الحنفیة للحسن (ع) وهو واقف علی قبره (۱۰).

زوَّج عمر الأطرف ابنته أم حبیب من ولد الحسن البکر الحسن المثنی، رغم اقتران الأخیر ببنات أعمامه الحسین (ع) ومحمد بن الحنفیة، ودخوله ببنت الأخیر وابنته فی لیلة واحدة، حتی إستغرب البعض من ذلک، فقال ابن الحنفیة: «هو أجل إلینا منهما» (۱۱).

تتلاحق الأحداث بعد ذلک لتشکل مواقف عمر فیها منعطفاً مهماً فی حیاته تتأزم فیها بعد ذلک علاقته بالبیت العلوی، بدأت تلک الأحداث بثورة الإمام الحسین (ع) عام ۶۱ ه- وأحداثها المتلاحقة، من امتناعه (ع) عن بیعة یزید، إلی خروجه لیلًا إلی مکة ومنها إلی العراق، إذ یحدث عمر الأطرف آل عقیل عن تلک اللحظات فیقول: «لما امتنع أخی الحسین عن البیعة لیزید بالمدینة، دخلت علیه فوجدته خالیاً، فقلت له: جعلت فداک یاأبا عبد الله، حدثنی أخوک أبو محمد الحسن، عن أبیه (علیهما السلام)، ثم سبقتنی الدمعة وعلا شهیقی، فضمنی إلیه، وقال: حدثک أنی مقتول؟ فقلت: حوشیت یابن رسول الله، فقال: سألتک بحق أبیک بقتلی خبرک؟ فقلت: نعم، فلولا ناولت وبایعت» (۱۲)، وأرخ الأطرف هذه الحادثة، فکان یخبر عن إستشهاد

۱- المفید، الجمل: ۳۵۷.

۲- ینظر، نصر بن مزاحم، وقعة صفین: ۲۴۹.

۳- ینظر، الشیخ الطوسی، الأمالی: ۵۹۵.

۴- ینظر، نصر بن مزاحم، وقعة صفین: ۴۶۳، ۵۳۰.

۵- ینظر، المصدر نفسه: ۲۴۹.

۶- ینظر، ابن سعد، الطبقات ۵۳۲: ۳، ابن ماکولا، الإکمال ۱۲۲: ۲، الطبرسی، إعلام الوری ۳۹۵: ۱، ۳۹۶.

۷- ینظر، العمری النسابة، المجدی فی أنساب الطالبیین: ۲۰۰.

۸- العبیدلی، تهذیب الأنساب: ۲۹۱، العمری النسابة، المجدی: ۴۵۰، ابن الطقطقی، الأصیلی فی أنساب الطالبیین: ۳۳۲.

۹- ابن الأثیر، اللباب فی تهذیب الأنساب ۳۵۹: ۲.

۱۰- ینظر، إبن عساکر، تاریخ دمشق ۲۹۶: ۱۳- ۲۹۷، المزی، تهذیب الکمال ۲۵۵: ۶- ۲۵۶.

۱۱- عبد الرزاق الصنعانی، المصنف ۲۶۴: ۶، ابن سعد، الطبقات الکبری، القسم المتمم ۲۶۰: ۱.

۱۲- ابن طاووس، اللهوف فی قتلی الطفوف: ۹۹- ۱۰۰.

ص: ۱۲۶

الحسین (ع)، ووقته، فیقول: «قتل الحسین بن علی سنهٔ إحدی وستین وهو یومئذ ابن ست وخمسین سنهٔ فی المحرم یوم عاشوراء» (۱).

لم یـذهب عمر الأـطرف مع من ذهب من إخوته لنصـرهٔ الحسـین (ع) فـآثر البقاء فی المدینـهٔ، حتی إنه أثر عنه أنه حینما وصل إلیه نبأ إستشـهاد أخیه الإمام الحسین (ع) خرج فی ثیاب معصفرات له وجلس بفناء داره قائلًا: «أنا الغلام الحازم ولو خرجت معهم لذهبت فی المعرکهٔ وقتلت» (۲).

علاـقته بـأفراد البیت العلوی: إن الکلمـات آنفـهٔ الـذکر- إن صـح صـدورها من عمر الأطرف- فسـتنفر الناس منه، ولاسـیما أبناء البیت العلوی، ولم یقتصـر الأمر عنـد هـذا الحـد؛ بل إنه قـد طالب بمیراثه من إخوته القتلی فی الطف، فلم یترک ذراریهم حتی صولـح علی شیءٍ من أموالهم التی ورثوهـا من آبـائهم، إذ أشـارت النصوص إلی أنه قـد نـازع عبیـد الله بن العباس بن علی فی میراث أبیه الشـهید بکربلاء (۳)، فضـلًا عن إستعانته بالسلطهٔ الأمویهٔ للحصول علی نصیبه من إرث إخوته شهداء الطف، والذی یعتقد أنه حقه شرعاً، حتی قالت عنه الرواهٔ: إنه قد حاز لأجل ذلک نصف میراث علی (۴).

فقـد خاصم الإمام زین العابـدین علی بن الحسـین (ع)، إلی عبـد الملک فی صدقات النبی (ص)، وأمیر المؤمنین علی (ع) حینما أراد ردها إلی العلویین، إذ قصده مدعیاً أحقیته بها وضـیق حاله، قائلًا له: «أنا ابن المتصدق، وهذا ابن ابن، فأنا أولی بها منه»، فلم یکترث له عبد الملک وأوکل أمر تلک الصدقات إلی الإمام زین العابدین (ع) (۵).

ثم کلم عمر کـذلک الحجـاج بن یوسف الثقفی حینمـا کـان أمیراً علی الحجاز (۷۳- ۷۵ ه-) أن یتوسـط فی إقنـاع الحسن المثنی بن الإمام الحسن بن علی (ع) أن یدخله فی صدقات علی (ع) التی کانت تحت تولیته، إذ تتحدث المصادر عن هذه الحادثهٔ بالقول: «کان الحسن بن الحسن وصـی أبیه وولی صدقـهٔ علی بن أبی طـالب فی عصـره. قـال: وکـان حجـاج بن یوسف قـال له یوماً وهو یسایره فی موکبه بالمدینـهٔ وحجـاج یومئـذ أمیر المدینـهٔ: أدخل عمک عمر بن علی معک فی صدقـهٔ علی فإنه عمک وبقیـهٔ أهلک قال: لا أغیّر شرط علی ولاـ أدخل فیها من لم یـدخل. قال: إذا أدخله معک فنکص عنه الحسن بن علی حین غفل الحجاج، ثم کان وجهه إلی عبد الملک حتی قـدم علیه فوقف ببابه یطلب الإذن، فمر به یحیی بن الحکم، فلما رآه یحیی عـدل إلیه فسـلم علیه وسأله عن مقدمه وخبره وتحفی به، ثم قـال له: إنی سأتبعـک عنـد أمیر المؤمنین یعنی عبـد الملـک، فـدخل الحسن علی عبـد الملک فرحب وأحسن مساءلته وکان الحسن بن الحسن قـد أسـرع إلیه الشـیب، فقال له عبدالملک: لقد أسـرع إلیک الشـیب ویحیی بن الحکم فی المجلس، فقال له یحیی: ومـا یمنعه شـیبته أمـانی أهـل العراق کـل عـام یقـدم علیه منهم رکب یمنونه الخلافـهٔ، فأقبـل علیه الحسن فقال: بئس والله الرفد رفدت ولیس کما قلت، ولکنا أهل بیت یسرع إلینا الشیب، وعبد الملک یسمع فأقبل علیه عبد الملک فقال له: هلم ما قدمت له فأخبره بقول الحجاج فقال: لیس ذلک له، أکتبوا إلیه کتاباً لا یجاوزه ووصله وکتب له» (۶).

ولم تهـدأ بـال عمر عن المطالبـهٔ بتولی تلک الصـدقات، وهـذه المرهٔ اسـتقدم معه أبان بن عثمان بن عفان إلی الولیـد بن عبـد الملک (۸۶- ۹۶ ه-) لکی یولیه تلک الصـدقات ویؤثر علی ابن أخیه الحسن، إذ یذکر المصـعب الزبیری (۲۳۶ ه-) وقائع تلک الحادثهٔ قائلًا: «کـان عمر آخر ولـد علی بن أبی طـالب وقـدم مع أبان بن عثمان علی الولیـد بن عبـد الملک یسأله أن یولیه صدقـهٔ أبیه علی بن أبی طالب، وکان یلیها یومئذ ابن أخیه الحسن بن الحسن بن علی، فعرض علیه الولید الصلهٔ وقضاء الدین فقال: لا حاجهٔ لی فی ذلک، إنما جئت لصدقهٔ أبی أنا أولی بها، فاکتب لی ولایتها، فکتب له ولید رقعهٔ فیها أبیات ربیع بن أبی الحقیق الیهودی النضری:

۱- ابن الجوزی، المنتظم فی تاریخ الملوک ۳۴۵: ۵.

۲- البخاری، سـر السلسلهٔ العلویهٔ: ۹۶، ابن الطقطقی، الأصـیلی فی أنساب الطالبیین: ۳۳۲، ابن عنبـهٔ، عمـدهٔ الطالب فی أنساب آل أبی

طالب: ۳۳۱- ۳۳۲.

۳- أبو الفرج الأصفهانی، مقاتل الطالبیین: ۵۵.

۴- ینظر، تاریخ الطبری ۱۶۲: ۳.

۵- ینظر، المفید، الإرشاد ۱۵۰: ۲، ابن شهر آشوب، مناقب آل أبی طالب ۳۰۸: ۳.

۶- الشیخ المفید، الإرشاد ۲۳: ۲- ۲۴، إبن عساکر، تاریخ دمشق ۶۵: ۱۳، المزی، تهذیب الکمال ۹۲: ۶- ۹۳.

ص: ۱۲۷

إنا إذا مالت دواعی الهوی وأنصت السامع للقائل

واصطرع القوم بألبابهم نقضی بحکم عادل فاضل

لانجعل الباطل حقاً ولا نل-- ط دون الح-- ق بالباطل

نخاف أن تسفه أحلامنا فتحمل الدهر من الخامل

ثم دفع الرقعة إلی أبان، وقال: ادفعها إلیه وأعلمه أنی لا أدخل علی ولد فاطمة بنت رسول الله (ص) غیرهم، فانصرف عمر غضبان، ولم یقبل منه صلة (۱).

فضلًا عما تقدم، فإننا نجد عمر الأطرف لایصطدم بأی سلطة سیاسیة أو یعارضها، ولاسیما تلک التی تکون لها الغلبة فی الحجاز، فقد بایع کلًا من عبد الله بن الزبیر أیام حرکته بالحجاز (۶۵- ۷۲ ه-)، والحجاج بن یوسف الثقفی، حینما قضی علی حرکة الأخیر (۲)، بالرغم من أن العلویین قد وقفوا موقفاً معارضاً لابن الزبیر، والرفض لمبایعته بالخلافة، حتی همَّ الأخیر بهم وتوعدهم بإحراقهم بالنار (۳)، فضلًا عن حضوره لولیمة عرس الحجاج حینما بنی بأم کلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبی طالب بعدما کان له دور فی تزویجها منه، حتی قال له: «أحضر فلم یبق من أهلک من تحتشمه» (۴).

ترکت مثل تلک المواقف من عمر؛ شیئاً فی نفوس العلویین، لدرجة القطیعة والنفرة منه، حتی قال الإمام زین العابدین علی بن الحسین (ع) لولد عمر (محمد) بعدما رأی نبل الأخیر وفضله: «یابن عم! ما تمنعنی قطیعة أبیک أن أصل رحمک فقد زوجتک ابنتی خدیجة» (۵).

کانت تلک المواقف التی انتهجها عمر مع أهل بیته وراء حدة الکلمات والآراء التی تفوّه بها بعض النسابة من العلویین فی معرض حدیثهم عن عمر الأطرف وأعقابه، إذ قال عنه ابن الطقطقی (۷۰۹ ه-): «ولم یکن مرضی السیرة ...، ومارووینا عنه خطبة بلیغة، ولا شعراً مسموعاً، وکان نازع بنی‌إخوته الحسن والحسین (علیهما السلام) فی صدقات علی (ع) دائماً، ویرید أن یدخل معهم فی ذلک، ولایظفر منهم بطائل» (۶). وکذلک الحال بابن عنبة (۸۲۸ ه-) الذی وجه انتقادات متعددة علی مواقف عمر الأطرف تلک (۷).

أفکاره وعقیدته: مع کل هذه النصوص والمواقف السابقة التی کانت من عمر إزاء أهل بیته فهو لم یکن منحرفاً عقائدیاً عنهم وعن خطهم الذی سلکوه وآمنوا به، فلم تکن إستعانته بالأمویین تقرباً منه إلیهم وطلب صلاتهم؛ بل وحتی مبایعته لهم، وکما تظهر عباراته آنفة الذکر مع الولید بن عبد الملک، فهو بذلک اعتقد أن له حقاً فی تلک الأموال والصدقات التی ترکها أبوه (ع) ما دام محتاجاً إلیها، والذی یدل علی متابعته لمسار إخوته وأهل بیته فیما یعتقدونه ویؤمنون به؛ بعض المواقف والأقوال التی صدرت منه فی ردّ ماشاهده من انحرافات عن خط أهل البیت والطعن علیهم، إذ ذکرت المصادر أنه قد اجتاز فی سفر کان له فی بیوت من بنی عدی، فنزل علیهم، وکانت شدة فجاءه شیوخ الحی فحادثوه، واعترض رجل منهم ماراً له شارة، فقال: من هذا؟ فقالوا: سلم بن قتة، وله انحراف عن بنی هاشم، فاستدعاه وسأله عن أخیه سلیمان بن قتة، وکان سلیمان من الشیعة، فخبّره أنه غائب، فلم یزل عمر یلطف له فی القول ویشرح له الأدلة حتی رجع سلم إلی مذهب أخیه، وکان یصله عمر کل سنة بصلة، فلما مات عمر رثاه سلم بأبیات عدة (۸).

وفی موقف آخر له نلمس منه هذه الروحیة المدافعة عن خط أهل البیت والتشهیر بالمنحرفین عنهم، إذ ذکر ابن أبی الحدید (۶۵۶ ه-) محاورة جرت بین عمر الأطرف وبین التابعی المشهور سعید بن المسیب، الذی عدّه ابن أبی الحدید من ضمن المنحرفین عن الإمام علی (ع)، مستشهداً بکلام عمر بحق ابن المسیب فی هذه المحاورة، والتی مفادها: «روی عبد الرحمن بن الأسود، عن أبی داود الهمذانی، قال: شهدت سعید بن المسیب، وأقبل عمر بن علی بن أبی طالب، فقال له سعید: یابن أخی! ما أراک تکثر غشیان مسجد رسول الله (ص) کما یفعل إخوتک وبنو أعمامک! فقال عمر: یابن المسیب! أکلما دخلت المسجد أجیء فأشهدک! فقال

۱- المصعب الزبیری، نسب قریش: ۴۲- ۴۳.

۲- ابن عنبة، عمدة الطالب: ۳۶۱- ۳۶۲.

۳- ینظر، ابن سعد، الطبقات ۱۰۰: ۵- ۱۰۱، تاریخ الیعقوبی ۲۶۱: ۲، تاریخ الطبری ۱۵۴: ۵- ۱۵۵.

۴- ینظر، البخاری، سر السلسلة العلویة: ۹۷.

۵- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبی طالب ۳۰۸: ۳.

۶- ابن الطقطقی، الأصیلی فی أنساب الطالبیین: ۳۳۲.

۷- ینظر، ابن عنبة، عمدة الطالب: ۳۶۲.

۸- العمری النسابة، المجدی فی أنساب الطالبیین: ۱۹۷- ۱۹۸، ابن‌عنبة، عمدة الطالب: ۳۶۱- ۳۶۲.

ص: ۱۲۸

سعيـد! ما أحب أن تغضب، سـمعت أباك يقول: إن لى من الله مقاماً لهو خير لبنى عبـد المطلب مما على الأرض من شـىء فقال عمر: وأنا سمعت أبى يقول: ما كلمة حكمة فى قلب منافق فيخرج من الدنيا حتى يتكلم بها فقال سعيد: يابن أخى! جعلتنى منافقا؟! فقال: هو ما أقول لك ثم إنصرف» (۱).

فضـلًا عن ذلـك، فقـد وجـدنا عمر الأـطرف تحتكم إليه بعض الشخصـيات المتخاصـمة، لمـا له من تقـدير فى نفوسـهم، ولاسـيما بين الكوفيين منهم على وجه التحديد (۲).

وهذه المواقف التى بدرت منه، جعلت قسماً آخر من النسابة يصفه بالقول: «وكان عمر بن على ذا لسن وجود وعفة» (۳).

يضـاف إلى ذلـك تأكيـد أحـد المصادر بمنحى عمر الأطرف ومسـلكه فى الصـلاة والأذان، إذ كان يؤذن فى صـلاته (بحى على خير العمل)، و يجهر فى القراءة (ببسم الله الرحمن الرحيم)، إذ نقل الدارقطنى (۳۸۵ ه-) رواية مضمونها: «حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، ثنا يحيى بن زكريا بن شـيبان، نا محفوظ بن نصر، ثنا عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبىطالب، قال: حدثنى أبى، عن أبيه، عن جـده، عن على قـال: كان رسول‌الله (ص) يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى السورتين جميعاً» (۴)، وهذه المراسم فى الصلاة ميزت الشـيعة عن غيرهم من أصـحاب المـذاهب الإسـلامية الأـخرى، حتى أجمع أئمـة أهل البيت (عليهم السـلام) ومن بعـدهم علماء الشيعة جميعهم- وبمختلف فرقهم- على عدم اعتبار الذى لايجهر بصلاته بالبسملة فى السورتين من أتباع مذهبهم، لذلك عدُّوا الجهر ببسم الله الرحمن الرحيم من الأمور الواجبة فى الصلاة (۵).

هـذه النصوص تظهر لنا عقيـدة هـذا الرجل، ومذهبه الفكرى، ولكن مع كل ذلك نجد الجاحظ (۲۵۵ ه-) ينسب لعمر الأـطرف مقولةً بعـد أن سـأله أحـدهم عن حقيقـة مـا يتنـاقله بعض الناس من وجود وصـية لرسول الله (ص) إلى على (ع)، فقال له عمر: «والله إن هـذا الكلام ما سـمعت به قط إلا الساعة» (۶)، ويضـيف أبو حيان التوحيدى على ذكر رواية الجاحظ تلك: «سـئل عمر بن علىّ عن الوصية فقال: إن هذا شىءٌ ما سمعناه حتى دخلنا العراق» (۷).

مثـل هـذا الكلام الـذى نقله الجاحـظ وغيره، لايتفق مع ما نقله المحـدثون من أحاديث وروايات عن اهتمام عمر بالتحـديث عن هـذه المسألـة والترويـج لها وإشاعتها بين الناس على وجه التحديـد، فنجـد فى الأوراق اللاحقـة من هـذه الدراسـة تأكيـداً من عمر على هذا الأمر، فقـد نقل عنه أنه قال: «قال رسول الله (ص): إن الله تعالى عهد إلى فى على عهداً قلت: رب بيّنه لى قال: اسـمع يا محمد قال: إن علياً رايـة الهـدى بعدى وإمام أوليائى ونور من أطاعنى وهو الكلمة التى أكرمتها المتقين فمن أحبه أحبنى ومن أبغضه أبغضـنى فبشره بذلك» (۸).

فضـلًا عما تقـدم، فإننا نجد أن ابن طاووس (۶۷۳ ه-) قـد وقف موقفاً علمياً صارماً فى دحض روايـة الجاحظ هـذه، وذلك فى معرض رده على رسـالته العثمانيـة، من خلال إيراد النصوص والأحاديث التى ذكرت وصـية الرسول (ص) إلى على (ع) من مختلف المصادر الإسلامية (۹).

مع كـل ماتقـدم، نجـد أن بعض المصـادر المتقدمـة ترد فيها روايات مربكـة ومحيرة، فى ذكر موقف لعمر بن على، وذلك فى خضـم الحوادث التى عصـفت بالمجتمع أيام فتنة بن الزبير (۶۵- ۷۳ ه-)، إذ قال خليفة بن خياط (۲۴۰ ه-) فى حوادث سنة ۶۷ ه-: فيها وقعة المـذار. وفيهـا قتل عمر بن على بن أبى طالب ومحمـد بن الأشـعث بن قيس (۱۰)، ووافق ابن حبان ما قاله خليفـة من جعل سـنة سـبع وستين عاماً لنهاية حياة عمر الأطرف (۱۱).

وعلق ابن حجر على هـذه الأخبـار: «قلت: ذكر الزبير مـا يـدل على أنه عاش إلى زمن الوليـد بن عبـد الملك، ذكر غير واحـد من أهل التاريخ أن الذى قتل مع مصعب بن الزبير هو عبيد الله بن على بن أبى طالب والله أعلم» (۱۲).

۱- ابن أبی الحدید، شرح نهج البلاغة ۱۰۱: ۴- ۱۰۲.

۲- ینظر، أبو الفرج الأصفهانی، الأغانی، ۱۱: ۹- ۱۲.

۳- العمری النسابة، المجدی فی أنساب الطالبیین: ۱۹۷.

۴- الدارقطنی، سنن الدارقطنی ۳۰۲: ۱.

۵- ینظر، الکلینی، الکافی ۶۱: ۸، القاضی النعمان، دعائم الإسلام ۱۱۰: ۱، الإمام یحیی بن الحسین الزیدی، الأحکام، ۱۰۵: ۱، الشیخ الطوسی، الخلاف ۳۳۱: ۱.

۶- الجاحظ، العثمانیة: ۲۷۵.

۷- ابو حیان التوحیدی، البصائر والذخائر ۵۳: ۷.

۸- إبن عساکر، تاریخ دمشق ۲۰۱: ۳۶، المتقی الهندی، کنز العمال ۵۳۱: ۹.

۹- ینظر، ابن طاووس، بناء المقالة الفاطمیة: ۴۲۷- ۴۳۶.

۱۰- تاریخ خلیفة ۶۹: ۱، الطبقات ۵۸۰: ۲.

۱۱- ابن حبان، الثقات ۱۴۶: ۵.

۱۲- ابن حجر، تهذیب التهذیب ۴۲۶: ۷.

ص: ۱۲۹

وترد هذه الروایة بتفصیل أکثر ووضوح أشد عند أبی حنیفة الدینوری (۲۸۲ ه-) بعد ذکره لوقعة المذار* بین جیش مصعب بن الزبیر والمختار الثقفی، إذ ذکر إسم عمر بن علی فیمن قتل فی هذه المعرکة من الأشراف، حیث قال: «وقتل عمر بن علی بن أبی طالب، وذلک إنه قدم من الحجاز علی المختار فقال له المختار: هل معک کتاب محمد بن الحنفیة؟ فقال عمر: لا ما معی کتابه، فقال له المختار: انطلق حیث شئت فلا خیر لک عندی، فخرج من عنده وسار إلی مصعب فاستقبله فی بعض الطریق فوصله بمائة ألف درهم، وأقبل مع مصعب حتی حضر الوقعة فقتل فیمن قتل من الناس» (۱).

وعلق العمری النسابة (۴۹۰ ه-) علی تلک الروایات آنفة الذکر بما نصه: «ووجدت فی بعض الکتب أن عمر شهد حرب المصعب بن الزبیر، وکان من أصحابه، وأنه قتل بمسکن، وهذه روایة باطلة بعیدة عن الصواب ... ومما یدلل علی بطلان ذلک أنه خاصم ابن أخیه حسناً إلی بعض بنی عبد الملک فی ولایته فی صدقات علی (ع)، وهذا یزعم أنه مات من جراح أصابته أیام مصعب، ومصعب قتل قبل أخیه عبد الله، وعبد الملک حی، وما ولی أحد من بنی عبد الملک إلا بعد موت أبیه، فهذه مناقضة» (۲).

والظاهر أن هؤلاء المؤرخین قد اختلط علیهم اسم من قتل فی حروب المختار ومصعب من أولاد أمیر المؤمنین، إذ إن أغلب المصادر تشیر إلی أن من قتل فی المذار هو عبید الله بن علی (۳)، حتی أن بعض تلک المصادر، تجعل من حادثة مقتل عبید الله بن علی تصدیقاً لما أخبر به الإمام علی (ع) من مصیر إبنه هذا، إذ قال له: «کأنی بک وقد وجدت مذبوحاً فی خیمته» (۴).

لم تتضح شخصیة عمر الأطرف بتلک المواقف فقط؛ بل نجده قد أشاع کثیراً من الأحادیث والروایات التی رواها فی فضائل أبیه الإمام علی (ع) ومناقبه العظیمة، ولاسیما ماکان منها أیام رسول الله (ص)، إذ حفلت المصادر المتقدمة بمجموعة مهمة من الأحادیث والروایات مسندة إلی عمر الأطرف، حتی أن أحداً من علماء الإمامیة المتقدمین (أبو بکر الجعابی المتوفی سنة ۳۶۴ ه-)****، قد جمع تلک الأحادیث والروایات فی مصنف مستقل سماه: (مسند عمر بن علی بن أبی طالب) (۵)، ولأجل ذلک عرف عمر بأنه أحد التابعین ورواة الحدیث وممن حمل العلم عنه (۶).

وفاته:

توفی عمر الأطرف حسبما أکدت بعض المصادر ب- (ینبع*****) حتف أنفه عن عمر ناهز ۸۵ سنة (۷)، ولکن ابن عنبة حصر عمره بین ۷۵ و ۷۷ سنة (۸)، مع العلم أن محمد بن اسماعیل البخاری (۲۵۴ ه-) قد حدد عام (۹۲ ه-) سنة لوفاة عمر بن علی؛ لروایة سمعها من أحد معاصریه (۹).

وهذه الروایة الأخیرة أرجح من غیرها، لما ذکرته بعض المصادر التی ترجمت لعمر الأطرف، أنه عاش إلی أیام الولید بن عبد الملک، واختصم عنده فی صدقات أبیه (۱۰). فإذا ما علمنا أن الأخیر حکم من سنة ۸۶- ۹۶ ه-، فتکون تلک الروایة أقرب للواقع من غیرها.

أما بخصوص ینبع ومحلها کموضع للمثوی الأخیر لعمر الأطرف فهو أمر أقرب للصواب، إذ کانت بها أوقاف الإمام علی (ع) حسبما تشیر المصادر البلدانیة (۱۱)، وهی نفسها صدقاته (ع) التی تنازع علیها ولده عمر مع أولاد إخوته الحسن والحسین (علیهم السلام)، والتی أشرنا إلیها آنفاً.

۱- أبوحنیفة الدینوری، الأخبار الطوال: ۳۰۶- ۳۰۷.

۲- العمری النسابة، المجدی فی أنساب الطالبیین: ۱۹۸.

۳- ینظر: ابن قتیبة، المعارف: ۲۱۷، البلاذری، أنساب الأشراف ۴۱۲: ۲، العمری النسابة، المجدی فی أنساب الطالبیین. ۱۹۸- ۱۹۹، الراوندی، الخرائج والجرائح ۱۸۳: ۱.

۴- ينظر، المسعودى، إثبات الوصية: ۱۶۵، الراوندى، الخرائج والجرائح ۱۸۳: ۱.

**** محمد بن عمر بن محمد بن سلم بن البرأ بن سبرة بن يسار التميمى القاضى، يكنى أبا بكر، المعروف بابن الجعابى الحافظ، بغدادى، ثقة، خرج إلى سيف الدولة الحمدانى، فقربه وأدناه واختص به، وكان حفظة عارفاً بالرجال من العامة والخاصة. وله كتب، اخبرنا بها جماعة من أصحابنا، منهم الشيخ المفيد رحمه الله والحسين بن عبيدالله وأحمد بن عبدون، عنه. روى عنه التلعكبرى، ينظر، الطوسى، الرجال: ۴۴۵، الفهرست: ۱۸۵.

۵- ينظر، النجاشى، الرجال: ۲۹۵.

۶- ينظر، ابن سعد، الطبقات الكبرى ۱۱۷: ۵، ابن قتيبة، المعارف: ۲۱۷، البلاذرى، أنساب الأشراف ۴۱۲: ۲.

***** ينبع: هى عن يمين رضوى لمن كان منحدراً من المدينة إلى البحر على ليلة من رضوى من المدينة على سبع مراحل وهى لبنى حسن بن على وكان يسكنها الأنصار وجهينة وليث، وفيها عيون عذاب غزيرة، وهى قرية غناء ووواديها يصب فى غيقة، وبها حصن به نخيل وماء وزرع، وبها وقوف لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه، يتولاها ولده. ينظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان ۴۴۹: ۵- ۴۵۰

۷- ينظر: تاريخ الطبرى ۱۵۴: ۵، البخارى، سر السلسلة العلوية: ۹۶.

۸- ينظر: عمدة الطالب: ۳۳۱.

۹- ينظر: البخارى، التاريخ الصغير ۲۲۸: ۲.

۱۰- ينظر: المصعب الزبيرى، نسب قريش: ۴۲- ۴۳، ابن عساكر، تاريخ دمشق ۳۰۲: ۴۵، ابن حجر، تهذيب التهذيب ۴۲۶: ۷.

۱۱- ينظر، البكرى، معجم ما استعجم ۲۶۲: ۱، معجم البلدان ۴۵۰: ۵.

ص: ۱۳۰

وللأسف الشدید لم یبق لعمر الأطرف قبر ظاهر ومعروف فی ینبع، وهذا ما أکدته إحدی الدراسات الجادة والمعنیة بتعیین وتوثیق مراقد وقبور أعلام المسلمین، وذلک بإمکانیة وجدوی الکشف عن قبر عمر الأطرف بینبع وتعیینه، إذ انتهی مؤلفها إلی نتیجة مفادها: «والیوم لم یعرف قبر بارز معنون حسب تتبعنا ووقوفنا علی کثیر من أقوال المؤرخین وأهل السیرة» (۱).

المبحث الثانی: الأحادیث والروایات التی رواها عمر الأطرف وقیمتها العلمیة

تنوعت الأحادیث والروایات التی رواها عمر الأطرف، حتی عد من الرواة الأوائل (۲)، فشمل هذا التنوع مناحی عدة؛ من ذکره الأحادیث النبویة التی تضمنت أحکامه وسننه، والإشادة بدور والده الإمام علی (ع) فی مسار الدعوة الإسلامیة ومناقبه فیها؛ إلی ذکر ما سمعه من أبیه عن أحداث السیرة وحیاة صاحبها (خاتم الأنبیاء محمد (ص))، ومن ثم الروایة للکلمات والأخبار التی قالها أبوه (الإمام علی (ع)) فی الحوادث التی عاصرها، والمواقف التی مرت به، إذا ماعلمنا أن عمر قد لازم أباه فی حلّه وترحاله حتی أیامه الأخیرة (۳)، مع العلم أن مجمل الأحادیث والروایات التی رواها عمر لم تکن بحجم ما نقله الرواة والمحدثون من بقیة إخوته (الحسن والحسین (علیهما السلام) ومحمد بن الحنفیة)، وذلک راجع إلی عمره الصغیر قیاساً بهم، فهو کما لاحظنا سابقاً أصغر ولد علی (ع) من الذکور (۴).

فضلًا عن ذلک، نجد اقتصار الرواة عنه علی أولاده وأهل بیته فقط، إذْ إن طریق روایاته یتشعب من أولاده وأحفادهم إلی بقیة الناس ولیس إلی الناس مباشرة، وهذا مما یدفعنا إلی القول: إن عمر لم یکن من أصحاب الحلقات، فضلًا عما کان یعرف عنه من حدّة المزاج، والتی توضحه مواقفه التی ذکرناها آنفاً، وما ذکره أحد النسابة من أحفاده فی صفاته التی کان فیه بأنه کان ذا لسان (۵).

وربما لم یکن عمر یرغب بالشهرة والبروز فی الحیاة العامة، وهذا مادفع بعض المحدثین إلی الشک فی مصداقیة روایته للأحادیث المنسوبة روایتها إلیه- بالرغم من توثیقهم لشخص عمر فقالوا: «عمر بن علی بن أبی طالب، تابعی ثقة» (۶)- لأنها لم تأتِ معظمها بزعمهم إلا من طریق واحد، فضلًا عن شکهم فی وثاقة الناقل لتلک الأحادیث والروایات من أحفاد عمر الأطرف (عیسی بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علی) والتی کانت معظم الروایات ترجع إلی طریقه، إذ قال فیه ابن حبان (۳۵۴ ه-): «یروی عن أبیه عن آبائه أشیاء موضوعة لا یحلّ الاحتجاج به کأنه کان یهم ویخطیء حتی کان یجیء بالأشیاء الموضوعة عن أسلافه فبطل الاحتجاج بما یرویه لما وصفت» (۷)، ویضیف فی مکان آخر فی تقییمه للمجموع المنسوب لعیسی من أحادیث آبائه: «أخبرنا بهذه الأحادیث کلها إسحاق بن أحمد القطان، قال: حدثنا یوسف بن موسی القطان قال: حدثنا عیسی بن عبد الله قال: حدثنا أبی، عن أبیه، عن جده علی بن أبی طالب، فی نسخة کتبناها عنه أکثرها معمولة» (۸).

إن وراءهذا التضعیف والإسقاط لأحادیث عیسی بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علی عن آبائه من قبل بعض المحدثین غایات ومقاصد عدة، إذ نجد عیسی المبارک- وکما یلقب- (۹)، من المهتمین بجمع الأحادیث النبویة التی قیلت بفضائل ومناقب أهل البیت (علیهم السلام) وجده أمیر المؤمنین علی (ع)، ومثالب أعدائه ومناوئیه، فضلًا عن کونه من أصحاب الإمامین الصادق والکاظم (علیهما السلام)، ومقدماً عندهم، وراوٍ لأحادیثهم (۱۰)، حتی فی بعض المواقف نجده یسأل الإمام الصادق (ع) عن الإمام بعده واهتمام الصادق (ع) بسؤاله (۱۱)، فضلًا عن تعاطفه مع الثورات التی قام بها العلویون فی العصر العباسی، إذ نجده یرثی قتلی وقعة فخ سنة (۱۶۹ ه-) ویشنع علی أعدائهم والذین ناصبوا العداوة لأهل هذا البیت (۱۲).

۱- حرز الدین، مراقد المعارف ۱۰۹: ۲.

۲- ابن سعد، الطبقات ۱۱۷: ۵.

۳- الشيخ الطوسى، الأمالى: ۵۹۵.

۴- الفخر الرازى، الشجرة المباركة: ۲۰۳، المزى، تهذيب الكمال ۴۶۸: ۲۱- ۴۶۹.

۵- العمرى النسابة، المجدى فى أنساب الطالبيين: ۱۹۷.

۶- إبن عساكر، تاريخ دمشق ۳۰۲: ۴۵- ۳۰۷.

۷- ابن حبان، المجروحين ۱۲۱: ۲- ۱۲۳.

۸- المصدر نفسه ۱۲۱: ۲- ۱۲۳.

۹- الأصفهانى، معجم الشعراء ۳۲۱: ۹.

۱۰- ينظر، الصدوق، من لايحضره الفقيه، ۴۹۴: ۴، النجاشى، الرجال: ۲۹۵.

۱۱- ينظر، الكلينى، الكافى ۲۸۶: ۱، ابن بابويه، الإمامة والتبصرة من الحيرة: ۱۲۴.

۱۲- المرزبانى، معجم الشعراء: ۱۲۹.

ص: ۱۳۱

وهذا المسلك مما لاشك فيه يجعله محل اتهام لدى بعضهم، فيما يقوله من أحاديث وروايات لايروق لهم سماعها ما دام يمثل خطاً معارضاً لهم ولأفكارهم، وهذا ما جعل المصادر الحديثية لاتورد بعضاً من الأحاديث النبوية التى رواها أحفاد عمر الأطرف فى مصنفاتهم؛ بل قسماً من كتب التراجم قد سردت أحاديث لم توردها كتب الحديث، وهذا مما سنلاحظه فى العرض التالى للأحاديث النبوية التى رواها عمر الأطرف.

والمستغرب من كل ماتقدم، هو رواية عمر الأطرف الحديث عن عمر بن الخطاب حسبما ذكره بعض الذين دونوا أخبار عمر الأطرف وأحواله (۱)، وهذا مما لم نجده فى طريق حديث أو رواية واحدة من التى نقلها المحدثون والمؤرخون عنه، ينتهى طريق سندها إلى عمر بن الخطاب، فمتى سمع الحديث من عمر بن الخطاب؟ وهو قد ولد فى أيامه كما ذكرنا سابقا! ولم تكن مدة خلافة عمر للمسلمين سوى عشر سنوات (۲).

إنبرى أحد محدثى الإمامية (الجعابى) ومصنفيهم إلى تجميع الروايات والأحاديث التى نقلها عمر الأطرف فى مصنف مستقل كما أشرنا آنفاً، وللأسف فَقَدْ فُقِدَ هذا المسند مع ما فُقِدَ من عيون تراثنا، ونستطيع من خلال ما تجمع لدينا من أحاديث وروايات من إعادة تبويب وتنسيق ودراسة الإرث الفكرى الذى نسب نقله وقوله إلى الأطرف، إذ اشتملت تلك الأحاديث والروايات التى رواها عمر الأطرف عن أبيه الإمام على (ع) على محاور عدة هى:

أولًا: السنة النبوية: نقلت كتب الحديث والمتون والمساند نصوصاً من الأحاديث النبوية، كان عمر الأطرف فى طرق إسناد البعض منها، وإن كانت بمجملها لاتشكل مسنداً كبيراً، مقارنة بما رواه تابعون آخرون، وهذه الأحاديث قد تنوعت الجوانب التى تضمنتها، وهذه الجوانب هى:

أ- الأحكام الشرعية: سرد لنا عمر الأطرف عدة أحاديث نبوية سمعها من طريق أبيه الإمام على (ع) حول بعض الأحكام والمسائل الشرعية، إذ قال: «قال رسول الله (ص): ثلاث يا على لا تؤخرهن: الصلاة إذا آتت، و الجنازة إذا حضرت، و الأيم إذا وجدت كفؤاً» (۳).

ووردت سنة نبوية من طريق عمر الأطرف، يحدد بها وقت وأوان صلاة العشاء، إذ قال: «إن علياً كان إذا سافر سار بعدما تغرب الشمس حتى تكاد أن تظلم ثم ينزل فيصلى المغرب ثم يدعو بعشائه فيتعشى ثم يصلى العشاء، ثم يرتحل ويقول: هكذا كان رسول الله (ص) يصنع» (۴)، وفى مورد آخر يبين سنة رسول الله (ص) وأفعاله فى أثناء صلاته، ولاسيما فى قراءته للسور فى الركعتين الأُولى منها، وفق ماشاهده أبوه (الإمام على (ع)) من فعل رسول الله (ص)، إذ قال: «كان رسول الله (ص) يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم فى السورتين جميعاً» (۵).

سرد لنا الأطرف أيضاً حكماً لرسول الله (ص) من طريق على (ع) فى المسكرات سواء قلت أم كثرت، إذ قال: «قال رسول الله (ص): كل مسكر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام، وقال رسول الله (ص): لا أحل مسكراً» (۶).

ونقل الأطرف أيضاً حكماً لأبيه (ع) بما وعاه وسمعه عن رسول‌الله (ص) فى رجل نكح امرأة فأصدقته المرأة واشترطت أن بيدها الجماع والطلاق فقال على (ع): «قد خالفت السنة ووليت الحق من لم يوله الله عز وجل، فقضى أن عليه الصدقة وبيد الزوج الجماع والفرقة وقال: ذلك السنّة. وقال على: لا يشترط المخطوب إليه طلاقاً» (۷).

وفى مورد آخر نجد الأطرف ينقل حديثاً عن النبى (ص) فى وصف مروره على بعض القبور التى فى البقيع فقال (ص): «إنهما يعذبان وما يعذبان فى كبير، أما أحدهما فكان لا ينثر عن بوله، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة» (۸).

۱- ینظر، ابن قتیبة، المعارف: ۲۱۷، البلاذری، أنساب الأشراف ۴۱۲: ۲.

۲- البلاذری، أنساب الأشراف ۴۱۳: ۲، ابن شبة، تاریخ المدینة ۷۵۵: ۲، ابن عساکر، تاریخ دمشق، ۳۰۴: ۴۵.

۳- ابن حنبل، المسند ۱۰۵: ۱، البخاری، التاریخ الکبیر ۷۷: ۱، الحاکم النیسابوری، المستدرک ۱۷۶: ۲.

۴- ابن أبی شیبة، المصنف، ۴۵۸: ۲.

۵- الدارقطنی، السنن ۳۰۲: ۱.

۶- المصدر نفسه ۲۵۰: ۴.

۷- ابن ماکولا، الإکمال ۵۹۱: ۳.

۸- إبن عساکر، تاریخ دمشق ۲۰۱: ۳۶، المتقی الهندی، کنز العمال ۵۳۱: ۹.

ص: ۱۳۲

ونقرأ أيضاً فی حديث يسنده الأطرف إلى النبی (ص)، يبين فيه ما يجب على الرجل والمرأة من ستر عورتهما عن الناظرين، حتى وإن كانا من نفس جنسهما فيقول (ص): «عورة الرجل على الرجل كعورة المرأة على الرجل و عورة المرأة على المرأة كعورة المرأة على الرجل» (۱).

وتستمر الأحاديث النبوية المروية بطريق عمر الأطرف، لينقل حديثاً يتضمن بعض الوصايا التی أوصى بها رسول الله (ص) أمته حيث قال (ص): «لا تزنوا فتذهب لذة نسائكم من أجوافكم، وعفوا تعف نساؤكم، حتى أن بنی فلان زنوا فزنت نساؤهم» (۲).

روى عمر أيضاً أحاديث نبوية أخرمن طريق أبيه (ع) فی الرغائب ومستحبات الأعمال، إذ قال: «قال رسول الله (ص): إن فی الجمعة لساعة لا يوافقها مسلم يسأل الله فيها إلا أعطاه إياه» (۳).

ونقل عمر لأولاده حواراً جرى بينه وبين أبيه الإمام على (ع) فيما سمعه (ع) من حديث رسول الله (ص) ما نصه: «إن الله يحب أن يأخذ برخصه كما يحب أن يأخذ بعزائمه، إن الله بعثنی بالحنيفية السمحة دين إبراهيم، ثم قرأ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِی الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ فقال لی أبی: يا بنی ما حرج؟ قلت: لا أدری! قال: الضيق» ((۴).

ب- أحاديث الفضائل: يتضح من مجمل الأحاديث، التی تجمعت لدينا من طريق عمر الأطرف، أنها قد حوت على مجموعة طيبة من الأحاديث النبوية، التی قيلت فی فضائل الإمام على (ع)، ومواقفه المشرفة فی الذبّ عن الإسلام، ومكانة أهل بيته (عليهم السلام)، إذ قال (ص): «إنی تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا كتاب الله سببه بيد الله وسببه بأيديكم وأهل بيتی» (۵)، وأضاف أيضاً فی نقله لمثل هذه الأحاديث إذ قال: «قال رسول الله (ص): أنا وفاطمة والحسن والحسين مجتمعون، وهذه فاطمة وهذان الحسن والحسين ومن أحبهما يوم القيامة فی الجنة يأكل ويشرب حتى يفرق بين العباد» (۶).

وفی مورد منفصل ينقل الأطرف حديثاً للنبی (ص) فی ذلك الأمر ما نصه: «قال رسول الله (ص): شفاعتی لأمتی من أحب أهل بيتی وهم شيعتی» (۷).

وتنوعت الأحاديث النبوية التی قيلت بحق الإمام على (ع) التی نقلها عمر الأطرف، إذ كان بعضها إيضاحاً من الرسول (ص) لمدلول آية قرآنية نزلت عليه فی حادثة معينة، فقد وردت نصوص عديدة بينت هذا الأمر، إذ قال رسول الله (ص): «يا على! إن الله أمرنی أن أدنيك وأعلمك لتعی، وأنزلت هذه الآية، وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ فأنت أذن واعية لعلمی» (۸).

وكذلك الحال فی سبب نزول الآية: إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ (۹)، إذ تحدث الأطرف عن خلجات الرسول (ص) حين نزول هذه الآية عليه، فقال مسنداً ذلك إلى أبيه (ع): «نزلت هذه الآية على رسول الله (ص) إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ هُمْ راكِعُونَ فخرج رسول الله (ص) فدخل المسجد والناس يصلون بين راكع وقائم وإذا سائل فقال: يا سائل! هل أعطاك أحد شيئاً؟ فقال: لا إلا ذاك الراكع- وأشار لعلی- أعطانی خاتمه» (۱۰).

روى عمر الأطرف أيضاً حديث الطائر المشوی الذی روته المصادر الحديثية وبطرق متعددة ترجع بأجمعها الى الصحابی أنس بن مالك، حتى أصبح هذا الحديث من الشهرة والانتشار بمكان أن روته معظم المصادر الحديثية (۱۱). إذ كان طريقه لهذا الحديث يرجع إلى والده الإمام على (ع)، فقد ذكر مانصه: «أهدی لرسول الله (ص) طير يقال له: الحبارى، فوضع بين يديه وكان أنس بن مالك يحجبه فرفع النبی (ص) يده إلى الله ثم قال: اللهم ائتنی بأحب خلقك إليك يأكل معی من هذا الطير. قال: فجاء على فاستأذن، فقال له أنس، إن رسول الله (ص) يعنی على حاجة، فرجع ثم دعا رسول‌الله (ص) فرجع، ثم دعا الثالثة فجاء على فأدخله فلما رآه رسول‌الله (ص) قال: اللهم وإلیّ، فأكل معه، فلما أكمل رسول الله (ص) خرج على» (۱۲).

۱- الحاكم النيسابورى، المستدرك ۱۹۹: ۴.

۲- ابن عدى، الكامل فى الضعفاء، ۲۴۴: ۵.

۳- ابن حنبل، المسند، ۴۵۷: ۲.

۴- إبن عساكر، تاريخ دمشق ۴۱۴: ۵۴.

۵- أبى عاصم، كتاب السنة: ۶۱۱، المتقى الهندى، كنز العمال ۳۷۹: ۱.

۶- إبن عساكر، تاريخ دمشق ۲۲۷: ۱۳.

۷- الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد ۱۴۶: ۲.

۸- ابو نعيم الأصفهانى، حلية الأولياء ۶۷: ۱، الديلمى، فردوس الأخبار، ۳۲۹: ۵.

۹- سورة المائدة: ۵۵.

۱۰- الحاكم الحسكانى، شواهد التنزيل ۲۲۶: ۱- ۲۲۷، الحاكم النيسابورى، معرفة علوم الحديث: ۱۰۲، ابن كثير، البداية و النهاية، ۳۵۸: ۷.

۱۱- ينظر، ابن حنبل، فضائل الصحابة ۵۶۰: ۲، البخارى، التاريخ الكبير ۲: ۲، النسائى، خصائص الإمام على: ۲۹ - ۳۰، الحاكم النيسابورى، المستدرك ۱۴۱: ۳- ۱۴۲.

۱۲- إبن عساكر، تاريخ دمشق، ۲۴۵: ۴۲- ۲۴۶؛ وقد وردت هذه الحادثة بطرق أخر: ابن حنبل، فضائل الصحابة ۵۶۰: ۲، البخارى، التاريخ الكبير ۲: ۲، النسائى، خصائص على: ۲۹- ۳۰، الحاكم النيسابورى، المستدرك ۱۴۱: ۳- ۱۴۲.

ص: ۱۳۳

ویسرد حدیثاً آخر فی فضائل الإمام علی (ع) حین استعمله رسول‌الله (ص) علی الیمن إذ قال مسنداً ذلک إلی علی بن أبی طالب (ع)- ما نصه: «دعانی رسول الله (ص) لیستعملنی علی الیمن فقلت له: یا رسول‌الله إنی شاب حدث السن ولا علم لی بالقضاء، فضرب رسول‌الله (ص) فی صدری مرتین أو قال ثلاثاً، وهو یقول: اللهم اهد قلبه وثبت لسانه، فکأنما کل علم عندی وحشّی قلبی علماً وفقهاً فما شککت فی قضاء بین اثنین» (۱).

نقل عمر الأطرف أیضاً حدیث (غدیر خم)*****، حین رجع رسول الله (ص) من حجه الأخیر سنة ۱۰ ه- وخطبة الوداع، ولاسیما محل الشاهد منها فی ذکر فضیلة علی (ع) ومکانته إذ روی عن أبیه (ع) نص هذه الحادثة، فقال: «... إن النبی (ص) قام بحفرة الشجرة بخم وهو آخذ بید علی فقال: أیها الناس! ألستم تشهدون أن الله ربکم؟ قالوا: بلی، قال: ألستم تشهدون أن الله ورسوله أولی بکم من أنفسکم؟ قالوا: بلی. وإن الله ورسوله مولاکم؟ قالوا: بلی. قال: فمن کنت مولاه فإن هذا مولاه» (۲).

هذا، وقد وردت حادثة غدیر خم من طریق عمر الأطرف عن أبیه (ع) بتفصیل وإسهاب أکثر من ذلک فی مصادر الشیعة، وذلک بروایة نقلها أحد کتب الزیدیة، بینت اهتمام هذه الشخصیة بروایة هذه الحادثة، وإشاعتها (۳)، وهذا مما لم تورده بقیة مصادر المسلمین ومصنفاتهم.

وترد روایة أخری عن عمر بن علی بن أبی طالب عن أبیه (ع) یبین فیها ماقاله الرسول (ص) لسلمان الفارسی ۲ فی حق علی (ع)، إذ قال: «قلما طلعت علی رسول الله (ص) وأنا معه إلا ضرب بین کتفی فقال: یاسلمان! هذا وحزبه المفلحون» (۴).

وفی روایة أخری تتفق مع المضمون السابق ینقل الأطرف عن أبیه حادثة وقعت فی أیام الرسول (ص)، إذ قال: «قال رسول الله (ص): إن منکم من یقاتل علی تأویل القرآن کما قاتلت علی تنزیله، فقال أبو بکر: أنا هو یا رسول الله؟ قال: لا، ولکنه هذا خاصف النعل، وفی ید علی نعل یخصفها» (۵).

وتستمر قرائن تلک الروایات التی حدث بها عمر الأطرف عن فضائل أهل البیت بما سمعه عن أبیه عن رسول الله (ص)، حتی نجد فی إحداها قد رد علی بعض من أراد الطعن والتوهین فی مثل تلک الأخبار، إذ قال فی حدیث نقله عن رسول الله (ص) مانصه: «قال رسول‌الله: أنا و فاطمة و حسن و حسین مجتمعون، ومن أحبنا، یوم القیامة نأکل ونشرب حتی یفرق بین العباد»، فبلغ ذلک رجلًا من الناس فسأل عنه فأخبرته فقال: کیف بالعرض والحساب؟ فقلت له: کیف کان لصاحب یاسین بذلک حین أدخل الجنة من ساعته (۶).

ویوافق معنی الحدیث السابق ماذکره عن أبیه (ع) أیضاً فی تبیان ماقاله الرسول (ص) فی حقه: «إن الله تعالی عهد إلیّ فی علی عهداً قلت: رب بینه لی قال: اسمع یا محمد قال: إن علیاً رایة الهدی بعدی وإمام أولیائی ونور من أطاعنی، وهو الکلمة التی أکرمتها المتقین؛ فمن أحبه أحبنی ومن أبغضه أبغضنی»، فبشر علیاً (ع) بذلک (۷).

وفی حدیث آخر ینقل موقفاً للإمام علی (ع) قال: «جئت رسول‌الله (ص) یوماً فی ملأ من قریش فنظر إلیّ وقال: یا علی! إنما مثلک فی هذه الأمة کمثل عیسی بن مریم أحبه قوم فأفرطوا فیه وأبغضه قوم فأفرطوا فیه قال: فضحک الملأ الذین عنده وقالوا: انظروا کیف یشبه ابن عمه بعیسی فأنزل الله القرآن: وَ لَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْیَمَ مَثَلًا إِذا قَوْمُکَ مِنْهُ یَصِدُّونَ» (۸).

مثلما کانت تلک الأحادیث السابقة- التی رواها وأشاعها عمر الأطرف- مبرزة لمکانة الإمام علی (ع)، فقد جاءت أحادیث أخری رواها الأطرف فی تفهیم الناس لمکانة أهل بیت النبی (علیهم السلام)، وذلک بعد أن أزعجت الرسول (ص) مواقف قریش منهم، إذ قال العباس بن عبد المطلب یوماً له (ص): «یا رسول الله! إن قریشاً تلقانا فیما بینهم بوجوه لانلقاها بها، فقال (ص): أما الإیمان لا یدخل أجوافهم حتی یحبوکم لی» (۹).

۱- الخطیب البغدادی، تاریخ بغداد ۴۴۳: ۱۲، إبن عساکر، تاریخ دمشق ۳۹۰: ۴۲.

****** خم: اسم موضع غدیر خم قال السهیلی عن ابن إسحاق، وخم بئر کلاب بن مرة وهو اسم رجل صباغ أضیف إلیه الغدیر الذی هو بین مکة والمدینة بالجحفة، وقیل هو علی ثلاثة أمیال من الجحفة، ووادیه یصب فی البحر لا نبت فیه غیر المرخ والثمام والأراک والعشر، وبه أناس من خزاعة وکنانة غیر کثیر، خطب به رسول الله ۹ و هذا الوادی موصوف بکثرة الوخامة، ینظر، یاقوت الحموی، معجم البلدان ۳۸۹: ۲.

۲- أبی عاصم، کتاب السنة: ۵۶۵، إبن عساکر، تاریخ دمشق ۲۱۳: ۴۲.

۳- ینظر: الکوفی، مناقب أمیر المؤمنین ۲: ۲۹۸- ۲۹۹.

۴- الحاکم الحسکانی، شواهد التنزیل ۹۱: ۱- ۹۲، إبن عساکر، تاریخ دمشق ۳۳۲: ۴۲.

۵- إبن عساکر، تاریخ دمشق ۴۵۱: ۴۲.

۶- الطبرانی، المعجم الکبیر ۴۱: ۳.

۷- إبن عساکر، تاریخ دمشق ۲۰۱: ۳۶، المتقی الهندی، کنز العمال ۵۳۱: ۹.

۸- ابن شهر آشوب، مناقب آل أبی طالب ۲۲۷: ۱، ابن الجوزی، العلل المتناهیة ۲۲۸: ۱، المتقی الهندی، کنز العمال ۵۰۰: ۲.

۹- ابن عساکر، تاریخ دمشق ۳۰۲: ۲۶.

ص: ۱۳۴

ونقل الأطرف أیضاً محاورة جرت بین رسول الله (ص) والإمام علی بن أبی طالب (ع) قائلًا له: «یا رسول الله! أمنّا الهداة أم من غیرنا؟ قال: لا بل منّا، بنا یختم الدین کما افتتح، بنا یستنقذ من الضلالة! بنا یجمع الله بین قلوبهم بعد عداوة، کما بنا جمع بینهم بعد عداوة الشرک. قال علی: یا رسول الله! فمن بقی أمؤمنون أم کافرون؟ قال: مفتون وکافر» (۱).

تلک هی الأحادیث التی نقلتها المصادر المتقدمة بطریق عمر الأطرف، والتی أظهرت مدی الاهتمام والترکیز علی روایة أحادیث الفضائل والمناقب التی خصّ بها الإمام علی وأهل البیت (علیهم السلام).

ثانیاً: السیرة النبویة: حفلت الروایات التی تجمعت لدینا من طریق عمر الأطرف، بجوانب متعددة ومتنوعة من حیاة الرسول الأعظم محمد (ص)، وإن کان بعض من هذه الروایات، مما یقف بالضد من روایات أخر خالفتها فی مضمونها وتفاصیلها، ولاسیما تلک التی تختلف بها وجهات النظر، وتتدخل فیها المذاهب الفکریة والعقائدیة، إذ أظهرت تلک الروایات التی حدّث بها ورواها عمر الأطرف، الجوانب التی اهتم بها من أخبار السیرة، وما أراد الترکیز علیه منها، وهذا مما سیعطینا إیضاحاً لإسهام هذه الشخصیة وموقعها فی روایة أخبار السیرة، من بین بقیة الرواة لها من معاصریه، إذا ماعلمنا، إن مصدره فی هذه الأخبار لم یکن سوی والده الإمام علی (ع)، وهذا مما یعطی أخباره مصداقیة قد لا تتوفر عند غیره من الناقلین والرواة لأخبار السیرة من غیر أهل البیت (علیهم السلام)، بکون مثل هذه الروایات من الأهمیة بمکان؛ أن صاحبها یروی عن شاهد عیان؛ عاصر حوادث عصر الرسالة منذ أیامها الأولی، وحتی التحاق النبی محمد (ص) بالرفیق الأعلی.

شملت روایات السیرة من طریق عمر الأطرف محاور عدة، ولکنها لم تکن علی نسق متصل بجمیع مراحل الحیاة التی عاشها النبی الکریم محمد (ص)؛ بل کانت روایاته متنقلة بین حوادث السیرة المختلفة سواء الیومیة منها أم المعنویة من صفاته وخصائصه وشمائله وصفاته، مع الترکیز فی معظم تلک الحوادث علی الحقبة المدنیة من عصر الرسالة، إذ لم نجد فی ثنایا تلک الروایات التی نقلها عمر ترکیزاً واضحاً للحقبة المکیة من هذا العصر، إذ یبین العرض الآتی لمجمل الروایات حقیقة هذه النتیجة، وحتی هذه الحوادث التی ذکرها لم تکن جمیعها معروضة بتفصیل مسهب، بل کان بعضها یشتمل علی شذرات بسیطة عن الحادثة التی یتناولها بالذکر، فضلًا عن ذلک فإن مجمل الروایات التی ذکرها عن سیرة الرسول (ص) قد اشترکت- إن لم نقل کلها فجلّها- بخصیصة واحدة، وهی: الترکیز علی ما کان من دور للإمام علی (ع) فی تلک الحادثة، وهذه نتیجة سنلحظها فی العرض الآتی لحوادث السیرة التی ینتهی طریق روایتها إلی عمر الأطرف، والتی اشتملت علی الجوانب الآتیة:

أ- بناء الکعبة قبیل الإسلام:

تحدثت مصادر السیرة عن حادثة بناء قریش للکعبة قبیل الإسلام بعد أن دهمها سیل شدید تصدعت من جراء ذلک أرکانها، وما کان فی هذه الحادثة من دور مبرز لرسول الله (ص) فی هذا البناء الذی حصل قبل خمس سنوات من البعثة المبارکة (۲).

جاءت روایتان من طریق عمر الأطرف عن أخبار هذه الحادثة: الأولی تمثل حدیثاً لرسول (ص) یخبر فیه عن دوره فی هذا البناء بما أخبر به الإمام علی (ع)، إذ قال (ع): «قال رسول الله: أنا وضعت الرکن بیدی یوم اختلفت قریش فی وضعه (۳)».

أما الثانیة فکانت روایة سمعها الأطرف من والده الإمام علی (ع)، حول ماجری علی الکعبة من الحوادث، إذ قال (ع): «لما احترقت الکعبة فی الجاهلیة هدمتها قریش لتبنیها فکشف عن رکن من أرکانها من الأساس فإذا حجر فیه مکتوب أنا یعفر بن عبد قرا أقرأ علی ربی السلام من رأس ثلاثة آلاف سنة» (۴).

۱- الزجاجی، أخبار أبو القاسم الزجاجی: ۱۹۵.

۲- ينظر، ابن سعد، الطبقات ۱۴۵: ۱- ۱۴۸، ابن هشام، السيرة النبوية ۱۲۴: ۱- ۱۲۸، اليعقوبى، التاريخ ۱۹: ۲- ۱۸.

۳- الأزرقى، أخبار مكة ۱۷۲: ۱.

۴- المصدر نفسه ۱۷۳: ۱- ۱۷۴.

ص: ۱۳۵

والملاحظ على هذه الرواية إنها من الانفرادات التى انفرد عمر الأطرف بروايتها من بين باقى الرواة، إذ لم نجد لهذه الرواية طريقاً آخر- فى باقى المصادر الإسلامية الأخرى- غير الطريق الذى تنتهى سلسلة إسناده إلى الأطرف.

ب- مباهلة نصارى نجران:

كانت هذه الحادثة التى حدثت فى سنة (۱۰ ه-) (۱) من الحوادث المشهورة فى عصر الرسالة حتى نزلت فيها آية المباهلة: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَ أَبْناءَكُمْ وَ نِساءَنا وَ نِساءَكُمْ وَ أَنْفُسَنا وَ أَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ (۲).

عرض المفسرون ومؤرخو السيرة تفاصيل هذه الحادثة بتباينٍ ظاهر، وذلك من حيث سرد تفاصيل هذه الحادثة ومجرياتها، إذ اكتفت بعض المصادر بذكر الحادثة، دون التطرق إلى الخصيصة التى خص بها الرسول (ص) فيها أهل بيته من على وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام)، فى تقديمهم معه للمباهلة (۳)، ولكن مصادر أخرى أوردت ذلك بسند ينتهى طريقه إلى عمر الأطرف وغيره، إذ انفرد أبو الفرج الأصفهانى (۳۸۵ ه-) برواية حادثة المباهلة من طريق عمر الأطرف، وذلك بتفصيل قلما نجده عند آخر، إذ قال: «قدم وفد نصارى نجران وفيهم الأسقف، والعاقب وأبو حبشٍ، والسيد، وقيس، وعبد المسيح، وابن عبد المسيح الحارث وهو غلام، فلما صلى النبى (ص) الصبح، قاموا فكبروا بين يديه، ثم تقدمهم الأسقف فقال: يا أبا القاسم، موسى من أبوه؟ قال: عمران. قال: فيوسف من أبوه؟ قال: يعقوب. قال: فأنت من أبوك؟ قال: أبى، عبد الله بن عبد المطلب. قال: فعيسى من أبوه؟ فسكت رسول الله (ص)، فانقض عليه جبريل (ع) فقال: إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ فتلاها رسول الله (ص)؛ فنزا الأسقف ثم دير به مغشياً عليه، ثم رفع رأسه إلى النبى (ص) فقال له: أتزعم أن الله جل وعلا- أوحى إليك أن عيسى خلق من تراب! ما نجد هذا فيما أوحى إليك، ولا نجده فيما أوحى إلينا؛ ولا تجده اليهود فيما أوحى إليهم. فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ.

فقال له النصرانى: أنصفتنا يا أبا القاسم، فمتى نباهلك؟ فقال: بالغداة إن شاء الله تعالى.

وانصرف النصارى، وانصرفت اليهود وهى تقول: والله ما نبالى أيهما أهلك الله الحنيفية أو النصرانية. فلما صارت النصارى إلى بيوتها قالوا: والله إنكم لتعلمون أنه نبى، ولئن باهلناه إنا لنخشى أن نهلك، ولكن استقيلوه لعلّه يقيلنا. وغدا النبى (ص) من الصبح وغدا معه بعلى وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم. فلما صلى الصبح، انصرف فاستقبل الناس بوجهه، ثم برك باركاً، وجاء بعلى فأقامه بين يديه، وجاء بفاطمة فأقامها بين كتفيه، وجاء بحسنٍ فأقامه عن يمينه، وجاء بحسينٍ فأقام عن يساره.

فأقبلوا يسترون بالخشب والمسجد فرقاً أن يبدأهم بالمباهلة إذا رآهم، حتى بركوا بين يديه، ثم صاحوا: يا أبا القاسم! أقلنا أقالك الله عثرتك. فقال النبى (ص): نعم قال: ولم يسأل النبى (ص) شيئاً قط إلا أعطاه فقال: قد أقلتكم فولوا. فلما ولوا قال النبى (ص): «أما والذى بعثنى بالحق لو باهلتهم ما بقى على وجه الأرض نصرانى ولا نصرانية إلا أهلكهم الله تعالى» (۴).

كانت هذه الرواية- وبهذه الصيغة- التى جاءت بطريق عمر الأطرف، قد رويت بطرق أخرى فى أحد المصادر (۵) ولكن هذا الطريق هو محل الشاهد، إذ إن رواية عمر لحادثة المباهلة هذه؛ ليعطينا صورة مضافة لطبيعة الحوادث التى أشاعها من أخبار السيرة النبوية.

ج- معركة بدر:

خص الأطرف أحداث هذه المعركة المهمة بتاريخ المسلمين- والتى حدثت فى السنة الثانية للهجرة- بجانب من رواياته التى رواها فى حوادث السيرة، إذ وجدناه يسلّط الضوء على ما سمعه من أبيه الإمام على (ع)، وهو يصف خلجات

۱- تاريخ الطبرى ۳۸۳: ۳.

۲- سورة آل عمران: ۶۱.

۳- ينظر، ابن هشام، السيرة النبوية ۱۲۳: ۳- ۱۲۴، تاريخ الطبرى ۳۸۳: ۳، إبن عساكر، تاريخ دمشق ۴۵۳: ۲۵.

۴- أبوالفرج الأصفهانى، الأغانى ۱۲: ۷.

۵- ينظر، المفيد، الإرشاد ۱۷۶: ۱- ۱۸۰.

ص: ۱۳۶

الرسول (ص)، وتصرفاته فى هذه المعركة، إذ قال فى سند رواية نقلتها المصادر مفادها: حدث محمد بن المثنى و محمد بن معمر قالا: نا عبيد الله بن عبد المجيد قال: نا عبيد الله بن موهب قال: حدثنى إسماعيل بن عون، عن عبد الله بن محمد بن عمر بن على، عن أبيه محمد بن عمر، عن أبيه، عن على: قال على (ع): «لما كان يوم بدر قاتلت شيئاً من قتال ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله (ص) ما فعل فجئت فأجده و هو ساجد يقول: يا حى يا قيوم لا يزيد عليها، فرجعت إلى القتال ثم جئت و هو ساجد يقول ذلك، ثم ذهبت إلى القتال ثم جئت و هو ساجد يقول ذلك، فلم يزل يقول ذلك، حتى فتح الله عليه» (۱).

علق أهل الحديث على هذا الخبر بالقول: «وهذا الحديث لا نعلمه يروى عن على عن النبى (ص) إلا من هذا الوجه بهذا الإسناد» (۲).

كانت هذه الرواية هى الرواية اليتيمة لعمر الأطرف عن معركة بدر، إذ لم تورد المصادر التى بين أيدينا رواية أخرى مسندة له يحدث بها بأخبار هذه المعركة.

د- حج النبى ۹:

وردت روايتان بطريق عمر الأطرف عن أبيه الإمام على (ع) فى وصف حج النبى (ص) والمناسك التى عملها فيه، فقال فى الأولى: «أن النبى (ص) ساق مائة بدنة فى حجته» (۳)، وأضاف فى الثانية: «أن النبى (ص) كان قارناً (أى قرن حجه بعمرة) فطاف طوافين وسعى سعيين» (۴).

ه-- وفاة النبى ۹:

يمكن أن نعد الروايات التى نقلت بطريق عمر الأطرف عن سيرة الرسول (ص)؛ أن الحيز الأكبر منها كان فى حادثة وفاته (ص)، والظروف والملابسات التى رافقتها، فقد جمع العديد من مؤرخى السيرة البارزين تلك الروايات؛ لما وجدوه فيها من إسهاب فى عرض تفاصيل تلك الحادثة، قلما وجدت بهذا الإسهاب عند راو آخر من المتقدمين، والسر فى ذلك، هو مصدر عمر فى هذه الحادثة والشاهد الفعلى لها طوال مدتها منذ اعتلال النبى (ص) إلى أن وضع فى ملحودة قبره الشريف، ليكون آخر من تقع عليه عيناه، ذلك هو الإمام على (ع)، حتى أن المغيرة بن شعبة أراد أن ينال هذا الشرف بأن أسقط خاتمه متعمداً فى حفرة النبى (ص)، ليسترجعه بعدئذ، وذلك بعد أن شارك فى مراسم الدفن، إذ وردت رواية مسندة إلى عمر الأطرف مبينة هذا المعنى، وذاكراً فيها قول أبيه على (ع)، إذ قال: «قال على لما ألقى المغيرة بن شعبة خاتمه فى قبر النبى (ص) لا يتحدث الناس أنك نزلت فى قبر النبى (ص)، ولا تحدث أنت الناس أن خاتمك فى قبره، فنزل على رضى الله عنه و قد رأى موقعه فتناوله فدفعه إليه» (۵).

وذكر عمر الأطرف فى تحديد وقت اعتلال الرسول وتاريخه: «إن النبى (ص) اعتل يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر سنة إحدى عشرة» (۶)، وفى رواية أخرى يقول: «أول ما بدأ برسول الله (ص) شكوه يوم الأربعاء، فكان شكوه إلى أن قبض (ص) ثلاثة عشر يوماً» (۷).

لكن هذه الرواية أشكل عليها من حيث تعداد الأيام ومسمياته، إذ قال السخاوى فى معرض نقده لهذه الرواية: «وأما ما رواه ابن سعد من طريق عمر بن على بن أبى طالب قال: اشتكى رسول الله (ص) يوم الأربعاء لليلة بقيت من صفر، فاشتكى ثلاث عشرة ليلة ومات يوم الاثنين لاثنتى عشرة مضت من ربيع الأول، فمشكل؛ لاستلزامه أن يكون أول صفر الأربعاء، وذلك غير مطابق لكون أول ذى الحجة الخميس مهما فرضت الأشهر الثلاثة، وكذا قول ابن حبان وابن عبد البر: ثم بدأ به مرضه الذى مات منه يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر، يقتضى أن أول صفر الخميس، وهو غير مطابق أيضاً» (۸).

ويضيف فى سرده لحوادث الساعات التى سبقت وفاة الرسول (ص)، فى رواية سمعها من أبيه الإمام على (ع)، قال: «قال رسول الله (ص) فى مرضه: ادعوا لى أخى، قال: فدعى له على، فقال: ادن منى فدنوت منه، فاستند إلى، فلم يزل مستنداً وإنه

۱- ابن سعد، الطبقات ۲۶: ۲، الحاکم النیسابوری، المستدرک ۳۴۴: ۱، ابن کثیر، البدایة و النهایة، ۲۷۵: ۳- ۲۷۶.

۲- ابن سعد، الطبقات ۲۶: ۲.

۳- ابن حجر الهیثمی، مجمع الزوائد ۴۵۱: ۱.

۴- الدارقطنی، السنن ۲۶۳: ۲.

۵- ابن سعد، الطبقات الکبری ۳۰۳: ۲، الحاکم النیسابوری، المستدرک ۵۰۷: ۳، الذهبی، سیر أعلام النبلاء ۲۶: ۳، المتقی الهندی، کنز العمال، ۲۵۸: ۷- ۲۵۹.

۶- ابن سعد، الطبقات ۲۷۳: ۲.

۷- المصدر نفسه ۲۰۶: ۲.

۸- السخاوی، فتح المغیث ۳۲۰: ۳.

ص: ۱۳۷

ليكلمنى، حتى إن بعض ريق النبى (ص) ليصيبنى، ثم نزل برسول الله (ص)، وثقل فى حجرى، فصحت: يا عباس! أدركنى فإنى هالك، فجاء العباس، فكان جهدهما جميعاً أن أضجعاه» (۱).

وتستمر الروايات التى نقلها عمر عن حادثة وفاة الرسول (ص) بالتلاحق إذ قال: عن على بن أبى طالب قال: «لما أخذنا فى جهاز رسول الله (ص) أغلقنا الباب دون الناس جميعاً فنادت الأنصار نحن أخواله ومكاننا من الإسلام مكاننا، ونادت قريش نحن عصبته، فصاح أبو بكر: يا معشر المسلمين! كل قوم أحق بجنازتهم من غيرهم فننشدكم الله فإنكم إن دخلتم أخرتموهم عنه والله لا يدخل عليه أحد إلا من دعى» (۲).

ويذكر فى مورد آخر، تفاصيل تجهيزه (ص) وصلاة المسلمين عليه، فحين وضع رسول الله (ص) على السرير لصلاة الناس والتسليم عليه وإلقاء نظرة الوداع الأخيرة عليه، قال على (ع): «لا يقوم عليه أحد هو إمامكم حياً وميتاً، فكان يدخل الناس رسلًا رسلًا فيصلون عليه صفاً صفاً ليس لهم إمام، ويكبرون وعلى قائم بحيال رسول الله (ص) يقول: السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته، اللهم إنا نشهد أن قد بلغ ما نزل إليه ونصح لأمته وجاهد فى سبيل الله، حتى أعز الله دينه وتمت كلمته. اللهم فاجعلنا ممن يتبع ما أنزل إليه وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه، فيقول الناس: آمين، حتى صلى عليه الرجال ثم النساء ثم الصبيان» (۳).

ويستطرد فى سرد تلك الحوادث، ليعدد أسماء من تولى تكفينه (ص) والنزول مع على (ع) فى حفرته (ص)، إذ قال: «كفن رسول الله (ص) فى ثلاثة أثواب من كرسف سحولية ليس فيها قميص ولا عمامة» (۴)، وأضاف فى مورد آخر: «نزل فى حفرة النبى (ص) هو (على) وعباس وعقيل بن أبى طالب وأسامة بن زيد وأوس بن خولى وهم الذين ولوا كفنه» (۵).

حدد عمر الأطرف يوم وفاة الرسول (ص) بيوم الاثنين، لاثنتى عشرة مضت من ربيع الأول، سنة إحدى عشرة من هجرته المباركة (۶).

كانت الروايات التى نقلها عمر الأطرف عن أبيه على (ع) فى حادثة وفاة الرسول (ص)، تعد على الطرف النقيض مما روته عائشة فى هذه الحادثة التى ادعت أن النبى (ص) قد لفظ أنفاسه الأخيرة بين سحرها ونحرها، وجمع الله بين ريقها وريقه (ص) (۷)، والروايات آنفة الذكر تتطابق مع ما رواه أئمة أهل البيت (عليهم السلام)، عن حادثة وفاة النبى (ص) وما كان فيها للإمام على (ع) من دور، وإن اختلف معهم فى تحديد تاريخ وفاته، التى أرخوها بيوم الثامن والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة للهجرة (۸).

و- صفة النبى ۹ وشمائله:

حفلت الروايات التى رواها عمر الأطرف عن سيرة النبى (ص) بنصوص متعددة عن صفاته وشمائله (ص)، وكانت هى الأخرى من طريق والده الإمام على (ع)، إذ تحدث فى رواية من تلك الروايات قال: «قيل لعلى: يا أباحسن! انعت لنا النبى (ص)، قال: «كان أبيض مشرب بياضه حمرة أهدب الأشفار أسود الحدقة، لا قصيراً ولا طويلًا، وهو إلى الطول أقرب، عظيم المناكب فى صدره مسربة لا جعد ولا سبط شثن الكف والقدم إذا مشى تكفأ كأنما يمشى فى صعد، كأن العرق فى وجهه اللؤلؤ، لم أر قبله ولا بعده مثله (ص)» (۹).

ويرد نص آخر بهذا الطريق آنف الذكر، وفى هذا المحور من سيرة النبى (ص) إذ قال عمر فى رواية نسبها لأبيه (ع) مفادها: «بعثنى رسول الله (ص) إلى اليمن فإنى لأخطب يوماً على الناس وحبر من أحبار اليهود واقف فى يده سفر ينظر فيه فنادى إلى، فقال: صف لنا أبا القاسم فقال على رضى الله عنه: رسول الله (ص) ليس بالقصير ولا بالطويل البائن وليس بالجعد القطط ولا بالسبط، هو رجل الشعر أسوده ضخم الرأس مشرب لونه حمرة، عظيم الكراديس شثن الكفين والقدمين، طويل المسربة، وهو الشعر الذى يكون فى النحر إلى السرة، أهدب الأشفار مقرون الحاجبين، صلت الجبين، بعيد ما بين

۱- ابن سعد، الطبقات ۲۶۳: ۲، ابن حجر، فتح البارى ۱۳۹: ۸.

۲- ابن سعد، الطبقات ۲۷۸: ۲.

۳- المتقى الهندى، كنزالعمال ۴۰۸: ۷.

۴- ابن سعد، الطبقات ۲۸۳: ۲.

۵- المصدر نفسه ۳۰۱: ۲.

۶- المصدر نفسه ۲۷۳: ۲.

۷- ينظر: ابن حنبل، المسند ۱۲۱: ۶- ۱۲۲، البخارى، الصحيح ۴۵: ۴، الحاكم النيسابورى، المستدرك ۶: ۴.

۸- ينظر، الكلينى، الكافى ۳۶۵: ۱، المفيد، الإرشاد ۱۸۶: ۱- ۱۸۹، الطبرسى، إعلام الورى، ۲۶۸: ۱- ۲۷۲.

۹- ابن سعد، الطبقات ۴۱۲: ۱، الفسوى، المعرفة والتاريخ ۲۷۸: ۳.

ص: ۱۳۸

المنكبين، إذا مشى يتكفأ كأنما ينزل من صبب، لم أر قبله مثله ولم أر بعده مثله. قال على: ثم سكت، فقال لى الحبر: وماذا؟ قال على: هذا ما يحضرنى. قال الحبر: فى عينيه حمرة، حسن اللحية، حسن الفم، تام الأذنين، يقبل جميعاً ويدبر جميعاً فقال على: هذه والله صفته، قال الحبر: وشىء آخر، فقال على: وما هو؟ قال الحبر: وفيه جنأ قال على: هو الذى قلت لك كأنما ينزل من صبب قال الحبر: فإنى أجد هذه الصفة فى سفر آبائى ونجده يبعث من حرم الله وأمنه وموضع بيته، ثم يهاجر إلى حرم يحرمه هو ويكون له حرمة كحرمة الحرم الذى حرم الله، ونجد أنصاره الذين هاجر إليهم قوماً من ولد عمرو بن عامر أهل نخل وأهل الأرض قبلهم يهود. قال: قال على: هو هو وهو رسول الله (ص) فقال الحبر: فإنى أشهد أنه نبى الله وأنه رسول الله (ص) إلى الناس كافة: فعلى ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله قال: فكان يأتى علياً فيعلمه القرآن ويخبره بشرائع الإسلام. ثم خرج على والحبر هنالك حتى مات فى خلافة أبى بكر وهو مؤمن برسول‌الله (ص) يصدق به» (۱).

وورد نعت رسول الله (ص) وصفته من طريق عمر الأطرف عن على أيضاً بصورة مقتضبة وتحاكى النصوص السابقة، إذ قيل للإمام على (ع): انعت لنا رسول الله (ص)، فقال: «كان أبيض مشرباً بياضه حمرة وكان أسود الحدقة أهدب الأشفار» (۲)، ويحتمل أنَّ هذا السؤال قد تكرر على الإمام على (ع)، فلذلك تنوعت الإجابات عليه من حيث الإطناب والاقتضاب، كما لاحظنا فى الروايات السابقة.

وينقل الأطرف رواية أخرى فى ذكر الطعام الذى كان يحبه رسول الله (ص) بما رواه عن أبيه على (ع) قال: «كان أحب الشاة إلى النبى (ص) الذراع» (۳).

ن- أهل بيته وذريته:

كان لأخبار سيدتنا الزهراء (س) وفضائلها حيزاً فى روايات عمر الأطرف، إذ قال: «تزوج على فاطمة فى رجب سنة مقدمهم المدينة، وبنى بها مرجعه من بدر، ولها يومئذ ثمان عشرة سنة» (۴)، وهذا مما ينسجم مع ما ذكرته أغلب المصادر حول تحديد عمر الزهراء (س)، فى أثناء اقترانها بالإمام على (ع)، وزمان هذه الحادثة (۵).

ونجد فى ثنايا الروايات التى أسندها المحدثون إلى الأطرف فى فضائل الزهراء (س) ما سمعه من أبيه على (ع)، إن رسول الله (ص) قال: «إذا كان يوم القيامة، حملت على البراق، وحملت فاطمة على ناقة العضباء، وحمل بلال على ناقة من نوق الجنة، وهو يقول: الله أكبر إلى آخر الأذان، يسمع الخلائق» (۶).

وجاءت رواية أخرى من طريق عمر أيضاً يحدث فيها عن علة تسمية الزهراء (س).

وحفلت رواياته أيضاً بالإشارة إلى أخبار مارية القبطية زوجة الرسول (ص) وولدها إبراهيم، وذلك بإيراد حادثتين منفصلتين: تمثلت الأولى بسماع الرسول (ص) كلاماً لبعض المغرضين يتهمون فيه زوجته مارية القبطية فى قريب لها يغشاها ويراودها عن نفسها، فما كان من الرسول (ص) إلا أن أرسل الإمام علياً (ع) إلى هذا الرجل ليطلع على حقيقة هذا الأمر؛ وليتأكد من صدق هذا الكلام بعد أن أخذ فى نفسه (ص) مأخذاً كبيراً، وقال له: «اقتله»، فرد عليه على (ع): «يا رسول الله! إذا بعثتنى أكون كالسكة المحماة أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ قال: الشاهد يرى ما لا يرى الغائب» (۷)، فأخذ على (ع) السيف يضرب به القبطى وهو على نخلة فإذا هو حصور ليس له ذكر فجاء النبى (ص) فأخبره فقال: «إنما شفاء العى السؤال» (۸)، وقد وردت هذه الحادثة فى المصادر الأخرى وبطرق مختلفة، ولكن بتباين يسير فى مضمونها (۹).

أما الحادثة الثانية فهى: وفاة ولدها إبراهيم بن رسول الله (ص)، إذ وردت رواية من بين مجموع الروايات التى رواها عمر الأطرف يصف بها حادثة وفاة إبراهيم بن رسول الله، وفق ما سمعه من أبيه الإمام على (ع) الذى كان شاهد عيان فيها، وذلك فى نص ذكره ابن كثير (۷۷۴ ه-) عارضاً فيه هذه الحادثة مسندة إلى عمر الأطرف، إذ قال: «بعث على بن أبى طالب إلى

۱- ابن سعد، الطبقات ۴۱۲: ۱- ۴۱۳، إبن عساکر، تاریخ دمشق، ۲۴۹: ۳- ۲۵۰.

۲- ابن کثیر، البدایة و النهایة، ۱۶: ۶.

۳- البخاری، التاریخ الکبیر ۳۹۰: ۶.

۴- ابن حجر، الإصابة ۵۵: ۸.

۵- ینظر، ابن سعد، الطبقات ۲۲: ۸، تاریخ خلیفة ۵: ۱.

۶- إبن عساکر، تاریخ دمشق ۴۵۹: ۱۰.

۷- البخاری، التاریخ الکبیر، ۱۷۷: ۱.

۸- أبی عاصم، الآحاد والمثانی، ۴۴۹: ۵.

۹- ینظر، ابن حنبل، المسند، ۸۳: ۱، الشریف المرتضی، الأمالی، ۵۴: ۱- ۵۵، الطبرسی، مجمع البیان، ۲۲۰: ۹، ابن أبی الحدید، شرح نهج البلاغة، ۲۶۲: ۱۰.

ص: ۱۳۹

أمه ماریـة القبطیة، وهی فی مشـربة فحمله علی فی سـفط، وجعله بین یدیه علی الفرس، ثم جاء به إلی رسول الله (ص)، فغسـله وکفنه وخرج به، وخرج الناس معه فـدفنه فی الزقاق الذی یلی دار محمد بن زید، فدخل علی فی قبره حتی سوّی علیه ودفنه، ثم خرج ورش علی قـبره، وأدخـل رسول الله یـده فی قـبره، ... وبکی رسول الله (ص) وبکی المسـلمون حوله حـتی ارتفع الصوت، ثم قـال رسول الله (ص): «تدمع العین ویحزن القلب ولا نقول ما یغضب الرب، وإنا علیک یا إبراهیم لمحزونون» (۱).

ی- أخبار جعفر بن أبی طالب:

کـان لأخبار جعفر بن أبی طالب ۲ مکان فی روایات عمر الأطرف، إذ ذکر حادثة هجرة جعفر إلی الحبشة بصـحبة زوجته أسـماء بنت عمیس، ورجوعه منهـا فی السـنة السابعـة من الهجرة، إذ تزامنت مع فتـح الرسول (ع) لخیبر، وکان لکلتا الحادثتین وقع مؤثر علی نفس الرسول محمـد (ص)، حتی قال: «لا أدری بأیهما أفرح: بفتـح خیبر أم بقدوم جعفر» (۲)، مع العلم أن خبر هـذه الحادثة قد ورد بطرق أخری غیر طریق الأطرف (۳) ولکن الذی یهمنا محل الشاهد فی روایة عمر لهذا الحدیث الذی ینتهی طریقه إلیه.

والحادثـة الأخری فی ذکر اسـتبسال جعفر وشـجاعته فی قتال الروم فی معرکة مؤتة والتی استشـهد فیها، إذ قال: «ضـرب جعفر بن أبی طالب رجل من الروم فقطعه بنصفین، فوقع إحدی نصفیه فی کرم، فوجد فی نصفه ثلاثون أو بضع و ثلاثون جرحاً» (۴).

أخبار المغیبات التی أخبر بها الرسول (ص) وما سیجری فی لاحق الأیام:

حـدّث عمر بأحـادیث عدیـدة عـن الرسـول (ص) بفکرة المهـدی فی سؤال مـن أبیه الإمـام علی (ع) لرسـول الله (ص) مـا نصه: «أمنا المهـدی أم من غیرنـا یـا رسول الله؟ قال: بل منا، بنا یختم الله کما بنا فتـح، وبنا یسـتنقذون من الشـرک، وبنا یؤلف الله بین قلوبهم بعد عداوة بینة، کما بنا ألف بین قلوبهم بعد عداوة الشرک. قال علی: أمؤمنون أم کافرون: فقال: مفتون وکافر» (۵).

وکـذلک یؤکد فی نص آخر: «أن علیاً قال: تکون فتن ثم تکون جماعة علی رأس رجل من أهل بیتی لیس له عند الله خلاق فیقتل أو یموت فیقوم المهدی» (۶)

ویقـدم عمر الأـطرف حـدیثاً آخر عن رسـول الله (ص) من طریق أبیه (ع) فی أخبـار المغیبـات، یصور فیه حـال المؤمن والهوان الـذی یصیبه فی لاحق الأیام، إذ قال (ص): «یأتی علی الناس زمان یکون المؤمن فیه أذل من شاته» (۷).

أبرزت الروایـات السابقـة فی السیرة النبویـة التی رواهـا عمر الأطرف إهتماماً ملحوظاً أیضاً- کمثیلاتها السابقـة فی السـنة النبویـة- فی الأخبار التی شـملت مواقف الإمام علی (ع) فی أحداث عصـر الرسالة ودوره فی مجریاتها، مع العلم أن تلک الروایات لم تشمل جمیع مواقف الإمام علی (ع) فی أحـداث عصـر الرسالة، وربما لم یدوّن الرواة جمیع ما ذکره عمر الأطرف، إذا ما علمنا- کما أوردنا سابقاً- أن هنالـک کتابـاً جمع فیه أبو بکر الجعـابی الروایـات التی قالهـا عمر الأـطرف، وربمـا کان هـذا المجموع قـد حوی علی بعض تلک الحوادث الـتی لم یروهـا المؤرخون والمحـدثون. وهـذا مماشـکل ظـاهرة بـارزة فی طبیعـة ومجموع الروایـات والأحـادیث التی رواها الأطرف، مع الإشارة إلی قلة من حمل الحدیث عن عمر- کما بینا سابقاً- وهذا سوف ینسـحب بلا شک علی کمیة ومجموع الروایات والأحادیث المنقولة عنه.

هذا ما استطعنا جمعه من نصوص عن هذه الشخصیة، ونأمل أن نکون قد وفقنا فی دراستها من حیث مواقفها فی الحیاة والأحداث التی عاصرتها، والروایات والأحادیث التی نقلتها، والله الموفق.

۱- ابن کثیر، البدایة و النهایة ۳۱۱: ۵.

۲- الحاکم النیسابوری، المستدرک ۲۳۰: ۳.

۳- ینظر، ابن هشام، السیرة النبویة ۸۷: ۲، ابن سعد، الطبقات الکبری ۳۵: ۴، ابن حبان، الثقات، ۱۸: ۲.

۴- الحاکم النیسابوری، المستدرک ۲۳۰: ۳.

۵- الطبرانی، المعجم الأوسط ۵۶: ۱- ۵۷.

۶- ابن حماد المروزی، الفتن: ۳۳۵.

۷- إبن عساکر، تاریخ دمشق ۴۱۴: ۵۴.

ص: ۱۴۰

ص: ۱۴۱

ص: ۱۴۲

ص: ۱۴۳

ص: ۱۴۴

ص: ۱۴۵

ص: ۱۴۶

مظهر الحج نموذجا

إن الحجّ إذا ما أداه الحاج المؤمن كما هو مرسوم له من قبل السماء وكما هو الحج الإبراهيمى الصحيح، فلا نستغرب إذا ما استعنت بهذا التشبيه الرائع الوارد فى الاية المباركة: كَأَنَّهُمْ بُنْيانٌ مَرْصُوصٌ.

فأقول: إنه يمكن أن يستفاد منه فى وصف المؤمنين وهم فى مواقف الحج وساحته بما يحملونه من قيم السماء بأن يكونوا كما هم فى ميادين جهادهم لأعدائهم، وكما ينبغى أن يكونوا فى ساحات القتال، بنيان مرصوص بنيان متين بقيمه ومبادئه، أن يكونوا- هكذا- صافين أنفسهم متضامنين متكافلين متماسكين محكمين فى أخلاقهم ومواقفهم وآرائهم وأهدافهم، كأنهم قطعة واحدة فقط لا اثنتين أو أكثر، لا فرجة فيها تخترق، ولا ثغرة فيها تستغل من قبل الآخرين أو تعطى صورة سيئة لهذا المشهد وهو يعيش معناه العبادى الواسع ..

إنه بنيان أخلاقى دقيق نظيف لأمناء منهج السماء فى الأرض ينأى هذا البنيان المبارك بنفسه عن عصبيات عديدة عصبية اللون وعصبية الجنس وعصبية القبيلة والعشيرة والنسب وعصبية المال والجاه .. ويعد هذا حلقة من حلقات التربية الصالحة السليمة للحجاج وهم يمثلون أمتهم الأوسع والأكبر فى كل مواسم الحج، ففريضة الحج تجربتهم التى من خلالها يمارسون عملياً ذلك البنيان ويتدربون عليه، والحج كما نعلم دورة تدريبية لكل معانى الدين ومفاهيم الحياة ...

لعلّى أكون موفقاً فى اختيارى واقتباسى عنواناً من الآية الكريمة الرابعة من سورة الصف- التى سميت السورة بالصف انطلاقاً من الآية المذكورة وتأكيداً على أهمية الصف المتماسك- لوصف ماهو مطلوب ويهدف إليه من قبل مناسك الحج ذات المظاهر الوحدوية العديدة وهى ما أكثرها وأعظمها مظاهر الوحدة فى موسم الحج، وهى تتجلى فى كل مواقيته ومناسكه وأنشطته ...

فإضافة إلى أن موسم الحج بحد ذاته أيامه رائعة جميلة وملتقى تعارفى جليل نافع، فهو يبنى هيبة له فى النفوس وجلالة له فى القلوب ويشكل مسيرة نادرة قلّ مثيلها بل انعدم، ويترك مظهراً رائعاً للحجيج وهم يقفون تلك المواقف المهيبة وقد اتحدوا مكاناً وزماناً ولباساً، وهم يتحركون جميعاً من ميقات إلى آخر ومن منسك إلى آخر، ومن منزل إلى آخر، ومن أثر إلى آخر، فالمشاعر والمواضع كلها هدف لوحدة المشاعر وهدف للتوحيد. وقبل أن نستعرض ما فى هذا الموسم وهذه الفريضة مما يتيسر لنا من مظاهر وعوامل توحيد الصف لا بد من كلمة أضيفها إلى ما ذكرت:

إن مما لاريب فيه أن الاجتماع والاتفاق توحيد للصف وسبيل إلى القوة والبقاء، وأن التفرق والاختلاف تمزيق للصف وطريق إلى الضعف والانهزام، و لا خلاف فى أنه ما ارتفعت أمة من الأمم وعلت رايتها إلا بتوحيد صفوفها وتوحيد جهودها والتعاون والتلاحم بين أفرادها ..

وهنا نحاول أن نلقى أضواءً على فريضة الحج، وهى- وكما نراها- خير دليل على وحدة الصف المؤمن، الذى يظهر لنا وهو يؤدى مناسك الحج المتعددة وكأنه فعلًا بنيان مرصوص، لا تجد فيه خللًا ولا شائبةً ولا نقصاً، ما أروعه من كيان متماسك متين، وما أجله من جمع هائل تباركه العقول، وتهابه النفوس، وتهتز له المشاعر والعواطف فخراً واعتزازاً.

تعال معى أخى المؤمن، حتى نرى ما يحمله الحج من معان جميلة استحق معها أن يحتل المكانة الأكبر والمنزلة الأعظم دينياً وأمنياً واجتماعياً وسياسياً واقتصادياً ليؤسس رصانة فى المواقف، وثباتاً فى المبادئ، وعظمة فى المظاهر الموحدة.

فالحج بداية نموذجاً يعد مبدأ عظيماً يدور حول إطاعة الله سبحانه وتعالى والرسول (ص)؛ لأن هذه الطاعة هى أساس كل خير للأمة وبداية كل خير وأول الخير هو وحدتها. والآيات القرآنية و السنة النبوية الشريفة تدعو إلى تلك الطاعة وتحذر هذه

ص: ۱۴۷

النصوص من الاختلاف والتنازع، لأن هذه الأمراض إن وقعت تنخر كيان الأمة وتجعله هشيماً متفتتاً، قال تعالى: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (۱)

وفى صحيح مسلم عن أبى مسعود ۲ أنه قال: كان رسول الله (ص) يمسح مناكبنا فى الصلاة، ويقول: استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم.

والحج يشكل فى كل عام موسماً عبادياً عظيماً، تتجسد فيه تلك الطاعة لله سبحانه وتعالى ورسوله (ص) عبادة وأخلاقاً وسيرة، وتنبثق بسببها وحدة المسلمين وقوتهم فى أحسن مظاهرها وأبهى حللها، حيث تذوب الفوارق، وتتلاشى الحواجز، ويجتمع المسلمون فى مشهد رائع أخّاذ، يبعث على السرور، ويسعد النفوس، ويبهج الأرواح والقلوب.

والحج كما صرح القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة، إلى جانب كونه عبادة وتقرباً إلى الله سبحانه، وإلى كون العبادة ظاهرة واضحة تحيط أجواءه وساحاته ومعالمه، فإنه لا يلغى ولا يقلل ما يتضمنه من منافع اجتماعية وفوائد ثقافية، واقتصادية وسياسية، وتربوية، تساهم فى بناء المجتمع الإسلامى، وتزيد فى وعيه وتوجيهه، وتساهم فى حل مشاكله، وتنشيط مسيرته .. بل على العكس يوجدها وينميها ويدعو إليها ويحث عليها ..

والحج يذكرنا بمن سار على تلك البطاح المباركة من أنبياء الله تعالى ورسله صلوات الله تعالى عليهم، ويذكرنا بعباده الصالحين وبالشهداء؛ ويتذكر الصحابة الغر المنتجبين رضى الله عنهم، وما لاقوه من البلاء فى سبيل نشر هذا الدين الحنيف.

فيشعر كل منا بأنه امتداد لتلك السلسلة المباركة، وذلك الركب الميمون.

ويتذكر أن هذا البيت الذى يطوف حوله والمسعى الذى يسعى فيه والمعالم الأخرى ما كانت لتصل إليه لولا إرادة الله عز وجل وجهود الأنبياء والأئمة والشهداء والصالحين ..

والحج موسماً وفريضة هو ذلك النموذج الفذ والذى يعد مظهر وحدة المسلمين وقوتهم، فهم يشهدون فى موسم الحج أروع مظاهر المساواة والتواضع والأخوة الإنسانية، عبر إلغاء كل ما من شأنه التمييز والطبقية والتعالى، وعبر خلع أسباب الظهور الاجتماعى كالأزياء مثلًا، ثم الظهور باللباس العبادى الموحد، حيث يحس الجميع أنهم بلا فوارق، وبالتالى يحسّون بوحدتهم وبالأخوة والمساواة ..

والحج تظاهرة إيمانية رائعة تشترك فيها صنوف متعددة من الأجناس والفئات والطبقات والقوميات على موعد واحد، وفى أرض واحدة، يرددون هتافاً واحداً، ويمارسون شعاراً واحداً، ويتجهون لغاية واحدة، وهى الإعلان عن العبودية والولاء لله وحده، والتحرر من كل آثار الشرك والجاهلية، بطريقة جماعية حركية، تؤثر فى النفس، وتشبع المشاعر والأحاسيس بالإيمان وآثاره، وبمداليل التوحيد وثمارها ..

والحج يستشعر فيه المسلمون وحدة البشر ووحدة الأرض، فتنهار بينهم الحدود التى صنعتها الأنانيات والأطماع الإقليمية والقومية والعنصرية. فهم يأتون من كل فج عميق من كل طريق بعيد ومكان ناء، يقطعون آلاف الأميال، ويخترقون كل الحواجز والحدود والبحار والمحيطات، ويجتازون كل الموانع التى صنعها الأعداء على أرض الله سبحانه وتعالى، استجابة لنداء العقيدة وتلبية لهتاف الإيمان وتلبية لدعوة شيخ الأنبياء إبراهيم (ع) الحية الباقية الخالدة ..

والحج يلتقى فيه المسلمون بمؤتمرهم الكبير، فيتذاكرون فى شؤونهم، ويتشاورون فى أمور حياتهم وعقيدتهم، ويتبادلون الخبرات والتجارب والآراء والعادات الحسنة. ويتعرف بعضهم على مشاكل بعض، ويطلع بعضهم على رأى بعض، ويتعرف بعضهم على أخبار بعضهم الآخر، فيزداد الوعى، وتنمو المعرفة، وتشحذ الهمم من أجل الإصلاح والتغيير والاهتمام

۱- الأنفال: ۴۶.

ص: ۱۴۸

بشؤون الأمة والعقيدة، فتخطط المشاريع، ويفكر فى الأعمال، وتؤسس المراكز الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية، ويستعين بعضهم ببعض، وكأنهم جسد واحد، وروح واحدة، وكيان واحد ..

فللحج إذن وقت محدد ومكان معين ومناسك وإن تعددت فهى واحدة، وزى موحد ونداء واحد، يجتمع فيه المسلمون ليؤدوا فيه مناسكهم، وقد تحدث عن هذا القرآ ن الكريم:

أَلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِى الْحَجِّ (۱)

جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْىَ وَالْقَلَائِدَ

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ

هكذا إذن حددت الآيات زمناً وعينت مكاناً لهذه الفريضة المباركة وهما يشكلان وغيرهما مظهراً مهماً من مظاهر الوحدة، فتوحيد الزمن والموضع من توحيد الهدف. كما أن الكل مطالب بأداء مناسك الحج من أماكن محددة بدءاً بالإحرام من المواقيت المعروفة من غير تجاوز، والطواف بالبيت المحدد دون غيره، والسعى بين الصفا والمروة، والوقوف بعرفة، ثم المزدلفة والمبيت بمنى ليلتين أو ثلاثاً لأداء أعمالها من الذبح والحلق أو التقصير ورمى الجمار ...

لا فقط إذن الظرف الزمنى محدد والظرف المكانى معين والمواقيت، بل حتى المناسك والأنشطة التى يكلف بها الحجاج هى الأخرى محددة، فكلهم يقومون بنفس الأعمال مما يجسد ويعمق المساواة بينهم تمهيداً لبناء الأخوة والمحبة، ويجعل الوحدة بينهم متجددة فى كل ساعة وفى كل مكان وفى كل عمل يقومون به ويؤدونه، وتعيش معهم فى كل خطوة يخطونها وفى كل ساعة يقضونها .. وبالتالى جميع هذا يعد دليلًا على الترغيب الملحّ والتشجيع فى توحيد الصفوف وتحقيق ما فى الوحدة من قوة وصلابة ..

الحج كما هو واضح من وظائفه ومهامه وأهدافه، يفسح المجال ويعطى الفرصة ويهيؤها للمسلمين لمواساة بعضهم بعضاً من خلال لقاءاتهم المتكررة، وتقارب آمالهم وآلامهم، وهذا مقوم مهم لقوتهم ووحدتهم .. و هذا أيضاً من مظاهر هذه الفريضة المباركة ..

الحج يعد موسماً كبيراً واعياً رائداً واعداً لاجتماع العلماء والمفكرين والدعاة إلى الله والمصلحين، وهم أهل الذكر والفكر وهم القادرون على التشاور بينهم، لأنهم الأجدر فى البحث بشأن هموم الدين ومشاكل الأمة والعمل على إيجاد حلول لها و جمع شملها، والبحث فى الوسائل والأساليب المعينة على ذلك ..

والحج موسم لاجتماع الأغنياء بالفقراء، والعمل على مواساتهم، والتعرف على آلامهم وحاجاتهم ثم التخفيف عنهم، مما يجسد مبدأ التضامن والتلاحم بين أفراد هذه الأمة المرحومة ...

الحج تواجد واعد فى تلك البقاع المباركة لأيام وإن كانت قليلة، ويعد اختباراً لآمال الأمة وإرادتها، وبوتقةً لأنشطتها ولما يشغل بالها، حيث يتطلعون جميعاً إلى عهد زاهر تتظافر فيه جهودهم، ليشكلوا وحدة شاملة، ترفعهم فوق الأمم، وتعيد لهم تلك الريادة والسيادة التى ضاعت من أيديهم بسبب الفرقة والنزاع، ويتم الله تعالى وعده لهذه الأمة بالاستخلاف الموعود .. والله غالب على أمره، وهو يتولى الصالحين.

يقول سبحانه وتعالى فى محكم كتابه العزيز: وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِى لا يُشْرِكُونَ بِى شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون (۲)

انطلاقاً من بركات هذا البيت الأول والمعمور ومن هداه ومن خصائصه و آياته البينات الأخرى:

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- سورة النور: ۵۵

ص: ۱۴۹

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًی لِّلْعَالَمِينَ* فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا.

والحج تتحقق فيه وحدة العبادة ووحدة الأخوة الإسلامية بكل معانيها، ومظاهر هذا واضحة جلية: فالرب واحد، والقبلة واحدة، والمشاعر واحدة، واللباس واحد، والمناسك واحدة، والزمان واحد، والمكان واحد، كل شيء يتسم بالوحدة ويؤشر عليه. فكل هذه المظاهر تجتمع فی الحج، وهی مدعاة للإحساس بوحدة الشعور، وموجبة للتآخی، والتعارف، والتعاون علی مصالح الدين والدنيا، كيف لا يكون كذلك والكعبة هی الجامعة وهی عنوان التوحيد، عنوان الدين، عنوان الإسلام، وهی كما جاء فی صحيح أبی بصير، عن أبی عبدالله (ع) أنه قال:

لا يزال الدين قائماً ما قامت الكعبة.

فالكعبة تمثل العنوان الخارجی للإسلام، فما دامت الكعبة المشرفة قائمة يؤمها المسلمون فی جموع كبيرة فی حجهم ويطوفون بها ويعظمونها ويتوجهون إليها فی عبادتهم، فالدين قائم.

كما أن الكعبة أول مظاهر الوحدة، فهی إضافة إلی أنها قبلة المسلمين التی يتوجه إليها فی كل يوم خمس مرات أكثر من مليار مسلم، تلخص عنوان دعوة الرسل إلی توحيد الله، ووحدة المسلمين أی كلمة التوحيد ووحدة الكلمة ووحدة الموقف، وحتی تظهر هذه المشابهة بين الكعبة المشرفة ودعوة الرسل هو أن الكعبة كانت ولا تزال أهم العوامل لقيام الناس فی توحيد الله وتعظيمه وعبادته ..

ففی الحج يجتمع المسلمون من أقطار الأرض حول الكعبة، حول البيت العتيق، الذی يتجهون إليه كما قلنا كل يوم خمس مرات، بل فی كل فرض ومستحب ودعاء، البيت الذی يقصدونه بقلوبهم وأفئدتهم من خلال صلواتهم وهم فی بلادهم الشاسعة البعيدة، هم الآن يجتمعون حوله ويری بعضهم بعضاً، يتصافحون، ويتشاورون، ويتحابون، خلعوا تلك الملابس المختلفة والمتباينة من علی أجسادهم، ووحدوا لباسهم، ليجتمع بياض الثياب مع بياض القلوب، فهو صفاء فی صفاء، صفاء فی ظواهرهم وصفاء فی بواطنهم ..

ولابد من الإشارة إلی أن هذه الفريضة فيها من المعانی الروحية التی لاتعطيها أو لا تتأتی لعبادة أخری- وهی أيضاً من أسمی مظاهر هذه الفريضة- وأن تقديس تلك الأماكن المعظمة والاهتمام بها والتواجد فيها والاستزادة من معانيها ومضامينها له الأثر البالغ فی تربية الحجاج وتطهيرهم وتوعيتهم .. وعلی رأس تلك الأماكن الشريفة الكعبة المعظمة زادها الله شرفاً؛ فهی أول بيوت العبادة التی وضعها الله لعبادته:

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِی بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًی لِّلْعَالَمِينَ (۱).

بعد أن بوأه الله تعالی لنبيه وخليله إبراهيم (ع):

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِی شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِیَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۲)

والله تعالی هو ربه:

(فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هذَا الْبَيْتِ الَّذِی أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) (۳)

وهوصاحب هذا البيت دون غيره، وهی أی الكعبة أصل الأرض، كما فی رواية عن أهل البيت (عليهم السلام):

إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَيْتٍ وَضَعَهُ اللهُ عَلَی وَجْهِ الْأَرْضِ إِلَّا لَهُ رَبٌّ وَ سُكَّانٌ يَسْكُنُونَهُ، غَيْرَ هَذَا الْبَيْتِ، فَإِنَّهُ لَا رَبَّ لَهُ إِلَّا اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ، وَ هُوَ الْحُرُّ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَلَّ خَلَقَهُ قَبْلَ الْأَرْضِ، ثُمَّ خَلَقَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِ، فَدَحَاهَا مِنْ تَحْتِهِ.

عَنْ أَبَانِ بْنِ عُثْمَانَ عَمَّنْ أَخْبَرَهُ عَنْ أَبِی جَعْفَرٍ (ع) قَالَ: قُلْتُ لَهُ: لِمَ سُمِّیَ الْبَيْتُ الْعَتِيقَ؟ قَالَ: هُوَ بَيْتٌ حُرٌّ عَتِيقٌ مِنَ النَّاسِ لَمْ يَمْلِكْهُ أَحَدٌ.

۱- سورة آل عمران: ۹۶.

۲- الحج: ۲۶.

۳- قريش: ۳- ۴.

ص: ۱۵۰

وقد راحت الأحاديث المباركة تبين أهمية الكعبة المشرفة، وأنها أحب البقاع إليه تعالى، وراحت تربط الناس بالكعبة وتشدهم إليها عن طريق بيان ما للإنسان المرتبط بها بأى نوع من الارتباط سواء فى الطواف أم فى غيره من الثواب العظيم، وقوة دافعة لثبات الموقف وتوحيد الصفوف. كما راحت هذه الروايات وغيرها عن أهل البيت (عليهم السلام) تؤكد بكل وضوح أن الترابط بينهم وبينها وثيق ولا يمكن الفصل بينهما.

عَنْ زُرَارَةَ قَالَ: كُنْتُ قَاعِداً إِلَى جَنْبِ أَبِی جَعْفَرٍ (ع) وَ هُوَ مُحْتَبٍ مُسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةِ فَقَالَ: أَمَا إِنَّ النَّظَرَ إِلَيْهَا عِبَادَةٌ فَجَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بجيلَةَ يُقَالُ لَهُ: عَاصِمُ بْنُ عُمَرَ فَقَالَ لِأَبِی جَعْفَرٍ علیه السلام: إِنَّ كَعْبَ الْأَحْبَارِ كَانَ يَقُولُ: إِنَّ الْكَعْبَةَ تَسْجُدُ لِبَيْتِ الْمَقْدِسِ فِی كُلِّ غَدَاةٍ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (ع): فَمَا تَقُولُ فِيمَا قَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ.

فَقَالَ: صَدَقَ الْقَوْلُ مَا قَالَ كَعْبٌ.

فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ (ع): كَذَبْتَ وَ كَذَبَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ مَعَكَ. وَ غَضِبَ علیه السلام. قَالَ زُرَارَةُ: مَا رَأَيْتُهُ اسْتَقْبَلَ أَحَداً بِقَوْلٍ كَذَبْتَ غَيْرَهُ.

قَالَ: مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ بُقْعَةً فِی الْأَرْضِ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْهَا، ثُمَّ أَوْمَأَ بِيَدِهِ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، وَ لَا أَكْرَمَ عَلَى اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ مِنْهَا، لَهَا حَرَّمَ اللهُ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فِی كِتَابِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ ثَلَاثَةٌ مُتَوَالِيَةٌ لِلْحَجِّ شَوَّالٌ وَ ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ وَ شَهْرٌ مُفْرَدٌ لِلْعُمْرَةِ رَجَبٌ.»

فی الصحيح عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ الْأَعْرَجِ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ:

«أَحَبُّ الْأَرْضِ إِلَى اللهِ تَعَالَى مَكَّةُ، وَ مَا تُرْبَةٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ مِنْ تُرْبَتِهَا، وَ لَا حَجَرٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ حَجَرِهَا، وَ لَا شَجَرٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ شَجَرِهَا، وَ لَا جِبَالٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ جِبَالِهَا، وَ لَا مَاءٌ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ مَائِهَا».

وفی النظر إليها جاء فی الصحيح عَنْ حَرِيزٍ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرُ إِلَى الْإِمَامِ عِبَادَةٌ وَ قَالَ: «مَنْ نَظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ وَ مُحِيَتْ عَنْهُ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ.»

وَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ مُسْلِمٍ عَنْ جَعْفَرٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِیِّ (ص) قَالَ: «النَّظَرُ إِلَى الْكَعْبَةِ حُبّاً لَهَا يَهْدِمُ الْخَطَايَا هَدْماً.»

ورُوِیَ أَنَّ «النَّظَرَ إِلَى الْكَعْبَةِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرَ إِلَى الْوَالِدَيْنِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرَ إِلَى الْمُصْحَفِ مِنْ غَيْرِ قِرَاءَةٍ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرَ إِلَى وَجْهِ الْعَالِمِ عِبَادَةٌ وَ النَّظَرَ إِلَى آلِ مُحَمَّدٍ علیهم السلام عِبَادَةٌ».

وجاء فی الصحيح عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ:

«إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى جَعَلَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ عِشْرِينَ وَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، مِنْهَا سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ وَ أَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَ عِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ».

وعن الْحَسَنِ بْنِ رَاشِدٍ عَنْ أَبِی عَبْدِاللهِ (ع) قَالَ: قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (ع):

«إِذَا خَرَجْتُمْ حُجَّاجاً إِلَى بَيْتِ اللهِ فَأَكْثِرُوا النَّظَرَ إِلَى بَيْتِ اللهِ، فَإِنَّ لِلهِ مِائَةَ وَ عِشْرِينَ رَحْمَةً عِنْدَ بَيْتِهِ الْحَرَامِ سِتُّونَ لِلطَّائِفِينَ وَ أَرْبَعُونَ لِلْمُصَلِّينَ وَ عِشْرُونَ لِلنَّاظِرِينَ.

فَعَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ الْخَزَّازِ عَنْ أَبِی عَبْدِاللهِ (ع) قَالَ:

«إِنَّ لِلْكَعْبَةِ لَلَحْظَةً فِی كُلِّ يَوْمٍ يُغْفَرُ لِمَنْ طَافَ بِهَا أَوْ حَنَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا أَوْ حَبَسَهُ عَنْهَا عُذْرٌ».

وفی الترابط بينها وبين أهل البيت (عليهم السلام) ولما لهذا الترابط والصلة من جذب للناس نحوها من أهمية ووقع على النفوس وما يستحقه من الثواب.

ص: ۱۵۱

جاء فی الخبر عَنْ عَلِیِّ بْنِ عَبْدِ الْعَزِیزِ عَنْ أَبِی عَبْدِ اللهِ (ع) قَالَ:

«مَنْ نَظَرَ إِلَی الْکَعْبَهِ بِمَعْرِفَهٍ فَعَرَفَ مِنْ حَقِّنَا وَ حُرْمَتِنَا مِثْلَ الَّذِی عَرَفَ مِنْ حَقِّهَا وَ حُرْمَتِهَا، غَفَرَ اللهُ لَهُ ذُنُوبَهُ وَ کَفَاهُ هَمَّ الدُّنْیَا وَ الْآخِرَهِ».

هذا وإن للحج أسراراً بدیعهٔ، وحکماً متنوعهٔ، وبرکاتٍ متعددهٔ، ومنافع مشهودهٔ، سواء علی مستوی الأفراد أم علی مستوی الأمهٔ، قال الله تبارک وتعالی فی محکم التنزیل: وَأَذِّن فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجَالًا وَعَلَی کُلِّ ضَامِرٍ یَأْتِینَ مِن کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ (۱)

الحج میدان فسیح یتدرب فیه الحاج عملیاً علی اکتساب الأخلاق الجمیلهٔ والآداب الحمیدهٔ، علی الحلم، والصبر، والمداراهٔ، وکظم الغیظ من جراء ما یلقی من الزحام، والتعب، والنصب سواء فی الطریق إلی الحج، أم فی الطواف، أم فی السعی، أم فی رمی الجمار، أم غیرها من المناسک؛ فیتحمل الحاج ما یلقاه من ذلک؛ لعلمه بأن الحج أیام معدودهٔ، ولخوفه من فساد حجه إذا هو أطلق لنفسه نوازع الشر، ولإدراکه بأن الحجاج ضیوف الرحمن؛ فإکرامهم، والصبر علی ما یصدر من بعضهم، دلیل علی إجلال الله عز وجل.

فإذا تحمل الحاج تلک المشاق فی أیام الحج صار ذلک دافعاً لأن یتخلق بالأخلاق الجمیلهٔ بقیهٔ عمره.

والحج یذکّر أصحابه ومریدیه بالآخرهٔ؛ فازدحام الناس وهم یموج بعضهم فی بعض، وهم فی صعید واحد، وبلباس واحد، وقد حسروا عن رؤوسهم، وتجردوا من ثیابهم، ولبسوا الأردیهٔ والأزر، وتجردوا من ملذات الدنیا، ومتعها، تذکر یوم حشرهم علی ربه؛ فیبعثهم ذلک إلی الاستعداد للآخرهٔ، ویقودهم إلی استصغار متاع الحیاهٔ الدنیا، ویرفعهم عن الاستغراق فیها، ویکبر بِهِمتهم ویترکوا کل ما یدعو الی السوء والبغضاء وحب الأنا. فیقترب کل واحد منهم من محبهٔ إخوانه الآخرین ویستغرق بعضهم فی مودهٔ بعضهم الآخر، ویتم الاطلاع علی مشاکلهم وحاجیاتهم، وهذا مدعاهٔ لحب الوحدهٔ وتقویهٔ الصف المسلم والساحهٔ المؤمنهٔ ..

والحج یعد تجمعاً بشریاً ضخماً، یستقطب الملایین من المسلمین، من مختلف الأقطار والأمصار، فهو ینتج حرکهٔ بشریهٔ هائلهٔ، یتبعها تحرک اقتصادی ومالی ضخم، عن طریق النقل، والاستهلاک، وحمل البضائع وتبادل النقود، وشراء الأضاحی والحاجیات ومستلزمات الحج والإقامهٔ والسفر والتنقل، فینتفع العدید من المسلمین بذلک، ویشهد مجتمعهم حرکهٔ اقتصادیهٔ وتجاریهٔ ومالیهٔ نشطهٔ یکون هذا سبباً فی تعارفهم و تآلفهم وتعاونهم.

الحج مدرسهٔ یتعلم فیها الحاج، یتعلم الکرم، والبذل، والإیثار، والبر، والرحمهٔ، وذلک من خلال ما یراه من المواقف النبیلهٔ الرائعهٔ التی تجسد هذه المعانی؛ فهذا سخی یجود بالإنفاق علی المساکین، وذاک کریم بخلقه یعفو عمن أساء إلیه، وأخطأ فی حقه، وذاک رحیم یعطف علی المساکین ویتلطف بهم، وذاک حلیم یصبر علی ما یلقاه من أذی، وذاک برّ بوالده یحمله علی عاتقه، وذاک یحوط أمه العجوز بلطفه ورعایته.

بل ویکتسب الإنسان الحاج الأخلاق الجمیلهٔ عند رؤیته من لا یدرکون معنی الحج، وهم الذین یغضبون لأدنی سبب، وتطیش أحلامهم عند أتفه الأمور، کیف یکون اکتسابه؟ بتجنبه ما هم علیه من خلق لا یلیق بآداب وأخلاق هذا الموسم. فإذا رأی العاقل البصیر سوء فعال هؤلاء انبعث إلی ترک الغضب، وتجافی عن مرذول الأخلاق، ونأی عما هم علیه.

إذن، الحج إعداد وتربیهٔ لسلوک الفرد ونوازعه بل هو إعداد وتربیهٔ لسلوک الجماعهٔ ونوازعها، وبالتالی إعداد وتربیهٔ لسلوک الأمهٔ ونوازعها، ففیه تتعود کل هذه المفاصل

۱- الحج: ۲۷- ۲۸.

ص: ۱۵۲

- بدءاً بالفرد الحاج مروراً بالجماعة الحاجة، فالأمة الحاجة- الصبر وتحمل المشاق وحسن الخلق بدءاً باللطف والتواضع واللين وحسن المحادثة مروراً بالكرم والتعاطف والتراحم وانتهاء بالامتناع عن الكذب والغيبة والجدال والخصومة والتكبر وغير ذلك.

والحج دورة ميدانية يتعود الإنسان الحاج فرداً كان أم جماعة أم أمة، الألفة والتعارف عن طريق السفر والاختلاط فتنمو لديه الروح الاجتماعية وتتهذب عنده الملكات الأخلاقية، كل هذا وهو يشارك فى كل الممارسات التربوية، ويساهم فى التفاعل البشرى الرائع، الذى يشهده فى الحج، فى حضره وفى سفره، فى سكنه وإقامته وفى ترحاله، و بأرقى درجات الالتزام والاستقامة السلوكية.

وقد تحدث الإمام جعفر الصادق (ع) عن منافع الحج وفوائده، بإجابته البليغة عن سؤال أحد أصحابه وهو هشام بن الحكم، فقد سأله ما العلة التى من أجلها كلف الله سبحانه وتعالى العباد بالحج والطواف بالبيت؟

فقال (ع): «إن الله خلق الخلق ... وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة فى الدين، ومصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا ولينزع كل قوم من التجارات من بلد إلى بلد، ولينتفع بذلك المكارى والجمال، ولتعرف آثار رسول‌الله (ص) وتعرف أخباره ويذكر ولا ينسى» (۱).

وقول الإمام على بن موسى الرضا (ع) يتطابق مع تعليل الإمام الصادق وتحليله لمنافع الحج وآثاره الاجتماعية التى يجنيها الفرد والمجتمع حين قال: «إنما أمروا بالحج لعلة الوفادة إلى الله عز وجل، وطلب الزيادة، والخروج من كل ما اقترف العبد، تائباً مما مضى، مستأنفاً لما يستقبل، مع ما فيه من إخراج الأموال، وتعب الأبدان، والاشتغال عن الأهل والولد، وحظر النفس عن اللذات، شاخصاً فى الحر والبرد، ثابتاً على ذلك دائماً، مع الخضوع والاستكانة والتذلل، مع ما فى ذلك لجميع الخلق من المنافع، لجميع من فى شرق الأرض وغربها، ومن فى البرّ والبحر ممن يحجّ وممن لم يحجّ، من بين تاجر وجالب وبائع ومشترٍ وكاسب ومسكين ومكار وفقير، وقضاء حوائج أهل الأطراف فى المواضع الممكن لهم الاجتماع فيه، مع ما فيه من التفقه، ونقل أخبار الأئمة (عليهم السلام) إلى كل صقع وناحية، كما قال الله عزّ وجل:

فَلَوْ لا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَ لِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (۲)

لقد شاء الله تعالى أن يكون الحج محراباً للعبادة ... ومدرسة للتربية والتوجيه وموسماً للمنفعة وتحقيق المصالح الاجتماعية. وساحة مباركة لتوحيد الصفوف المؤمنة والأمة المؤمنة بما ذكرناه مما فهمناه وعرفناه وقرأناه عنه .. لتنال بذلك حب الله تعالى ورضاه، ولتحقق ما تصبو إليه من خير عميم وكرامة وعز لا يضام. وهكذا هو الحج وهكذا هى مظاهره، وهكذا هى معانيه ومفاهيمه وأبعاده وآثاره وعطا ءاته: رِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۳)

إنه بحق خير فريضة وأعظم ميدان وأصدق ساحة تطبيقية لمبدأ التعارف الجميل الذى صدعت به الاية الكريمة:

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا. (۴)

۱- وسائل الشيعة ۱۴: ۱۱.

۲- المصدر نفسه ۷: ۸.

۳- التوبة: ۷۲.

۴- الحجرات: ۱۳.

ص: ۱۵۳

قراءة فى آية من آيات الحج

وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ولا تحلقوا رؤوسكم حتى يبلغ الهدى محله فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَام أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّام فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (۱).

توزعت الآيات الخاصة بالحج على سور عديدة كسورة البقرة وآل عمران والمائدة وسورة الحج .. وفى سورة البقرة وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أحكام الصيام، ثم تحدث عن الأهلة وأنها مواقيت للناس والحج، وعطف بذكر الجهاد، فالأشهر الحرم .. شرع فى بيان مناسك الحج بالآيات ۱۹۶- ۲۰۳ فأمر بإتمام الحج والعمرة ..

والآية المذكورة ۱۹۶ هى أول آية نزلت فى خصوص الحج، بمقاطعها التى جاءت فى أفعال الحج .. فيما الآيات الأخرى نزلت فى حجة الوداع آخر حجة حجها رسول الله (ص) وفيها تشريع حج التمتع، حيث إن أول ما يلاحظ فى بناء هذه الآيات جميعاً هو تلك الدقة التعبيرية فى معرض التشريع، وتقسيم الفقرات فى الآية لتستقل كل فقرة ببيان الحكم الذى تستهدفه. ومجيء الاستدراكات على كل حكم قبل الانتقال إلى الحكم التالى .. ثم ربط هذا كله فى النهاية بالتقوى ومخافة الله سبحانه وتعالى .. وما يهمنا فى هذه المقالة هو أن نقف عند المقطع الأول من الآية ۱۹۶ وهو: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ و هذه الآية هى واحدة من آيات الحج التى يستدل ببعضها على وجوبه:

(وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ) (۲).

روى عن ابن عباس: «ومن كفر باعتقاده أنه غير واجب».

وَ أَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالًا وَ عَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ* لِيَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلى ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعامِ فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِيرَ* ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳)

و الفقرة الأولى فى الآية التى نقف عندها تتضمن الأمر بإتمام أعمال الحج والعمرة إطلاقاً متى بدأ الحاج أو المعتمر فأهلّ بحج أو بعمرة أو بهما معاً، أو أنها تتضمن الأمر بابتداء مشروعية الحج والعمرة على الاختلاف فى المراد من الفعل وَ أَتِمُّوا ... كما يأتى.

و إن هذا المقطع من ضمن الآية التى نزلت- كما ذكر المفسرون- فى الحديبية سنة ست للهجرة، حين صدّ المشركون المسلمين عن بيت الله الحرام، وذهب بعضهم إلى أن الحج لم يكن قد فرض بعد حيث إنه فرض فى السنة التاسعة للهجرة على رأيهم بالآية: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعالَمِينَ (۴) ولهذا فهموا أن المقصود من الكلام فى الآية وَأَتِمُّوا ... العمرة وليس الحج، لأن الحج لم يفرض على رأيهم بعد، وإنما ذكر الحج تبشيراً للمؤمنين بأنهم سيتمكنون من الحج فيما بعد، وعدوا هذا من معجزات القرآن. وبالتالى فإن هذه الآية لا تدلنا على تاريخ بداية إقرار فرض الحج فى الإسلام وأنه فى السنة السادسة، وإلا فإن الحج فرض من عهد نبى الله إبراهيم (ع) قبل ألفى سنة قبل الميلاد تزيد أو تنقص قليلًا فهو الذى شرعه بأمر الله تعالى، وجاء الإسلام وأقرّ فريضة الحج إلى يوم القيامة وطهر رسول الله (ص) البيت من الأوثان وعبادة الأصنام كما طهربيدى نبى الله إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام) من قبل:

وَ عَهِدْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ أَنْ طَهِّرا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْعاكِفِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۵)

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَ طَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَ الْقائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (۶)

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- سورة آل عمران: ۹۶.

۳- الحج: ۲۷.

۴- آل عمران: ۹۶.

۵- البقرة: ۱۲۵.

۶- الحج: ۲۶.

ص: ۱۵۴

وأزال رسول الله (ص) عن هذه الفريضة المباركة كل ما أصابها من شوائب علقت بها وانحرافات أصابتها بما فعلته أيدى الناس ..

كما أن هذه الآية تعدّ واحدة من آيتين اثنتين تردد رأيهم بينهما فى إثبات تاريخ وجوب الحج فى الإسلام .. مع أن الآية: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ .. نزلت فى السنة السادسة للهجرة، و الآية الثانية ۹۷ من سورة آل عمران المدنية: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا نزلت فى السنة التاسعة للهجرة.

حيث قال جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم آخرون: وإنما وجب علينا فرض الحج بقوله عز وجل: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

ففريضة الحج لم يأت وجوبها فى سورة الحج كما يبدو بل أظهر الأقوال أنه قد جاء فى قوله تعالى: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

وتاريخ فرض الحج فيه اختلاف كما قلنا، بل حتى الآية ۹۷ من سورة آل‌عمران التى قالوا: إنها تحمل تاريخ الفريضة اختلفوا فى تاريخ نزولها وتبعاً لذلك يختلف تاريخ الفريضة، وقد فصل القول فى ذلك ابن عاشور فى التحرير والتنوير حيث قال:

ويتجه أن تكون هذه الآية هى التى فرض بها الحج على المسلمين، وقد استدل بها علماؤنا على فريضة الحج، فما كان يقع من حج النبى (ص) والمسلمين قبل نزولها، فإنما كان تقرباً إلى الله، واستصحاباً للحنفية. وقد ثبت أن النبى (ص) حج مرتين بمكة قبل الهجرة ووقف مع الناس، فأما إيجاب الحج فى الشريعة الإسلامية فلا دليل على وقوعه إلا هذه الآية، وقد تمالأ علماء الإسلام على الاستدلال بها على وجوب الحج، فلا يعد ما وقع من الحج قبل نزولها وبعد البعثة إلا تحنثاً وتقرباً، وقد صح أنها نزلت سنة ثلاث من الهجرة، عقب غزوة أحد، فيكون الحج فرض يومئذ.

وذكر القرطبى الاختلاف فى وقت فريضة الحج على ثلاثة أقوال‌فقيل: سنة خمس، وقيل: سنة سبع، وقيل: سنة تسع، ولم يعز الأقوال إلى أصحابها، سوى أنه ذكر عن ابن هشام، عن أبى عبيد الواقدى أنه فرض عام الخندق، بعد انصراف الأحزاب، وكان انصرافهم آخر سنة خمس. قال ابن إسحاق: وولى تلك الحجة المشركون. وفى مقدمات ابن رشد ما يقتضى أن الشافعى يقول: إن الحج وجب سنة تسع، وأظهر من هذه الأقوال قول رابع تمالأ عليه الفقهاء وهو أن دليل وجوب الحج قوله تعالى: وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وقد استدل الشافعى بها على أن وجوبه على التراخى، فيكون وجوبه على المسلمين قد تقرر سنة ثلاث، وأصبح المسلمون منذ يومئذ محصرين عن أداء هذه الفريضة إلى أن فتح‌الله مكة ووقعت حجة سنة تسع ..

وفى هذه الآية من صيَغ الوجوب صِيغتان: لام الاستحقاق، وحرف (على) الدال على تقرّر حقّ فى ذمة المجرور بها. وقد تعسّر أو تعذّر قيام المسلمين بأداء الحجّ عقب نزولها، لأنّ المشركين كانوا لا يسمحون لهم بذلك، فلعلّ حكمة إيجاب الحجّ يومئذ أن يكون المسلمون على استعداد لأداء الحجّ مهما تمكّنوا من ذلك، ولتقوم الحجَّة على المشركين بأنّهم يمنعون هذه العبادة، ويصدّون عن المسجد الحرام، ويمنعون مساجد الله أن يذكر فيها اسمه.

إذن ابن عاشور، وكما هو واضح من كلامه، مع القول الذى يذهب إلى أن الحج تقرر فرضه فى الإسلام سنة ثلاث للهجرة النبوية الشريفة بالآية .. وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... والتى نزلت فى السنة الثالثة للهجرة.

فيما ذكر الدكتور الزحيلى صاحب الفقه الإسلامى وأدلته:

ص: ۱۵۵

أن الحج فرض فی أواخر سنة تسع من الهجرة، وأن آیة فرضه هی قوله تعالی: وَلِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَیْهِ سَبِیلًا ....

نزلت عام الوفود أواخر سنة تسع وهو رأی أکثر العلماء، وأنه (ص) لم یؤخر الحج بعد فرضه عاماً واحداً، وإنما أخره (ع) للسنة العاشرة لعذر، وهو نزول الآیة بعد فوات الوقت (۱)، فکان حجه بعد الهجرة حجة واحدة سنة عشر، کما روی أحمد ومسلم.

وقد یصح ما یقال: إن ما ذکره ابن قیم الجوزیة فی کتاب: «زاد المعاد» من أن الحج فرض فی السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة، قد یکون ارتکازنا منه إلی أن الرسول (ص) حج حجة الوداع فی السنة العاشرة؛ وأنه أدی الفریضة عقب فرضها إما فی السنة التاسعة أو العاشرة .. ولکن هذا لا یصلح سنداً. فقد تکون هناک اعتبارات أخری هی التی جعلت الرسول (ص) یؤخر حجّه إلی السنة العاشرة. وبخاصة إذا لاحظنا أنه أرسل أبا بکر أمیراً علی الحج فی السنة التاسعة. وقد ورد أن رسول الله (ص) لما رجع من غزوة تبوک همّ بالحج؛ ولأن المشرکین یحضرون موسم الحج علی عادتهم، وأن بعضهم یطوفون بالبیت عراة، فکره مخالطتهم .. ثم نزلت براءة، فأرسل (ص) علی بن أبی طالب (ع) یبلغ مطلع براءة للناس، وینهی بها عهود المشرکین، ویعلن یوم النحر إذا اجتمع الناس بمنی ":أنه لا یدخل الجنة کافر، ولا یحج بعد العام مشرک، ولا یطوف بالبیت عریان. ومن کان له عهد عند رسول الله (ص) فهو إلی مدته ..."

ومن ثم لم یحج (ص) حتی تطهر البیت من المشرکین ومن العرایا.

نعم، هناک أمور یستأنس بها علی أن فریضة الحج وشعائره قد یکون الإسلام قد أقرها قبل هذا الوقت. مثل أنها کتبت فی مکة قبل الهجرة. ولکن هذا القول قد لا یجد له سنداً قویاً، اللهم إلا أن یؤخذ بالرأی الذاهب إلی أن سورة الحج نزلت فی مکة فهی سورة مکیة وقد ذکرت معظم شعائر الحج، بوصفها الشعائر التی أمر الله إبراهیم بها.

یقول ابن عاشور فی تفسیره:

ووجه تسمیتها سورة الحج أن الله ذکر فیها کیف أمر إبراهیم (ع) بالدعوة إلی حج البیت الحرام، وذکر ما شرع للناس یومئذ من النسک تنویهاً بالحج وما فیه من فضائل ومنافع، وتقریعاً للذین یصدون المؤمنین عن المسجد الحرام وإن کان نزولها قبل أن یفرض الحج علی المسلمین بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآیات التی فی سورة البقرة وفی سورة آل عمران.

إلی أن قال: وقال الجمهور: هذه السورة بعضها مکی وبعضها مدنی وهی مختلطة، أی لا یعرف المکی بعینه، والمدنی بعینه. قال ابن عطیة: وهو الأصح. (۲)

ومع أن شعائر الحج بینت فی سورة الحج:

وَ إِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِیمَ مَکانَ الْبَیْتِ أَنْ لا تُشْرِکْ بِی شَیْئاً وَ طَهِّرْ بَیْتِیَ لِلطَّائِفِینَ وَ الْقائِمِینَ وَ الرُّکَّعِ السُّجُودِ* وَ أَذِّنْ فِی النَّاسِ بِالْحَجِّ یَأْتُوکَ رِجالًا وَ عَلی کُلِّ ضامِرٍ یَأْتِینَ مِنْ کُلِّ فَجٍّ عَمِیقٍ* لِیَشْهَدُوا مَنافِعَ لَهُمْ وَ یَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ فِی أَیَّامٍ مَعْلُوماتٍ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ فَکُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْبائِسَ الْفَقِیرَ* ثُمَّ لْیَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لْیُوفُوا نُذُورَهُمْ وَ لْیَطَّوَّفُوا بِالْبَیْتِ الْعَتِیقِ* ذلِکَ وَ مَنْ یُعَظِّمْ حُرُماتِ اللهِ فَهُوَ خَیْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَ أُحِلَّتْ لَکُمُ الْأَنْعامُ إِلَّا ما یُتْلی عَلَیْکُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ وَ اجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ* حُنَفاءَ لِلهِ غَیْرَ مُشْرِکِینَ بِهِ وَ مَنْ یُشْرِکْ بِاللهِ فَکَأَنَّما خَرَّ مِنَ السَّماءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّیْرُ أَوْ تَهْوِی بِهِ الرِّیحُ فِی مَکانٍ سَحِیقٍ* ذلِکَ وَ مَنْ یُعَظِّمْ شَعائِرَ اللهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَی الْقُلُوبِ* لَکُمْ فِیها مَنافِعُ إِلی أَجَلٍ مُسَمًّی ثُمَّ مَحِلُّها إِلَی الْبَیْتِ الْعَتِیقِ* وَ لِکُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنا مَنْسَکاً لِیَذْکُرُوا اسْمَ اللهِ عَلی ما رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِیمَةِ الْأَنْعامِ فَإِلهُکُمْ إِلهٌ واحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَ بَشِّرِ الْمُخْبِتِینَ* الَّذِینَ إِذا ذُکِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِینَ عَلی ما أَصابَهُمْ وَ الْمُقِیمِی الصَّلاةِ وَ مِمَّا رَزَقْناهُمْ یُنْفِقُونَ* وَ الْبُدْنَ جَعَلْناها لَکُمْ مِنْ شَعائِرِ اللهِ لَکُمْ فِیها

۱- حاشیة ابن عابدین نقلًا عن ابن القیم ۱۹۰: ۲.

۲- تفسير التحرير والتنوير: الآية.

ص: ۱۵۶

خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْها صَوافَّ فَإِذا وَجَبَتْ جُنُوبُها فَكُلُوا مِنْها وَ أَطْعِمُوا الْقانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذلِكَ سَخَّرْناها لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ* لَنْ يَنالَ اللهَ لُحُومُها وَ لا دِماؤُها وَ لكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ كَذلِكَ سَخَّرَها لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ.

فلاحظ أن هذه الآيات بينت الهدى والنحر والطواف والإحلال من الإحرام وذكر اسم الله، وهى شعائر الحج الأساسية. وكان الخطاب موجهاً إلى الأمة المسلمة موصولة بسيرة أبيهم إبراهيم، مما يشير إلى أن الحج قد يكون فرضه فى وقت مبكر أو على الأقل بينت مناسكه أو أحكامه، باعتباره شعيرة إبراهيم الذى إليه ينتسب المسلمون، فإذا كانت قد وجدت عقبات من الصراع بين المسلمين والمشركين- وهم سدنة الكعبة إذ ذاك- جعلت أداء الفريضة متعذراً بعض الوقت، فذلك اعتبار آخر. وقد رجح أن بعض المسلمين كانوا يؤدون الفريضة أفراداً فى وقت مبكر؛ بعد تحويل القبلة فى السنة الثانية من الهجرة ..

ولكن يبقى أن سورة الحج مدنية، وأن تاريخ فرض الحج متردد بين الآيتين ۱۹۶ من سورة البقرة و ۹۷ من سورة آل عمران.

لقد فرض الحج سنة ست أو سنة تسع من الهجرة على اختلاف بينهم، و سنة تسع هى سنة الوفود التى نزلت فيها سورة آل عمران، وفيها قول الله تعالى:

وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا.

كما أن تأريخ الحج يعد واحداً من الأدلة التى ساقوها لإثبات أن الحج واجب على الفورية أو التراخى، فقد ذهب جمهور الفقهاء من الحنفية والمالكية والحنابلة، إلى أن الحج إنما فرض فى السنة التاسعة أو فى أواخر السنة التاسعة، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ.

وعلى هذا قالوا: إن الحج على الفور، والذى منع الحبيب (ع) أن يحج فى السنة التاسعة هو لأجل أن كان فى قريش من يطوف وهو عريان وكان من يطوف وهو مشرك.

فيما ذهب الشافعى إلى أن الحج إنما فرض فى السنة السادسة، قال: لقوله تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ (۱)، قال: إن هذه الآية نزلت مقترنة مع قوله تعالى: فَمَن كَانَ مِنْكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ (۲)، قال: ومن المعلوم أن هذه الآية نزلت فى حق من؟ كعب بن عجرة حينما كان آذاه هوام رأسه، فأمره النبى (ص) أن يفعل الحلق وأن يفتدى، قال الشافعى: وهذا كان فى السنة السادسة وقت الحديبية.

وعلى هذا، فإن فريضة الحج على رأيهم جاءت سنة ست فأخر النبى (ص) الحج إلى سنة عشر من غير عذر فلو لم يجز التأخير لما أخره. وبالتالى فالحج عند هذا الفريق مبنى على التراخى.

هذه خلاصة ما قرأته عنهم. (۳)

بعد هذه المقدمة نعود الى مباحث المقطع الأول من الآية المذكورة:

وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ (۴)

ففى هذا المقطع مباحث قيمة نتعرض لها:

المقطع إعراباً ولغة ومعنى

الواو عاطفة، وأتموا فى مصادر اللغة: من تم بتشديد الميم تماً وتماماً: كمل، وأتم الشىء: أكمله ..

۱- البقرة: ۱۹۶.

۲- البقرة: ۱۹۶.

۳- انظر الفقه الإسلامی وأدلته للزحیلی، والفقه علی المذاهب الأربعة للجزیری، وغیرهما.

۴- البقرة: ۱۹۶

ص: ۱۵۷

وأتموا فعل أمر مبنى على حذف النون، والواو فاعل، والحج مفعول به، والعمرة معطوف على الحج، ولله الجار والمجرور متعلقان بمحذوف حال، أى خالصاً لوجهه، ويصح أن يكون الجار والمجرور فى (لله) متعلقاً بأتموا فتكون اللام هى لام المفعول لأجله، ويجوز أن تتعلق بمحذوف على أنها حال من الحج والعمرة، تقديره: أتموها كائنين لله. وقرأ على وابن مسعود وزيد بن ثابت: «والعمرة»: بالرفع على الابتداء، و «لله» الخبر، على أنها جملة مستأنفة. وإنما قال فى الحج والعمرة: (لله) ولم يقل ذلك فى الصلاة والزكاة، من أجل أنهم كانوا يتقربون ببعض أفعال الحج والعمرة إلى أصنامهم، فخصّهما بالذكر لله تعالى، حثاً على الإخلاص فيهما.

وقد اقتبس الشعراء هذا التعبير الجميل وصرفوه إلى مناحى التغزل فقال ذو الرمة وأبدع:

تمام الحج أن تقف المطايا على خرقاء واضعة اللثام

جعل الوقوف على خرقاء وهى محبوبته من بنى عامر، كبعض مناسك الحج التى لا ندحة عن إتمامها. (۱)

معنى الحج: هو القصد إلى الشىء المعظم. أو هو القصد للزيارة قال الشاعر المُخَبَّلُ السَعدى:

وأشهد من عوف حلولًا كثيرة يحجون سِبَّ الزبرقان المزعفرا

يريد عمامته، وكانت سادة العرب تصبغ عمائمها بالزعفران.

والسِّبُ: العمامة أى يقصدون عمامة الزبرقان المصبوغة بالزعفران. (۲)

وشرعاً: وقوف بعرفة، ليلة عاشر ذى الحجة، وطواف بالبيت سبعاً، وسعى بين الصفا والمروة كذلك، على وجه مخصوص (الدسوقى) وشرعاً: قصد البيت الحرام، للتقرب الى الله تعالى، بأفعال مخصوصة، فى زمان مخصوص، ومكان مخصوص من حج أو عمرة (الحسين الصنعانى) ..

و الحج الأكبر هو الذى يسبقه وقوف بعرفة. وفى القرآن الكريم:

وَ أَذانٌ مِنَ اللهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ (۳)

ويوم الحج الأكبر هو يوم النحر، وقيل: يوم عرفة.

معنى العمرة: بضم العين: الزيارة وقيل: القصد إلى مكان عامر، وسميت بذلك لأنها تفعل فى العمر كله، وكذلك أخذت العمرة من العمارة؛ لأن الزائر للمكان يعمره بزيارته حين تضمه أرضه وسماؤه وأجواؤه، وجمعها عمر بضم العين وفتح الميم، وعمرات بضم العين والميم، وشرعاً: قصد الكعبة للنسك المعروف (الأنصارى).

وهو الحج الأصغر الذى ليس فيه وقوف بعرفة. والمعتمر: الزائر، القاصد للشىء، من يؤدى العمرة.

ولا يغنى عنها الحج وإن اشتمل عليها. (۴)

۱- ما المراد من الفعل وأتموا؟

لهذا الفعل الوارد فى الآية مرادان تدور حولهما- كما يبدو- الروايات وتبعاً لها أقوال العلماء من المذاهب الإسلامية:

الأول: (الإتيان ابتداءاً).

أى وجوب الإتيان بالحج والعمرة ابتداءاً وإن لم يكن شرع فيهما. فالآية على هذا الرأى جاءت إنشاء لفريضة الحج.

الثانى: (الإتمام).

أى وجوب إتمامهما بعد الشروع فيهما. أى لا تدل الآية على وجوبهما أصالة وقبل الشروع فهما ليسا بواجبين ابتداء حسب هذه الآية، ولكن إذا ما بدئ بهما جاء وجوب اتمامهما.

۱- انظر إعراب القرآن الکریم وبیانه لمحیی الدین الدرویش، والدر المصون فی علوم الکتاب المکنون للحلبی: الآیة.

۲- تاج العروس ۳۶: ۳.

۳- التوبة: ۳.

۴- انظر القاموس الفقهی لغة واصطلاحاً ۷۶- ۷۷، ۲۶۲. سعدی أبو جیب. الفقه الإسلامی وأدلته للدکتور وهبة الزحیلی ۹: ۳. ومصادر اللغة.

ص: ۱۵۸

إذن الفرق واضح بين الفهمين: (الابتداء والإتمام) وهذان الفهمان لمراد الآية نقف عند أقوال أصحابهما والأدلة التى ساقها كل منهما على ما ذهب إليه:

فبعد أن بين أن المراد بالحج والعمرة معناهما الشرعى المتعارف عند الفقهاء ولهما أفعال مخصوصة معلومة من كتب الفروع قال: وأتموهما: يعنى ائتوا بهما تامين مستجمعين للشرائط مع جميع المناسك وتأدية كل ما فيهما. كذا فى الكشاف وتفسير القاضى ومجمع البيان، أى المراد الإتيان بهما لا الإتمام بعد الشروع فيهما، ويؤيده قراءة: أقيموا الحج والعمرة.

هذا ما ذكره المحقق الأردبيلى فى كتابه زبدة البيان فى أحكام القرآن وفى تفسيره الآية، وواصل كلامه قائلًا:

وقيل: إتمامهما أن تحرم بهما من دويرة أهلك أو تفرد لكل منهما سفراً أو أن تجرده لهما، ولا تشوبه بغرض دنيوى أو أن يكون النفقة حلالًا.

فيما جاء بالخبر الصحيح أن الإحرام من الميقات من تمام الحج، وفى حسنة عمر بن أذينة قال: كتبت إلى أبى عبد الله (ع) بمسائل بعضها مع ابن بكير وبعضها مع أبى العباس وجاء الجواب بإملائه (ع)، سألت عن قول الله عز وجل: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا قال: «يعنى بهما الحج والعمرة جميعاً لأنهما مفروضان».

وسألت عن قول الله عز وجل: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ.

قال: يعنى بإتمامهما أداءهما واتقاء ما يتقى المحرم فيهما،

وسألت عن قوله تعالى: الْحَجِّ الْأَكْبَرِ ما يعنى بالحج الأكبر؟

فقال: الحج الأكبر الوقوف بعرفة ورمى الجمار. والحج الأصغر العمرة. (۱)

وقال فى مجمع البيان: وقيل معناه أقيموهما إلى آخر ما فيهما، وهو المروى عن أمير المؤمنين وعلى بن الحسين وعن سعيد بن جبير ومسروق والسدى.

ثم يخلص قائلًا:

فعلى هذه التفاسير كلها تدل الآية على وجوب الحج والعمرة ابتداء وإن لم يكن شرع فيهما، والظاهر أنه لا خلاف عندنا فيه، ويدل عليه الأخبار أيضاً وعلى وجوب القربة فى فعلهما، فيفهم وجوب النية فيهما وفى سائر العبادات؛ لعدم القائل بالفصل كما هو مذهبنا، فاندفع بها قول الحنفى بعدم وجوب النية، وعدم وجوب العمرة، وأما دلالتها حينئذ على إتمام الحج المندوب، وإتمام الحج الواجب الفاسد والعمرة كذلك كما قيل، فليست بواضحة إلا بتكلّف، نعم لا يبعد وجوب إتمامهما فى الفاسد بدليل وجوب أصلهما، وأصل عدم سقوط الباقى بالإفساد والأصل بقاؤه.

ثم يقول بعد سرده لكل هذا:

ولكن ظاهر الآية- والقول مازال للمحقق الأردبيلى- مع قطع النظر عن التفاسير التى تقدمت وجوب إتمامهما بعد الشروع، فتفيد وجوب إتمام كل منهما بعد الشروع ندباً أو مع الإفساد، وحينئذ لا تدل على وجوبهما أصالة وقبل الشروع.

من هذا يظهر أن هناك قولين فى المسألة:

الأول: أن الآية تدل على وجوب الحج والعمرة ابتداء وإن لم يشرع فيهما. الثانى: وجوب إتمامهما بعد الشروع.

وإضافة لهذا، فقد بسط المفسرون القول فيما فهموه من مقطع الآية الأول، فقد فهم بعضهم أن الأمر وَأَتِمُّوا أمرٌ بإتمام الحج والعمرة متى بدىء فالعمرة ليست فريضة عند بعضهم، ومع هذا ورد الأمر هنا بإتمامها كالحج. مما يدل على أن المقصود هو الأمر بالإتمام لا إنشاء الفريضة بهذا النص. ويؤخذ من هذا الأمر كذلك أن العمرة- ولو أنها ابتداء ليست واجبة

۱- الکافی ۲۶۴: ۴.

ص: ۱۵۹

– إلا أنه متی أهلّ بها المعتمر فإن اتمامها یصبح واجباً. والعمرة کالحج فی شعائرها ما عدا الوقوف بعرفة. والأشهر أنها تؤدی علی مدار العام. ولیست موقوتة بأشهر معلومات کالحج. فهنا فهمان، ونحن نذکر خلاصة ما صوّبه بعض المفسرین والفقهاء،

فبعد أن اتفقوا علی أن الشروع فی الحج والعمرة یلزم إتمام کل منهما، حتی عند الذین یرون استحباب العمرة لا وجوبها، بمعنی أنه إذا شرع الحاج أو المعتمر فی أعمال أحد النسکین فیتعین علیه إتمامه؛ إلا أن أنظارهم تفاوتت فی المقصود بقوله تعالی: (وَأَتِمُّوا) علی أقوال حاصلها:

القرطبی فی الجامع لأحکام القرآن

اختلف العلماء فی المعنی المراد بإتمام الحج والعمرة لله، فقیل: أداؤهما والإتیان بهما، کقوله: فَأَتَمَّهُنَّ (۱) وقوله: ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّیامَ إِلَی اللَّیْلِ (۲) أی ائتوا بالصیام، وهذا علی مذهب من أوجب العمرة، علی ما یأتی. ومن لم یوجبها قال: المراد تمامهما بعد الشروع فیهما، فإن من أحرم بنسک وجب علیه المضی فیه ولا یفسخه، قال معناه الشعبی وابن زید. وعن علی بن أبی طالب رضی الله عنه: إتمامهما أن تحرم بهما من دویرة أهلک. وروی ذلک عن عمر بن الخطاب وسعد بن أبی وقاص، وفعله عمران بن حصین. وقال سفیان الثوری: إتمامهما أن تخرج قاصداً لهما لا لتجارة ولا لغیر ذلک، ویقوی هذا قوله: «لله» وقال عمر: إتمامهما أن یفرد کل واحد منهما من غیر تمتع وقران، وقاله ابن حبیب. وقال مقاتل: إتمامهما ألا تستحلوا فیهما ما لا ینبغی لکم، وذلک أنهم کانوا یشرکون فی إحرامهم فیقولون: لبیک اللهم لبیک، لا شریک لک إلا شریکاً هو لک، تملکه وما ملک. فقال: فأتموهما ولا تخلطوهما بشیء آخر.

الطوسی فی التبیان

أحدهما: أنه یجب أن یبلغ آخر عمالهما بعد الدخول فیهما وهو قول مجاهد، وأبی العباس المبرد، وأ بی علی الجبائی.

والثانی: قال سعید بن جبیر، وعطاء، والسدی: إن معناه إقامتهما إلی آخر ما فیهما، لأنهما واجبان.

الثالث: قال طاووس: إتمامهما إفرادهما.

الرابع: قال قتادة: الاعتمار فی غیر أشهر الحج.

ثم یقول: وأصحّ الأقوال الأول.

الطبرسی فی مجمع البیان

أی أتموهما بمناسکهما وحدودهما وتأدیة کل ما فیهما عن ابن عباس ومجاهد، وقیل: معناه أقیموهما إلی آخر ما فیهما، وهو المروی عن أمیر المؤمنین وعلی بن الحسین وعن سعید بن جبیر ومسروق والسدی ..

وقد صوَّب الطبری فی "تفسیره "من هذه الأقوال، قول من قال: المراد بالإتمام، إتمام أعمال الحج والعمرة بعد الدخول فیهما، والقیام بهما علی الوجه الذی شرّعا علیه، وهکذا هو ابن کثیر الذی قال:

وظاهر السیاق إکمال أفعالهما بعد الشروع فیهما. ولهذا قال بعده: فإن أحصرتم، أی صددتم عن الوصول إلی البیت ومنعتم من إتمامهما، ولهذا اتفق العلماء علی أن الشروع فی الحج والعمرة ملزم سواء قیل بوجوب العمرة أو باستحبابها ...

۱- البقرة: ۱۲۴.

۲- البقرة: ۱۸۷.

ص: ۱۶۰

الرازی فی التفسیر الکبیر

وهنا ننتقل الی ما یقوله الرازی فی تفسیره للآیة فی التفسیر الکبیر، فله کلام مفصل، فهو یقسم الأمر الوارد فی الآیة: وَأَتِمُّوا قسمین، ویتبنی القسم الأول ویدافع عنه بأدلة قیمة:

القسم الأول: الأمر مطلق.

القسم الثانی: الأمر مشروط بالدخول فیه.

ثم یقول: ذهب أصحابنا إلی أنه مطلق، والمعنی: افعلوا الحج والعمرة علی نعت الکمال والتمام.

والقول الثانی: إن هذا الأمر مشروط، ینسبه إلی أبی حنیفة، والمعنی: أن من شرع فیه فلیتمه. قالوا: ومن الجائز أن لا یکون الدخول فی الشیء واجباً إلا أن بعد الدخول فیه یکون إتمامه واجباً، وفائدة هذا الخلاف أن العمرة واجبة عند أصحابنا، وغیر واجبة عند أبی حنیفة .. ثم یعرض الرازی حجة أصحابه من وجوه. والذی یهمنا منها الوجه الأول، نکتفی به دون ذکر الوجوه الأخری:

الحجة الأولی: قوله تعالی: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ وجه الاستدلال به أن الإتمام یراد به فعل الشیء کاملًا تاماً، ویحتمل أن یراد به إذا شرعتم فی الفعل فأتموه، وإذا ثبت الاحتمال وجب أن یکون المراد من هذا اللفظ هو ذاک، أما بیان الاحتمال فیدل علیه قوله تعالی: وَ إِذِ ابْتَلی إِبْراهِیمَ رَبُّهُ بِکَلِماتٍ فَأَتَمَّهُنَّ أی فعلهن علی سبیل التمام والکمال، وقوله تعالی ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّیامَ إِلَی اللَّیْلِ أی فافعلوا الصیام إلی اللیل، وحمل اللفظ علی هذا أولی من قول من قال: المراد فاشرعوا فی الصیام ثم أتموه، لأن علی هذا التقدیر یحتاج إلی الإضمار، وعلی التقدیرالذی ذکرناه لا یحتاج الیه، فیثبت أن قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ یحتمل أن یکون المراد منه الإتیان به علی نعت الکمال والتمام فوجب حمله علیه، أقصی ما فی الباب أنه یحتمل أیضاً أن یکون المراد منه أنکم إذا شرعتم فیه فأتموه، إلا أن حمل اللفظ علی الوجه الأول أولی، ویدل علیه وجوه:

الأول: أن حمل الآیة علی الوجه الثانی یقتضی أن یکون هذا الأمر مشروطاً، ویکون التقدیر: أتموا الحج والعمرة لله إن شرعتم فیهما، وعلی التأویل الأول الذی نصرناه لا یحتاج إلی إضمار هذا الشرط، فکان ذلک أولی.

الثانی: أن أهل التفسیر ذکروا أن هذه الآیة هی أول آیة نزلت فی الحج. فحملها علی إیجاب الحج أولی من حملها علی الإتمام بشرط الشروع فیه.

الثالث: قرأ بعضهم «وَأَقیمُوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ» وهذا وإن کان قراءة شاذة جاریة مجری خبر الواحد، لکنه بالاتفاق صالح لترجیح تأویل علی تأویل.

الرابع: أن الوجه الذی نصرناه یفید وجوب الحج والعمرة، ویفید وجوب إتمامهما بعد الشروع فیهما، والتأویل الذی ذکرتم لا یفید إلا أصل الوجوب، فکان الذی نصرناه أکبر فائدة، فکان حمل کلام الله علیه أولی.

الخامس: أن الباب باب العبادة فکان الاحتیاط فیه أولی، والقول بإیجاب الحج والعمرة معاً أقرب إلی الاحتیاط، فوجب حمل اللفظ علیه.

السادس: هب أنا نحمل اللفظ علی وجوب الإتمام، لکنا نقول: اللفظ دل علی وجوب الإتمام جزماً، وظاهر الأمر للوجوب، فکان الإتمام واجباً جزماً والإتمام مسبوق بالشروع، وما لا یتم الواجب إلا به وکان مقدوراً للمکلف فهو واجب، فیلزم أن یکون الشروع واجباً فی الحج وفی العمرة.

السابع: روی عن ابن عباس أنه قال: والذی نفسی بیده إنها لقرینتها فی کتاب الله. أی أن العمرة لقرینة الحج فی الأمر بهما فی کتاب الله، یعنی فی هذه الآیة، فکان کقوله: وَ أَقِیمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّکاةَ فهذا تمام تقریر هذه الحجة.

ص: ۱۶۱

روایات مدرسة أهل البیت (علیهم السلام)

لأهل البیت (علیهم السلام) روایات فی خصوص هذه الآیة، منها:

فی تفسیر العیاشی عن أبی جعفر وأبی عبد الله (علیهما السلام) فی قوله تعالی: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ قالا: «فإن تمام الحج أن لا یرفث، ولا یفسق، ولا یجادل».

یبدو أن هذا توضیح لأهم تروک الإحرام لا حصرها بما ذکر.

وفی الکافی: عن الصادق (ع) فی قوله تعالی: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ قال: «یعنی بتمامهما، أداؤهما واتقاء ما یتقی المحرم فیهما»

وفی الکافی عنه (ع) قال: إذا أحرمت فعلیک بتقوی الله، وذکر الله کثیراً، وقلة الکلام إلا بخیر، فإن من تمام الحج والعمرة أن یحفظ المرء لسانه إلا من خیر، کما قال تعالی: فَمَنْ فَرَضَ فِیهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَ لا فُسُوقَ وَ لا جِدالَ فِی الْحَجِّ.

وفی مجمع البیان عن أمیر المؤمنین وعلی بن الحسین (علیهما السلام) ..: «یعنی أقیموهما إلی آخر ما فیهما».

وعن زرارة وحمران ومحمد بن مسلم عن أبی جعفر وأبی عبد الله (علیهما السلام) قالوا: سألناهما عن قوله: وَ أَتِمُّوا الْحَجَّ وَ الْعُمْرَةَ لِلهِ، قالا: فإن تمام الحج أن لا یرفث ولا یفسق ولا یجادل.

وعن الصادق (ع) فی حدیث قال: یعنی بتمامهما أداءهما، واتقاء ما یتقی المحرم فیهما. (۱)

و بعد أن یستظهر ابن کثیر فی تفسیره- کما ذکرنا- أن الآیة تعنی کما هو ظاهر السیاق، إکمال أفعالهما بعد الشروع فیهما؛ ولهذا قال بعده: فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ أی: صُدِدْتم عن الوصول إلی البیت ومنعتم من إتمامهما. ولهذا اتفق العلماء علی أن الشروع فی الحج والعمرة مُلْزِمٌ، سواء قیل بوجوب العمرة أو باستحبابها، کما هما قولان للعلماء ... شرع فی ذکر روایات عن هذا الموضوع ننقل بعضها:

عن عبد الله بن سلمة، قال: جاء رجل إلی علیّ رضوان الله علیه، فقال: أرأیتَ قَول الله عز وجل: وَأَتِمّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ؟ قال: أن تحرم من دُوَیْرة أهلک.

وکذا عن محمد بن سوقة، عن سعید بن جبیر، قال: من تَمام العُمرة أن تحرم من دُوَیرة أهلک.

وکذا قال ابن عباس، وسعید بن جبیر، وطاوس. وعن سفیان الثوری أنه قال فی هذه الآیة: إتمامهما أن تحرم من أهلک، لا ترید إلا الحج والعمرة، وتُهِلّ من المیقات لیس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة، حتی إذا کنت قریباً من مکة قلت: لو حججت أو اعتمرت، وذلک یجزئ، ولکن التمام أن تخرج له، ولا تخرج لغیره.

وقال مکحول: إتمامهما إنشاؤهما جمیعاً من المیقات.

وقال عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر عن الزهری قال: بلغنا أنّ عمر قال فی قول الله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ [قال]: من تمامهما أن تُفْرد کُلَّ واحد منهما من الآخر، وأن تعتمر فی غیر أشهر الحج؛ إن الله تعالی یقول: الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ.

وقال هُشَیْم عن ابن عون قال: سمعت القاسم بن محمد یقول: إن العمرة فی أشهر الحج لیست بتامة فقیل له: العمرة فی المحرم؟ قال: کانوا یرونها تامة. وکذا روی عن قتادة بن دعامة، وهنا یقول ابن کثیر: وهذا القول فیه نظر؛ لأنه قد ثبت أن رسول الله (ص) اعتمر أربع عُمَرٍ کلها فی ذی القعدة: عمرة الحدیبیة فی ذی القعدة سنة ست، وعمرة القضاء فی ذی القعدة سنة سبع، وعمرة الجِعرّانة فی ذی القعدة سنة ثمان، وعمرته التی مع حجته أحرم بهما معاً فی ذی القعدة سنة عشر، ولا اعتمر قَطّ فی غیر ذلک بعد هجرته، ولکن قال لأم هانئ: «عُمْرة فی رمضان تعدل حجة معی». وما ذاک إلا لأنها [کانت] قد

۱- انظر التهذیب والکافی وتفسیر العیاشی.

ص: ۱۶۲

عزمت على الحج معه (ع)، فاعتاقَتْ عن ذلك بسبب الطهر، كما هو مبسوط فى الحديث عند البخارى، ونَصّ سعيد بن جبير على أنه من خصائصها، والله أعلم.

وقال السدى فى قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ أى: أقيموا الحج والعمرة. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ يقول: من أحرم بالحج أو بالعمرة فليس له أن يحل حتى يتمهما، تمام الحج يوم النحر، إذا رمى جمرة العقبة، وطاف بالبيت، وبالصفا، والمروة، فقد حل.

وقال قتادة، عن زُرَارة، عن ابن عباس أنه قال: الحج عرفة، والعمرة الطواف. وكذا روى الأعمش، عن إبراهيم عن علقمة فى قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: هى [فى] قراءة عبد الله: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» لا تُجاوز بالعمرة البيت. قال إبراهيم: فذكرت ذلك لسعيد بن جبير، فقال: كذلك قال ابن عباس.

وقال سفيان عن الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة أنه قال: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت» وكذا روى الثورى أيضاً عن إبراهيم، عن منصور، عن إبراهيم أنه قرأ: «وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت».

وعن ابن عباس: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ يقول: من أحرَم بحجّ أو بعُمْرة فليس له أن يَحلّ حتى يتمهما، تَمامُ الحجّ يوم النَّحر إذا رَمَى جَمرةَ العَقبة وزار البيت فقد حَلّ من إحرامه كُلّه، وتمامُ العمرة إذا طاف بِالبيت وبالصَّفا والمروة، فقد حَلّ. وهذا معناه أن الأمر بالإتمام الذى يحمله الفعل وَأَتِمُّوا مشروط بالدخول فى النسك، وليس مطلقاً. تمامُهما أن تُحرِم بهما مفردين من دُوَيْرة أهلِك.

عن سليمان بن موسى، عن طاوس، قال: تمامُهما إفرادهما مُؤْتَنفتين من أهلك.

عن سليمان بن موسى، عن طاوس: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: تفردهما مؤقتتين من أهلك، فذلك تمامهما.

تمام العمرة أن تعمل فى غير أشهر الحج، وتمامُ الحج أن يُؤتى بمناسكه كلِّها، حتى لا يلزم عَامِلَه دمٌ بسبب قِران ولا متعة.

عن قتادة قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: وتمام العمرة ما كان فى غير أشهر الحج.

ومن كان فى أشهر الحج، ثم أقام حتى يَحُجّ، فهى مُتعة. عليه فيها الهدى إن وُجد، وإلا صَام ثلاثة أيام فى الحج وسبعةً إذا رَجع.

عن قتادة قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: ما كان فى غير أشهر الحج فهى عمرة تامة، وما كان فى أشهر الحج فهى مُتعة وعليه الهدى.

عن ابن عون، قال: سمعت القاسم بن محمد يقول: إنّ العمرة فى أشهر الحج ليست بتامة. قال: فقيل له: العمرة فى المحرَّم؟ قال: كانوا يَرَونها تامَّة.

عن سفيان، قال: هو يعنى تمامهما أن تخرُج من أهلك لا- تريد إلا- الحج والعمرة، وتُهلّ من الميقات. ليس أن تخرُج لتجارةٍ ولا لحاجة، حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت: لو حججت أو اعتمرت. وذلك يجزئ، ولكن التمام أن تخرُج له لا تخرُج لغيره. بل معنى ذلك: أتموا الحجَّ والعمرةَ لله إذا دخلتم فيهما. (۱)

۲ الحج:

هو من شعائر الإسلام بل هو من أركانه الخمسة، شرعه الله تعالى على يدى نبى الله تعالى إبراهيم الخليل (ع)، وأقره الإسلام إلى يوم القيامة، وهو ثلاثة أنواع:

۱- انظر كلًا من ابن كثير وكذا الطبرى فى تفسيرهما الآية، فقد ذكرا العديد من الروايات حول هذه الآية.

ص: ۱۶۳

حج التمتع وهو أفضلها، ثم حج القران، فحج الإفراد، وقد تكفلت كتب الفقه بتفصيل ما يتعلق بهذه الأنواع أو الأقسام من أحكام، ولا نفصّل فيه.

۳- هل العمرة واجبة؟

فبعد أن اتفقوا على وجوب الحج سواء بهذه الآية محل البحث أم بغيرها كما عليه بعضهم، اختلفوا فی العمرة هل هی أيضاً واجبة أو لا؟ هذا ما سنراه:

الروايات:

وقد وردت عن مدرسة أهل البيت (عليهم السلام) العديد من الروايات تبين وجوب العمرة ومنها:

ففی التهذيب وتفسير العياشی عن الإمام الصادق (ع) فی قوله تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قال: هما مفروضان.

وفی العلل عن الصادق (ع): «العمرة واجبة على الخلق بمنزلة الحج على من استطاع، لأن الله يقول: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ قيل: فمن تمتع بالعمرة إلى الحج، أيجزی ذلك عنه؟ قال: نعم.

وفی تفسير العياشی عن أبی جعفر (ع): «العمرة واجبة بمنزلة الحج، لأن الله يقول: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ هی واجبة مثل الحج، ومن تمتع أجزأته، والعمرة فی أشهر الحج متعة».

فيما ذكر ابن كثير وكذا الطبری فی تفسيرهما روايات اختلفت فيما بينها؛ فبعضها يذهب إلى عدم وجوب العمرة فيما ذهب غيره إلى وجوبها، كما أن عدداً روى عنه أن لفظة العمرة الواردة فی الآية ليست منصوبة للمفعولية معطوفة على الحج، بل هی مرفوعة على الابتداء و «لله» الخبر، وبالتالی فالجملة مستأنفة وتبعاً لذلك اختلفت أقوال المفسرين والفقهاء فيهما:

قال ابن زيد: ليست العمرة واجبة على أحد من الناس. قال: فقلت له: قولُ الله تعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ؟ قال: ليس من الخلقِ أحدٌ ينبغی له إذا دَخَل فی أمر إلا أن يتمَّه، فإذا دخل فيها لم يَنْبَغ له أن يهلّ يوماً أو يومين ثم يرجع، كما لو صام يوماً لم ينبغ له أن يفطر فی نصف النهار.

حدثنا ابن المثنى، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة، قال: حدثنی سعيد بن أبی بردة أن الشعبی وأبا بردة تذاكرَا العمرة، قال: فقال الشعبی: تطوَّع، وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ. وقال أبو بردة: هی واجبة وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ.

حدثنی محمد بن عمرو، قال: ثنا أبو عاصم، قال: ثنا ابن عون، عن الشعبی أنه كان يقرأ: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ. أی كان الشعبی يقرأ العمرة رفعاً.

وقد روی عن الشعبی خلاف هذا القول، وإن كان المشهور عنه من القول هو هذا.

فعن المغيرة، عن الشعبی، قال: العمرةُ واجبةٌ.

فقراءة من قال: العمرة واجبة- نصبها، بمعنى أقيموا فرضَ الحجّ والعمرةَ،

حدثنا محمد بن المثنى، قال: أخبرنا محمد بن جعفر، قال: ثنا شعبة، قال: سمعت أبا إسحاق، يقول: سمعت مسروقاً يقول: أُمرتم فی كتاب الله بأربع: بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، والعمرة. قال: ثم تلا هذه الآية: وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ (۱)، وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ.

حدثنی أبو السائب، قال: ثنا ابن إدريس، قال: سمعت ليثاً يروی عن الحسن، عن مسروق، قال: أمرنا بإقامة أربعةٍ: الصلاة والزكاة، والعمرة والحجّ، فنزلت العُمْرة من الحج منزلةَ الزكاة من الصلاة.

۱- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۶۴

حدثنا ابن بشار، قال: أنبأنا محمد بن بكر، قال: ثنا ابن حريج، قال: قال على بن حسين وسعيد بن جبير، وسُئلا: أواجبةٌ العمرة على الناس؟ فكلاهما قال: ما نعلمها إلا واجبة، كما قال الله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ.

حدثنا سَوَّار بن عبد الله، قال: ثنا يحيى بن سعيد القطان، عن عبد الملك بن أبى سليمان، قال: سأل رجل سعيد بن جبير عن العمرة فريضَةٌ هى أم تطوعٌ؟ قال: فريضةٌ. قال: فإن الشعبى يقول: هى تطوع. قال: كَذَب الشعبى، وقرأ: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ

حدثنا الحسن بن يحيى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر، عن قتادة عمن سمع عطاء يقول فى قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ، قال: هما وَاجبان: الحج، والعمرة.

قال أبو جعفر: فتأويل هؤلاء فى قوله تبارك وتعالى: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ أنهما فرضَان واجبان أمرَ الله تبارك وتعالى بإقامتهما، كما أمر بإقامة الصلاة، وأنهما فريضتان، وأوجب العمرة وجوبَ الحج. وهم عدد كثير من الصحابة والتّابعين، ومن بعدهم من الخالفين، كرهنا تطويل الكتاب بذكرهم وذكر الروايات عنهم.

وقالوا: معنى قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ وأقيموا الحج والعمرة.

ذكر بعض من قال ذلك:

حدثنا موسى بن هارون، قال: ثنا عمرو بن حماد، قال: ثنا أسباط، عن السدى قوله: وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ يقول: أقيموا الحج والعمرة.

حدثنا أحمد بن حازم، قال: ثنا أبو نعيم، قال: ثنا إسرائيل، عن ثُوير، عن أبيه، عن على: «وأقيموا الحج والعمرة للبيت» ثم هى واجبةٌ مثل الحج.

حدثنا أحمد بن حازم، قال: ثنا أبو نعيم، قال: ثنا إسرائيل، قال: ثنا ثوير، عن أبيه، عن عبد الله: «وأقِيمُوا الحجَّ والعمرةَ إلى البيت» ثم قال عبد الله: والله لولا التحرُّجُ، وأنى لم أسمع من رسول الله (ص) فيها شيئًا، لقلت: إنّ العمرة واجبة مثل الحج.

وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة، عن أنس وجماعة من الصحابة: أن رسولالله (ص) جمع فى إحرامه بحج وعمرة، وثبت عنه فى الصحيح أنه قال لأصحابه: «من كان معه هَدْى فليهل بحج وعمرة».

وقال فى الصحيح أيضاً: «دخلت العمرة فى الحج إلى يوم القيامة». (۱)

إذن «وجوب العمرة وعدم وجوبها» عنوان كلام دار بين علماء التفسير والفقه وكل واحد منهما راح يدلى بأدلة ما يذهب إليه، والذى يرى عدم وجوبها يتمسك بأدلة منها قراءة الرفع التى نسبت إلى على وابن مسعود وزيد بن ثابت ونسبها القرطبى إلى الشعبى وأبى حيوة، وهى قراءة شاذة. (۲)

ويناقش الرازى فى هذا الخبر حيث يقول:

فإن قيل: قرأ على وابن مسعود والشعبى: وَالْعُمْرَةَ لله بالرفع، وهذا يدل على أنهم قصدوا إخراج العمرة عن حكم الحج فى الوجوب،

قلنا: هذا مدفوع من وجوه:

الأول: أن هذه قراءة شاذة فلا تعارض القراءة المتواترة.

الثانى: أن فيها ضعفاً فى العربية، لأنها تقتضى عطف الجملة الإسمية على الجملة الفعلية.

الثالث: أن قوله: وَالْعُمْرَةُ لِلهِ معناه أن العمرة عبادة الله، ومجرد كونها عبادة الله لا ينافى وجوبها، وإلا وقع التعارض بين مدلول القراءتين وهو غير جائز.

۱- تفسير ابن كثير وكذا تفسير الطبرى، سورة البقرة: ۱۹۶.

۲- انظر الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى ۳۱۳: ۲ وذكر فى هامش الصفحة المصادر.

ص: ۱۶۵

الرابع: أنه لما كان قوله: وَالْعُمْرَةُ لِلّهِ معناه: والعمرة عبادة الله. وجب أن يكون العمرة مأموراً بها لقوله تعالى: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ والأمر للوجوب، وحينئذ يحصل المقصود. (۱)

أما القرطبى فقال:

الرابعة: فى هذه الآية دليل على وجوب العمرة؛ لأنه تعالى أمر بإتمامها كما أمر بإتمام الحج. قال الصبى بن معبد: أتيت عمر رضى الله عنه فقلت: إنى كنت نصرانياً فأسلمت، وإنى وجدت الحج والعمرة مكتوبتين علىّ، وإنى أهللت بهما جميعاً، فقال له عمر: هديت لسنة نبيك. قال ابن المنذر: ولم ينكر عليه قوله: «وجدت الحج والعمرة مكتوبتين على»، وبوجوبهما قال على بن أبى طالب وابن عمر وابن عباس، وروى الدارقطنى عن ابن جريج قال: أخبرنى نافع أن عبد الله بن عمر كان يقول: ليس من خلق الله أحد إلا عليه حجة وعمرة واجبتان من استطاع ذلك سبيلًا، فمن زاد بعدها شيئاً فهو خير وتطوع. قال: ولم أسمعه يقول فى أهل مكة شيئاً. قال ابن جريج: وأخبرت عن عكرمة أن ابن عباس قال: العمرة واجبة كوجوب الحج من استطاع إليه سبيلًا،

وممن ذهب إلى وجوبها من التابعين عطاء وطاوس ومجاهد والحسن وابن سيرين والشعبى وسعيد بن جبير وأبو بردة ومسروق وعبد الله بن شداد والشافعى وأحمد وإسحاق وأبو عبيد وابن الجهم من المالكيين.

وقال الثورى: سمعنا أنها واجبة، وسئل زيد بن ثابت عن العمرة قبل الحج، فقال: صلاتان لا يضرك بأيهما بدأت، ذكره الدارقطنى، وروى مرفوعاً عن محمد بن سيرين عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله (ص): «إن الحج والعمرة فريضتان لا يضرك بأيهما بدأت» وكان مالك يقول: العمرة سنة ولا نعلم أحداً أرخص فى تركها، وهو قول النخعى وأصحاب الرأى فيما حكى ابن المنذر، وحكى بعض القزوينيين والبغداديين عن أبى حنيفة أنه كان يوجبها كالحج، وبأنها سنة ثابتة، قال ابن مسعود وجابر بن عبد الله.

روى الدارقطنى حدثنا محمد بن القاسم بن زكريا حدثنا محمد بن العلاء أبو كريب، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان، عن حجاج، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله قال: سأل رجل رسول الله (ص) عن الصلاة والزكاة والحج: أواجب هو؟ قال: (نعم) فسأله عن العمرة: أواجبة هى؟ قال: (لا وأن تعتمر خير لك).

رواه يحيى بن أيوب عن حجاج وابن جريج عن ابن المنكدر عن جابر موقوفاً من قول جابر، فهذه حجة من لم يوجبها من السنة.

قالوا: وأما الآية فلا حجة فيها للوجوب؛ لأن الله سبحانه إنما قرنها فى وجوب الإتمام لا فى الابتداء، فإنه ابتدأ الصلاة والزكاة فقال: وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ (۲)، وابتدأ بإيجاب الحج فقال: وَ لِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ (۳) ولما ذكر العمرة أمر بإتمامها لا بابتدائها، فلو حج عشر حجج، أو اعتمر عشر عمر لزم الإتمام فى جميعها، فإنما جاءت الآية لإلزام الإتمام لا لإلزام الابتداء، والله أعلم.

واحتج المخالف من جهة النظر على وجوبها بأن قال: عماد الحج الوقوف بعرفة، وليس فى العمرة وقوف، فلو كانت كسنّة الحج لوجب أن تساويه فى أفعاله، كما أن سنّة الصلاة تساوى فريضتها فى أفعالها.

أما الطبرى، فيخلص بعد سرده الطويل للأدلة والروايات التى ساقها حول الآية إلى قوله التالى:

وبما استشهدنا من الأدلة، فإن أولى القراءتين بالصواب فى «العمرة» قراءةُ من قرأها نصباً.

وأنّ أولى التأويلين فى قوله: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ تأويلُ ابن عباس الذى ذكرنا عنه من رواية على بن أبى طلحة عنه من أنه أمرٌ من الله بإتمام أعمالهما بعد الدُّخول فيهما وإيجابهما على ما أمِر به من حدودهما وسَنَنِهما.

۱- انظر التفسير الكبير للفخر الرازى: الآية.

۲- المزمل: ۲۰.

۳- آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۶۶

وأنّ أولی القولین فی الْعُمْرَةَ بـالصواب قول من قال: «هی تطوّع لا فرض». وإن معنی الآیـة: وأتموا أیها المؤمنون الحـجّ والعمرة لله بعد دخولکم فیهما وإیجابکموهما علی أنفسکم، علی ما أمرکم الله من حدودهما. (۱)

المذاهب الإسلامیة

وهنا لا بد لنا من تلخیص آراء المذاهب فقد اختلفوا فی حکم العمرة، هل هی واجبة أم سنّة؟

فـذهب الحنفیـة والمالکیـة علی أرجح القولین إلی أنها سـنة (مؤکدة) مرة فی العمر؛ لأن الأحادیث المشـهورة الثابتة الواردة فی تعداد فرائض الإسـلام لم یذکر منها العمرة مثل حدیث ابن عمر: «بنی الإسلام علی خمس» فإنه ذکر الحج مفرداً، وروی جابر أن أعرابیاً جاء إلی رسول الله (ص) فقال: یا رسول الله، أخبرنی عن العمرة، أواجبة هی؟ فقال: لا، وأن تعتمر خیر لک وفی روایة: «أولی لک». وروی أبو هریرة: «الحج جهاد والعمرة تطوع».

وهـذا هو مذهب جابر بن عبد الله و ابن مسـعود من الصـحابة، و النخعی من التابعین، ولم یر أصـحاب هذا القول فی الآیة محل البحث حجـة علی القول بوجوب الحـج أو العمرة، بـل رأوا أن دلالتهـا قاصـرة علی وجوب إتمامهمـا لمن أحرم بهما، وقالوا: إن دلیل وجوب الحج لیس مستفاداً من هذه الآیة، وإنما من أدلة أخری، کقوله تعالی:

وَ لِلهِ عَلَی النَّاسِ حِجُّ الْبَیْتِ (۲).

وقال مالک: العمرة سنة، ولا نعلم أحداً أرخص فی ترکها.

وذهب الشافعیـة والحنابلـة إلی القول بوجوب العمرة کالحـج، حیث قـالوا: العمرة فرض کالحـج، و اسـتدلوا بقوله تعالی: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ أی ائتوا بهما تامین ومقتضـی الأمر الوجوب،. نعم حملوا الأمر بالإتمام فی قوله تعالی: وَأَتِمُّواْ علی معنی وجوب فعل هذین النسکین. ولخبر عائشة قالت: «قلت: یا رسول الله، هل علی النساء جهاد؟ قال: نعم، جهاد لا قتال فیه: الحج والعمرة».

ویستظهر الدکتور الزحیلی صحة هذا الرأی لدلالة هذه الآیة ولضعف أحادیث الفریق الأول.

وذکروا أن هذا هو قول عمر و ابن عمر وبعض الصحابة، ومن التابعین عطاء و مجاهد و الحسن ..

وذکر الحنابلة- وهذا القول للزحیلی- عن أحمد: أنه لیس علی أهل مکة عمرة، بدلیل أن ابن عباس کان یری العمرة واجبة، ویقول: یا أهـل مکـة! لیس علیکم عمرة، إنمـا عمرتکم طوافکم بـالبیت. وروی ذلک عن عطاء، لأن رکن العمرة ومعظمها بالطواف بالبیت وهم یفعلونه، فاجزأ عنهم.

وعند الإمامیة تنقسم العمرة إلی:

عمرة مفردة مستقلة عن الحج ووقتها طوال أیام السنة بالاتفاق، وأفضل أوقاتها شهر رجب وعند غیرهم شهر رمضان.

عمرة التمتع: وهی عمرة منضـمة إلی فریضة الحج یأتی بها المکلف المسـتطیع أولًا ثم یأتی بأعمال الحج لتکتمل عنده حجة الإسـلام، ووقتها أشـهر الحج الثلاثة: شوال وذو القعدة وذو الحجة، وهناک فروق بین العمرتین وتفصـیل لأحکامهما موکول الی محله فی کتب الفقه. (۳)

۴- لله:

أی لوجه الله، یعنی اقصدوا الحج والعمرة لله، وافعلوهما له خاصة، أی لامتثال أمره ولموافقة إرادته وثوابه کما قیل فی النیة. هذا ما قاله المحقق الأردبیلی فی زبدة البیان.

۱- انظر تفسیر الطبری: الآیة.

۲- آل عمران: ۹۷.

۳- انظر الفقه الإسلامی وأدلته، تألیف الدکتور وهبة الزحیلی مع إضافة بسیطة. ومصادر هذه الأقوال ذکرها الدکتور فی هامش الجزء الثالث: ۱۸- ۱۹. و ما جاء فی الفقه علی المذاهب الخمسة للشیخ محمد جواد مغنیة: ۲۰۰.

ص: ۱۶۷

و أهم ما يدل عليه المقطع: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ هو أهمية أداء عبادتى الحج والعمرة وإتمامهما، وليس هذا فقط بل بتجريد التوجه بهما لله سبحانه وتعالى .. أى بإخلاص النية فيهما لله تعالى لا لغيره وبعيداً عن السمعة والرياء والشك والمعاصى ..

فقد جاء قوله: لله بعد الأمر بالإتمام، وهو ما يشير إلى أن المقصود من أداء هذين النسكين، وجه الله فحسب، وأنه لا ينبغى لمن يقوم بهما أن يقصد غير ذلك من متاع الدنيا، وهذا شأن العبادات خاصة، وأعمال المسلم عامة، فلا ينبغى أن يقصد بها غير وجه الله سبحانه، فهو المقصود أولًا وآخراً، وظاهراً وباطناً، قال تعالى: وَ ما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (۱) وقال أيضاً: وَ ما أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (۲)

يقول القرطبى فى تفسيره الآية: وفائدة التخصيص بذكر الله هنا أن العرب كانت تقصد الحج للاجتماع والتظاهر والتناضل والتنافر وقضاء الحاجة وحضور الأسواق، وكل ذلك ليس لله فيه طاعة، ولا حظ بقصد، ولا قربة بمعتقد، فأمر الله سبحانه بالقصد إليه لأداء فرضه وقضاء حقه، ثم سامح فى التجارة ..

ثم واصل كلامه قائلًا: لا خلاف بين العلماء فيمن شهد مناسك الحج وهو لا ينوى حجاً ولا عمرة- والقلم جار له وعليه- أن شهودها بغير نية ولا قصد غير مغن عنه، وأن النية تجب فرضاً، لقوله تعالى: وَأَتِمُّوا ومن تمام العبادة حضور النية، وهى فرض كالإحرام عند الإحرام لقوله (ع) لما ركب راحلته: «لبيك بحجة وعمرة معاً ...» ثم احتج بقوله (ص): «إنما الأعمال بالنيات». انتهى القرطبى من قوله.

يؤيد هذا قوله تعالى: وَ لا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (۳)، حيث إن إبطال العمل من أسباب وقوعه عدم صدق النية وعدم إدامتها ما دام العمل قائماً، ويستأنس فى هذا بما خلاصته «إن أحب الدين إليه تعالى ما داوم عليه صاحبه». كما أن إخلاص النية ركن صحة العبادة وقبولها من قبله تعالى، لهذا جاءت الآية: وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلهِ لله فقط لا لغيره، وهذا الإخلاص ينطبق على جميع العبادات كالصلاة والصيام وغيرها.

وختاماً: إن لكل من الحج والعمرة أحكاماً وأجزاء وشروطاً و آداباً وردت فى الشريعة الإسلامية، راح الإمام أبو عبد الله جعفر الصادق (ع) يشرح خصوصياتهما بما لا مزيد عليه، حتى نسب إلى أبى حنيفة أنه قال:

«لولا جعفر بن محمد ما عرف الناس مناسك حجهم». (۴)

وقد توفرت كتب الحديث والفقه على كل هذه الأمور لهذين المنسكين المباركين اللذين جعلهما الله تعالى محطة خير وعطاء يتزوّد الناس فيهما ومنهما التقوى: وَ تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوى وَ اتَّقُونِ يا أُولِى الأَلْبابِ (۵)، وباباً واسعاً لرحمته وغفرانه ورضاه، خصوصاً وقد اجتمعت فيهما أبعاد العبادات الروحية والبدنية والمالية وأهدافها ومقاصدها، مما يجعلهما قادرين على تلبية الزاد بكل مفاصله وأبعاده الروحية والمادية والاجتماعية .. للأفراد والجماعات والأمم ..

۱- الذاريات: ۵۶.

۲- البيِّنة: ۵.

۳- محمد: ۳۳.

۴- مواهب الرحمن فى تفسير القرآن للسيد السبزوارى ۱۴۱: ۳.

۵- البقرة: ۱۹۷.

ص: ۱۶۸

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخيص بحار الأنوار، للعلّامة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإماميّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثُلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹